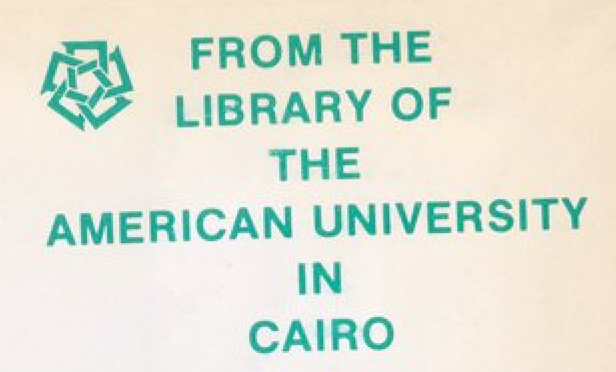
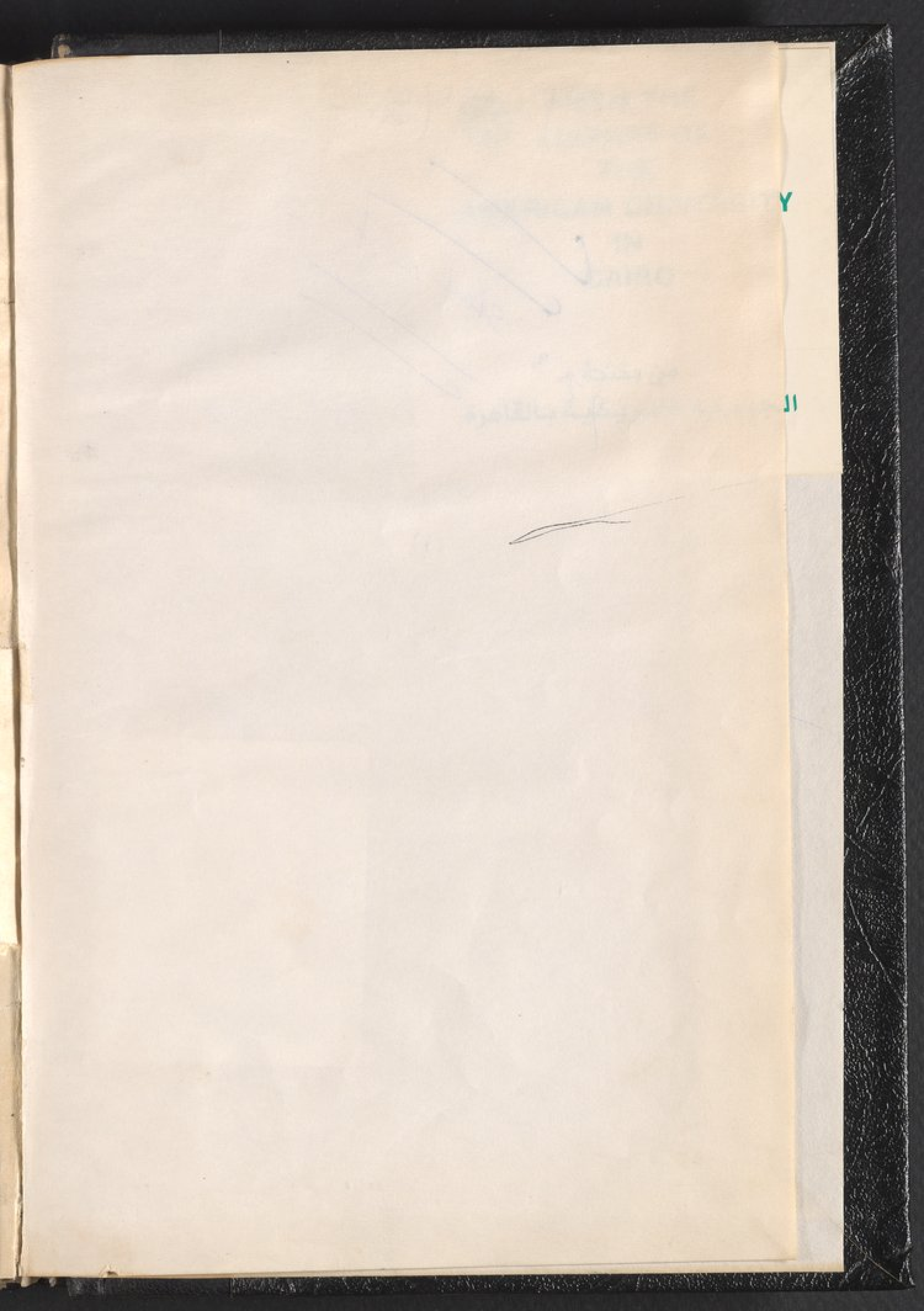

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01034 3675


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

start n.it



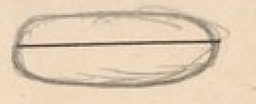
مصادر الكتاب

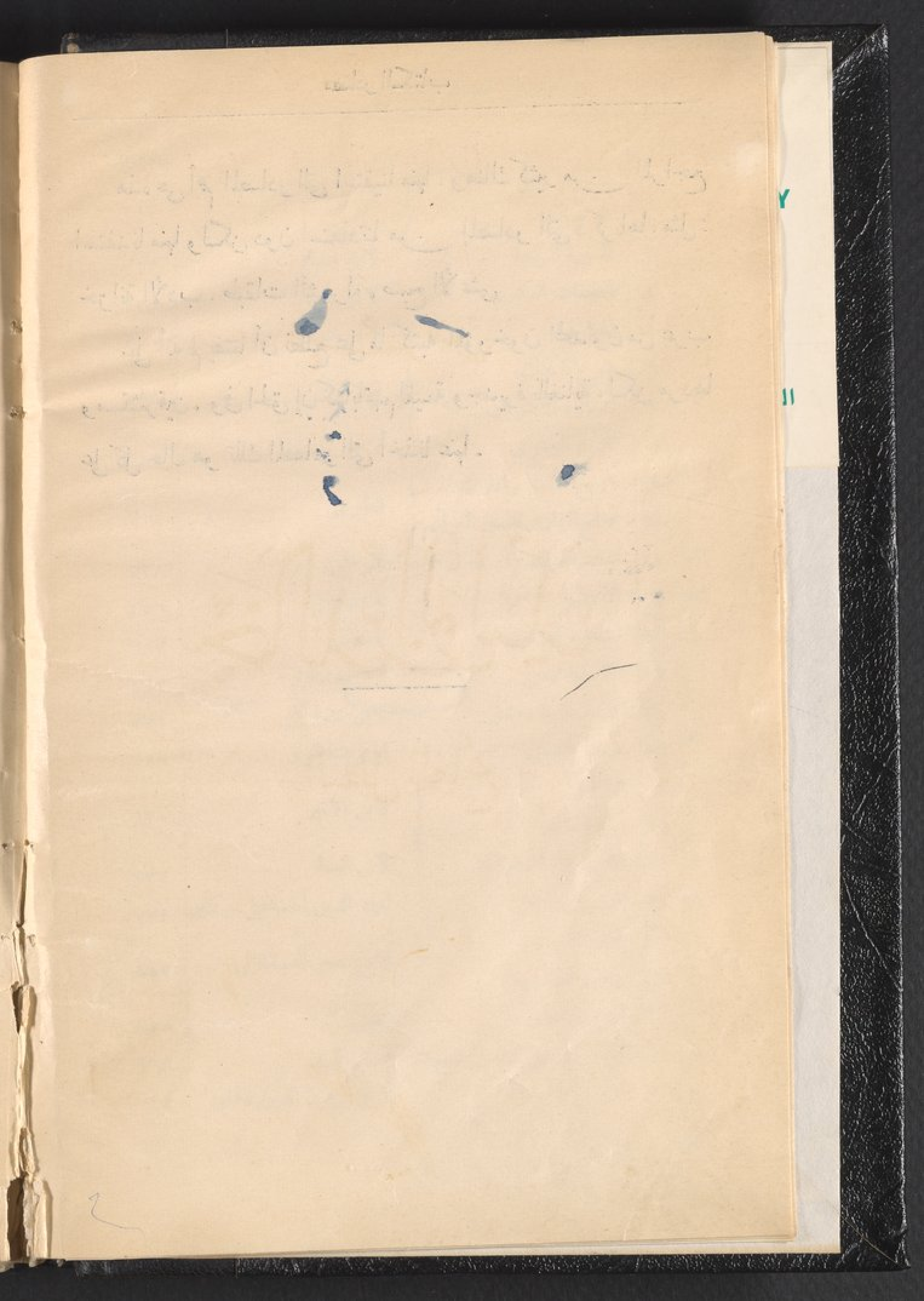
مصادر الكتاب

			تاريخ وفاة المؤلف
١	المغازى	للواقدى	٢٠٧
٢	فتوح الشام		
٣	السيرة النبوية	لابن هشام	٢١٣
٤	الطبقات الكبرى	لابن سعد	٢٣٠
٥	المعارف	لابن قتيبة	٢٧٠
٦	فتوح البلدان	للبلاذرى	٢٧٩
٧	أنساب الأشراف		
٨	تاريخ اليعقوبى	لاحمد بن يعقوب	٢٨٢
٩	تاريخ الأمم والملوك	للطبرى	٣١٠
١٠	جامع البيان فى تفسير القرآن		
١١	العقد الفريد	للقرطبى	٣٢٨
١٢	الأغانى	للاصفهانى	٣٥٦
١٣	أنساب القرشيين	للمقدسى	٣٨٧
١٤	الاستيعاب	لابن عبد البر	٤٦٣
١٥	تاريخ مدينة دمشق	لابن عساكر	٥٧١
١٦	معجم البلدان	لياقوت الحموى	٦٢٦
١٧	الكامل	لابن الأثير	٦٣٠
١٨	أسد الغابة		
١٩	المختصر فى أخبار البشر	لأبى الفدا	٧٣٢
٢٠	تفسير ابن كثير	لعماد الدين اسماعيل بن كثير	٧٧٤
٢١	الاصابة	لابن حجر العسقلانى	٨٥٢
٢٢	تهذيب التهذيب		
٢٣	شرح البخارى	للعينى	٨٥٥
٢٤	الخميس فى أحوال أنفس نفيس	للديار بكرى	٩٦٦
٢٥	السيرة الحلبية	لابن برهان الدين الحلبى	١٠٤٤

هذه هى أهم المصادر التى استقينا منها ، وهناك كثير من المراجع استفدنا منها ولكن دون استفادتنا من المصادر التى ذكرناها ، مثل : خزانة الأدب ، طبقات الشعراء ، صبح الأعشى

على أنه لم يفتنا أن نطلع على ما كتبه المؤرخون المحدثون من عرب ومستشرقين . وفى الحق إن كتاباتهم لقيمة وجديرة بالعناية ، لكن مردها على كل حال هو تلك المصادر التى أخذنا عنها .





فهرس

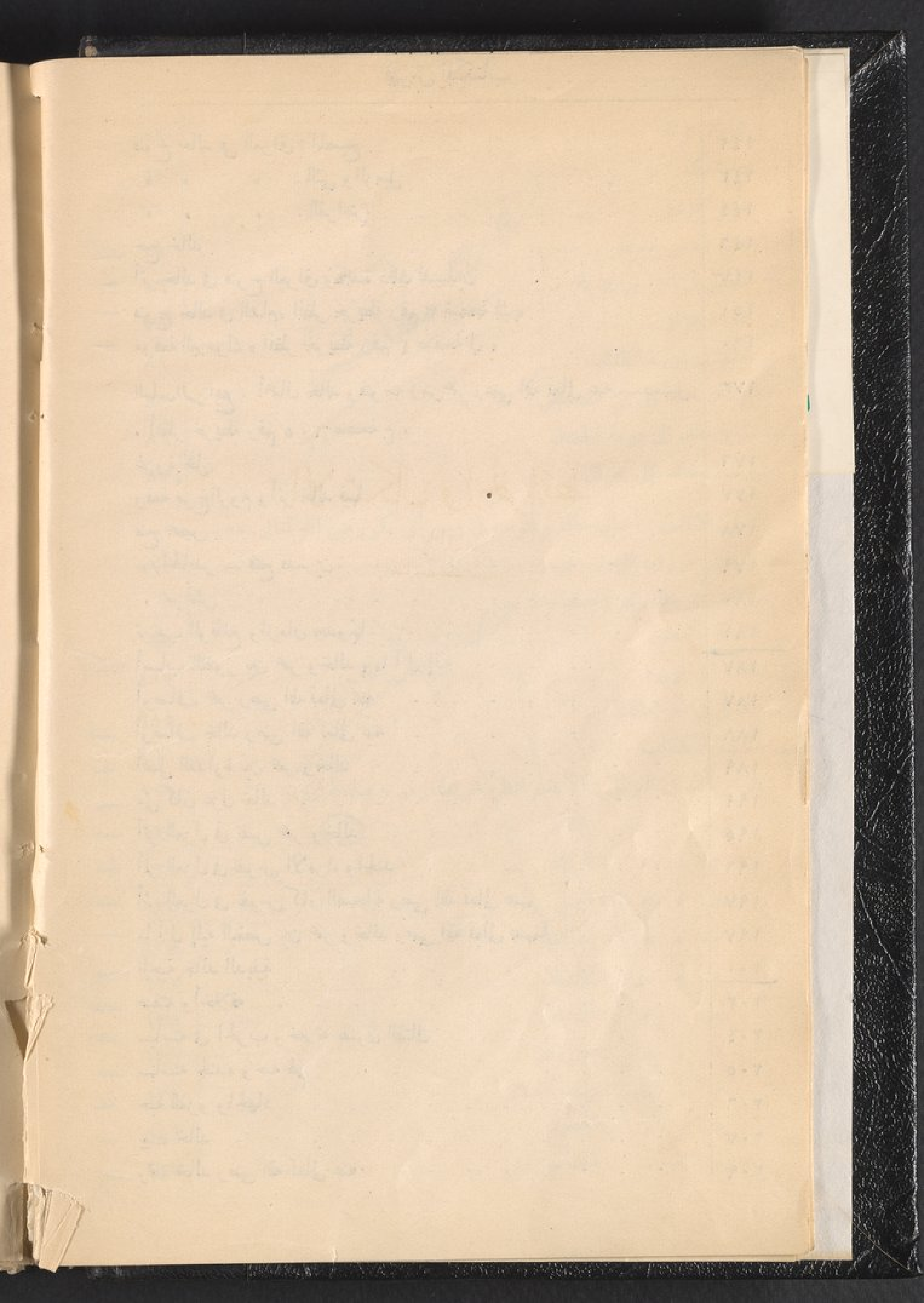
تاريخ سيف الله

خالد بن الوليد

البطل الفاتح

فهرس الأشكال والخرائط

ومواضعهم من الكتاب



الاشكال والخرائط

شكل رقم «١»

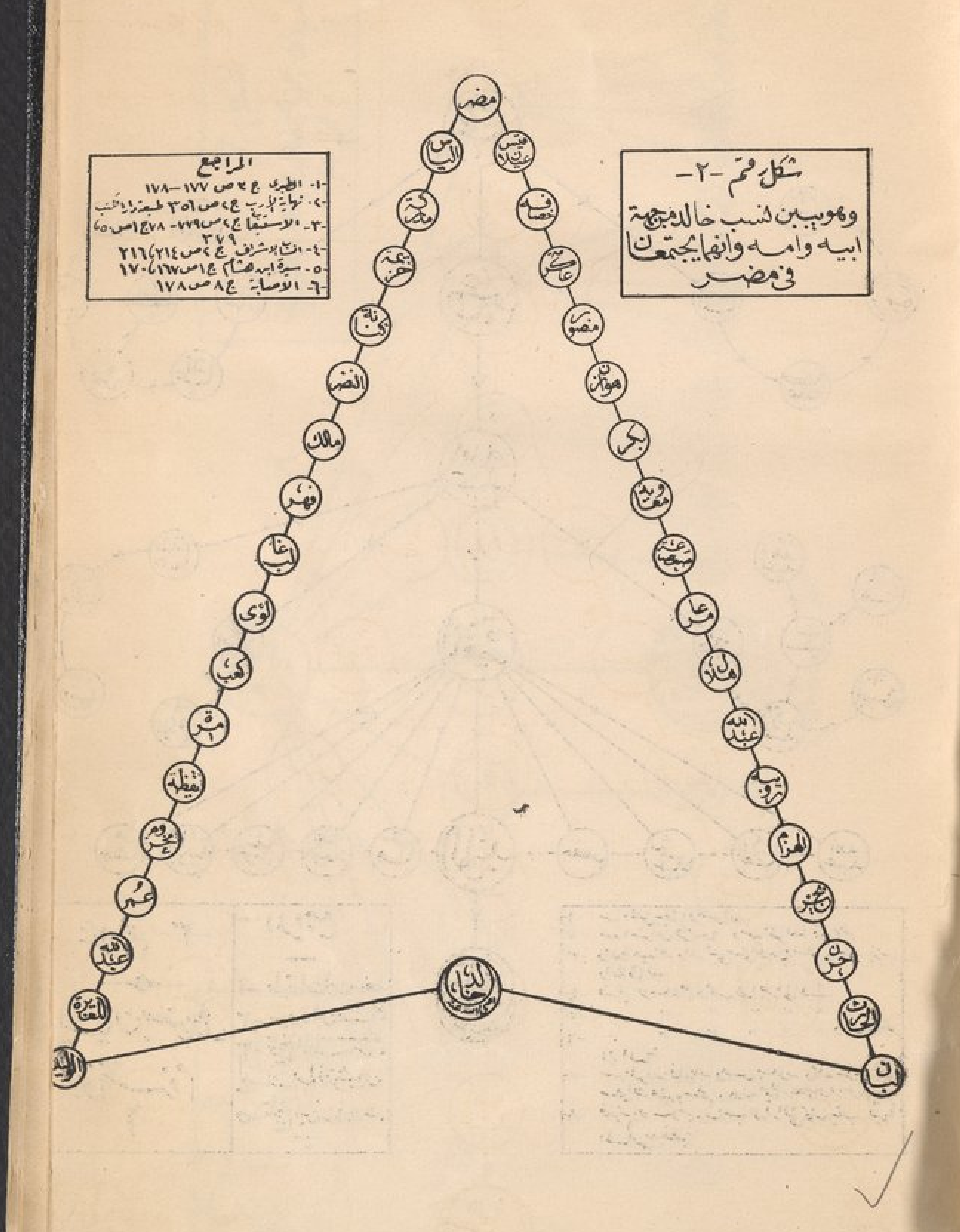
وهو يبين نسب (خالد) واتصاله بالعمود النبوي وبأبي بكر رضي الله عنه.

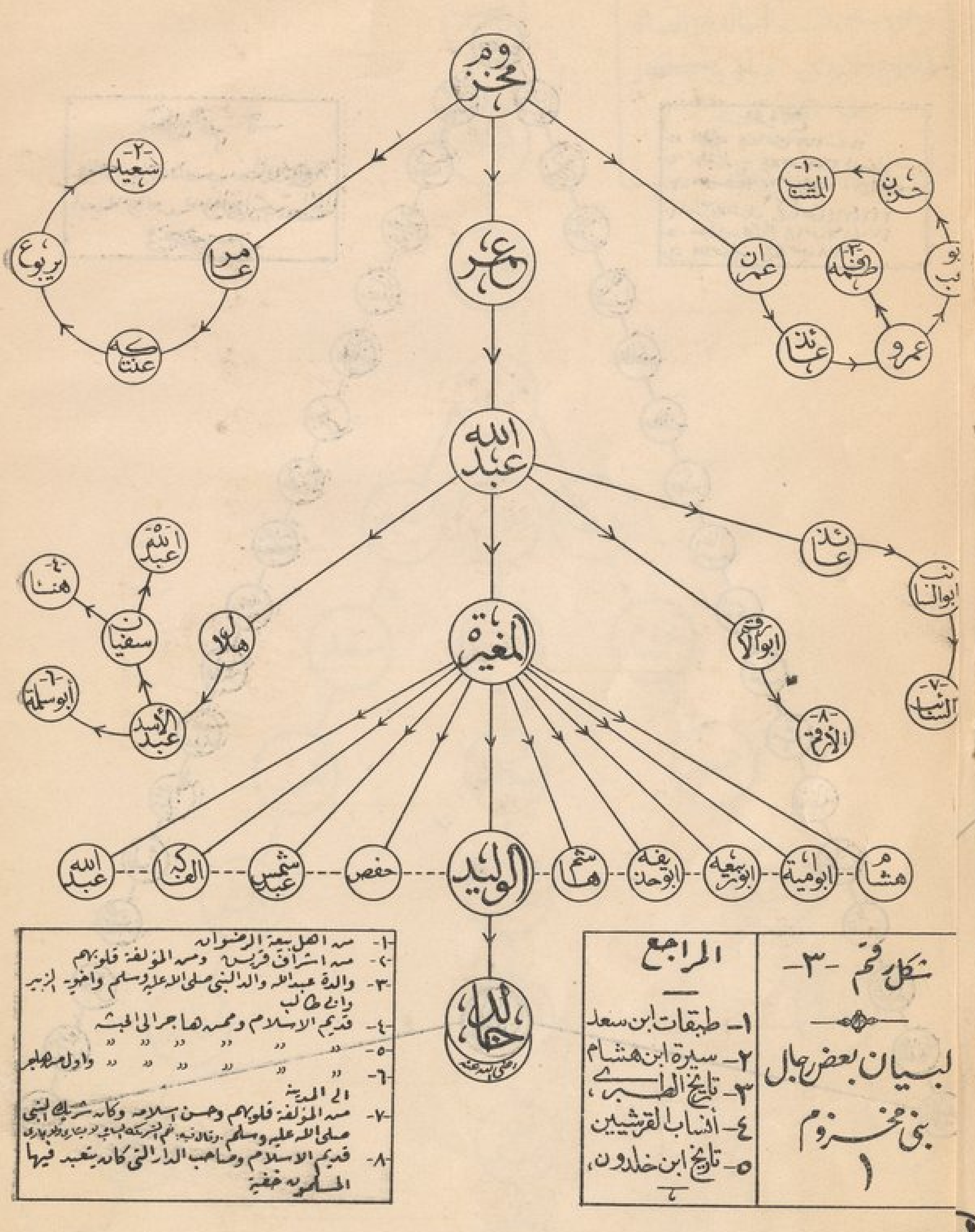
فهر (قريش)
غالب
لؤى
كعب
مرة

يقظة
مخزوم
عمر
عبد الله
المغيرة
الوليد
خالد
رضي الله عنه

كلاب
قصى
عبد مناف
هاشم
عبد المطلب
عبد الله
محمد
رسول الله
صلى الله عليه وسلم

تيم
سعد
كعب
عمرو
عامر
عثمان أبو قحافة
أبو بكر
رضي الله عنه


المراجع
١- الطبري ج ٢ ص ١٧٧ - ١٧٨
٢- نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٥٦ طبعة دار الكتب
٣- الاستيعاب ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٧٨ ج ١ ص ٥٠٥
٢٧٩
٤- انساب الاشراف ج ٢ ص ٢١٤ ، ٢١٦
٥- سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ ، ١٧٠
٦- الاصابة ج ٨ ص ١٧٨
شكل رقم -٢-
وهو يبين نسب خالد من جهة
ابيه وامه وانهما يجتمعان
في مضر
مضر
الياس
مدركة
خزيمة
كنانة
النضر
مالك
فهر
غالب
لؤي
كعب
مرة
يقظة
مخزوم
عمر
عبد الله
المغيرة
الوليد
قيس عيلان
خصفة
عكرمة
منصور
هوازن
بكر
معاوية
صعصعة
عامر
هلال
عبد الله
الهزم
حزن
الحارث
لبابة
خالد



شكل رقم -٣-

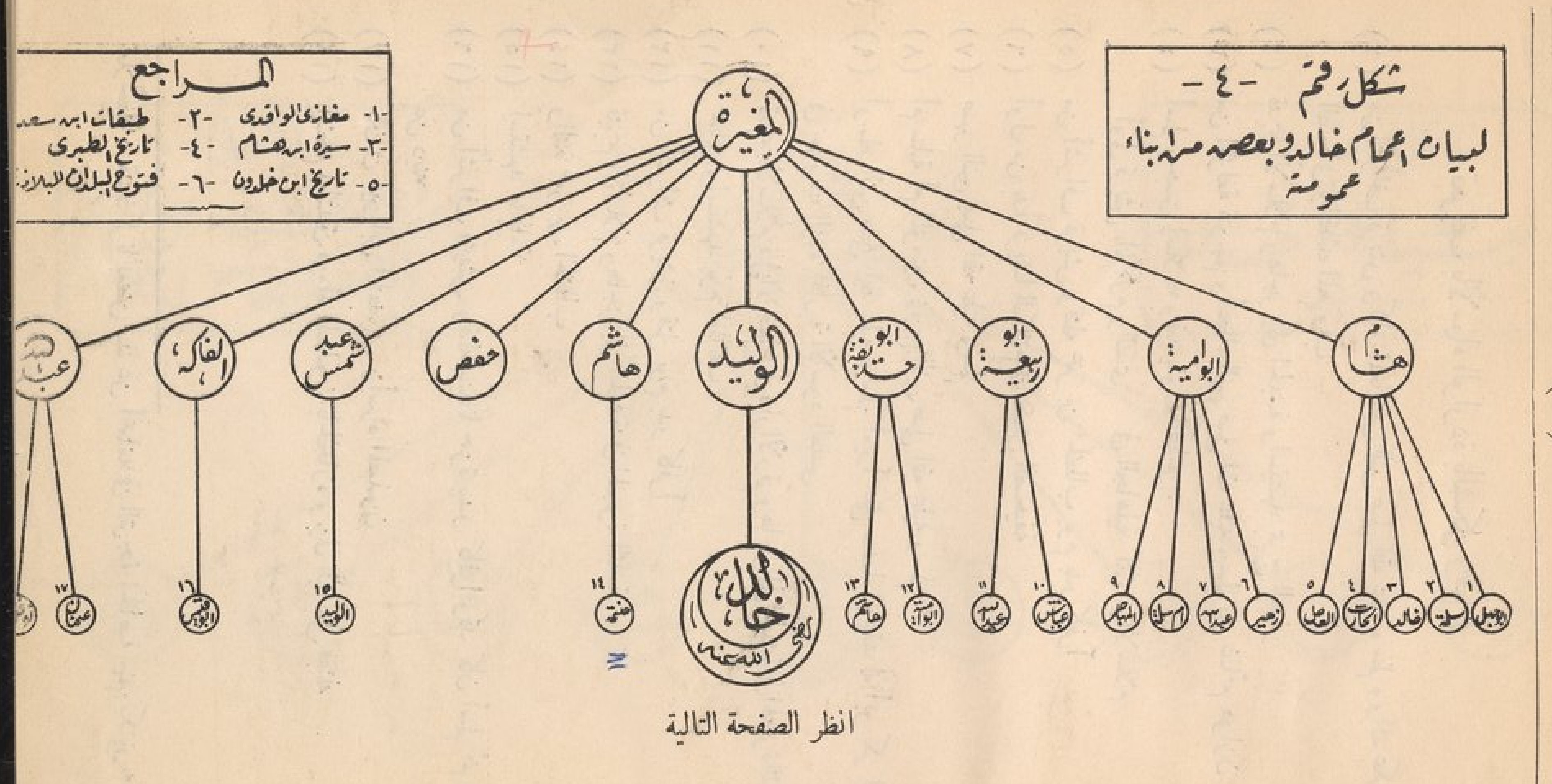
لبيان بعض رجال بني مخزوم

١

المراجع

١- طبقات ابن سعد
٢- سيرة ابن هشام
٣- تاريخ الطبري ،
٤- أنساب القرشيين
٥- تاريخ ابن خلدون ،

١- من أهل بيعة الرضوان
٢- من أشراف قريش ومن المؤلفة قلوبهم
٣- والدة عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم وأخوي الزبير وأبي طالب
٤- قديم الإسلام وممن هاجر إلى الحبشة
٥- " " " " " "
٦- " " " " " " وأول مهاجر إلى المدينة
٧- من المؤلفة قلوبهم وحسن إسلامه وكان شريك النبي صلى الله عليه وسلم.
٨- قديم الإسلام وصاحب الدار التي كان يتعبد فيها المسلمون خفية



انظر الصفحة التالية

تعريف بالأسماء الواردة بالشكل رقم ٤

(١) من أشراف قريش وكبار المعاندين للنبي صلى الله عليه وسلم ووالد عكرمة الصحابى والقائد المعروف

(٢) قديم الاسلام وهاجر إلى الحبشة واستشهد بمرج الصفر

(٣) من المؤلفة قلوبهم وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم هوازن

(٤) أسلم وحسن إسلامه وفيه يقول الشاعر :

أولى قريش بالمكارم والندى   فى الجاهلية كان والاسلام

(٥) من أشراف قريش وقتله عمر بن الخطاب يوم بدر كافراً

(٦) أول من بدأ قريشا الكلام فى نقض الصحيفة

(٧) صهر النبي صلى الله عليه وسلم

(٨) أم سلمة أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم

(٩) أرسله النبي صلى الله عليه وسلم أميراً على صنعاء وعقد له أبو بكر لواء فى حروب الردة لمحاربة الأسود العنسى

(١٠) قديم الاسلام قبل الاجتماع فى دار الأرقم وهاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية

(١١) صحابى واستشهد يوم الطائف

(١٢) من أشراف قريش وقتل يوم بدر كافراً

(١٣) قديم الاسلام وهاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية

(١٤) والدة عمر بن الخطاب

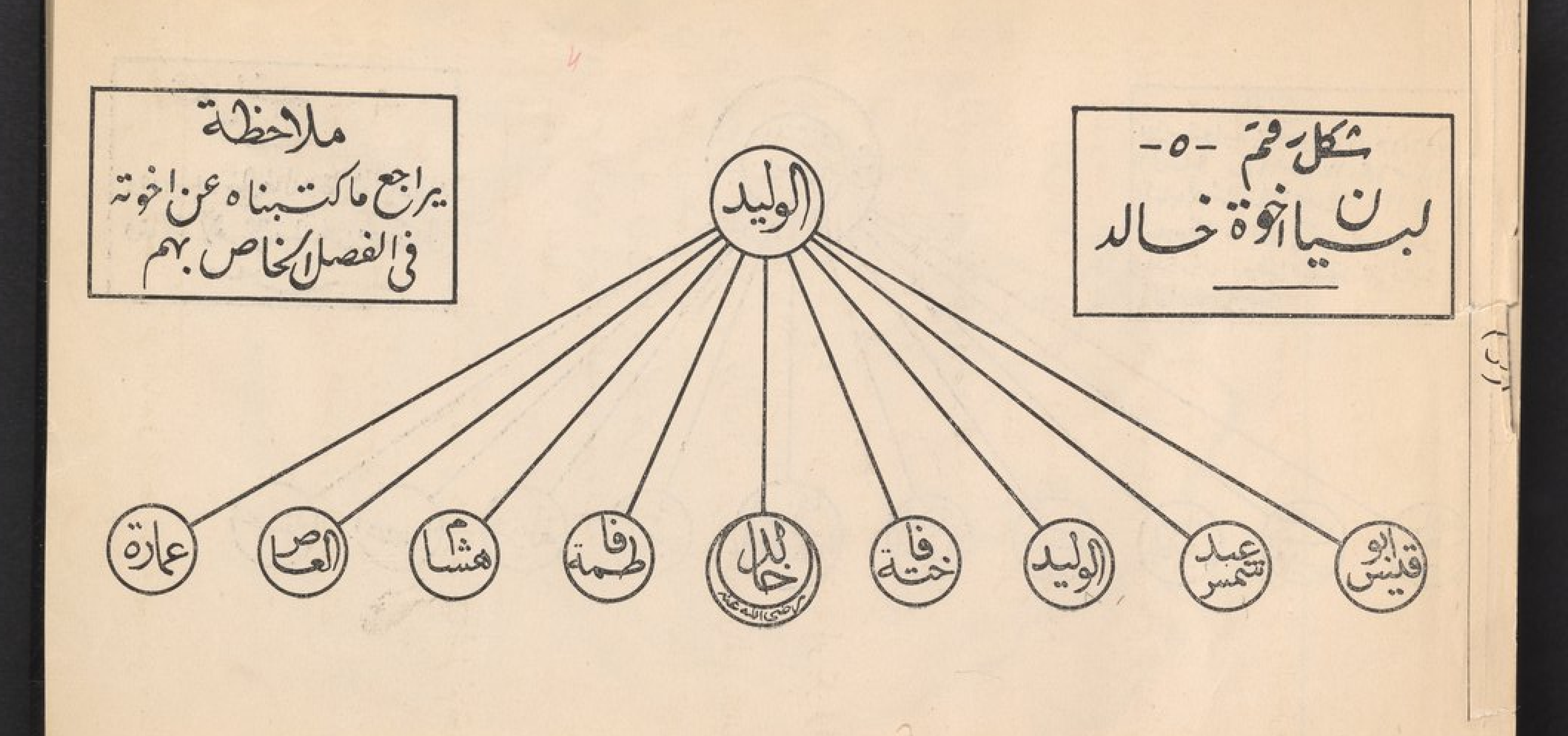
(١٥) استشهد باليمامة

(١٦) من أشراف قريش وقتله سيدنا حمزة ببدر كافرا وقد كان أسلم ثم فتن عن دينه

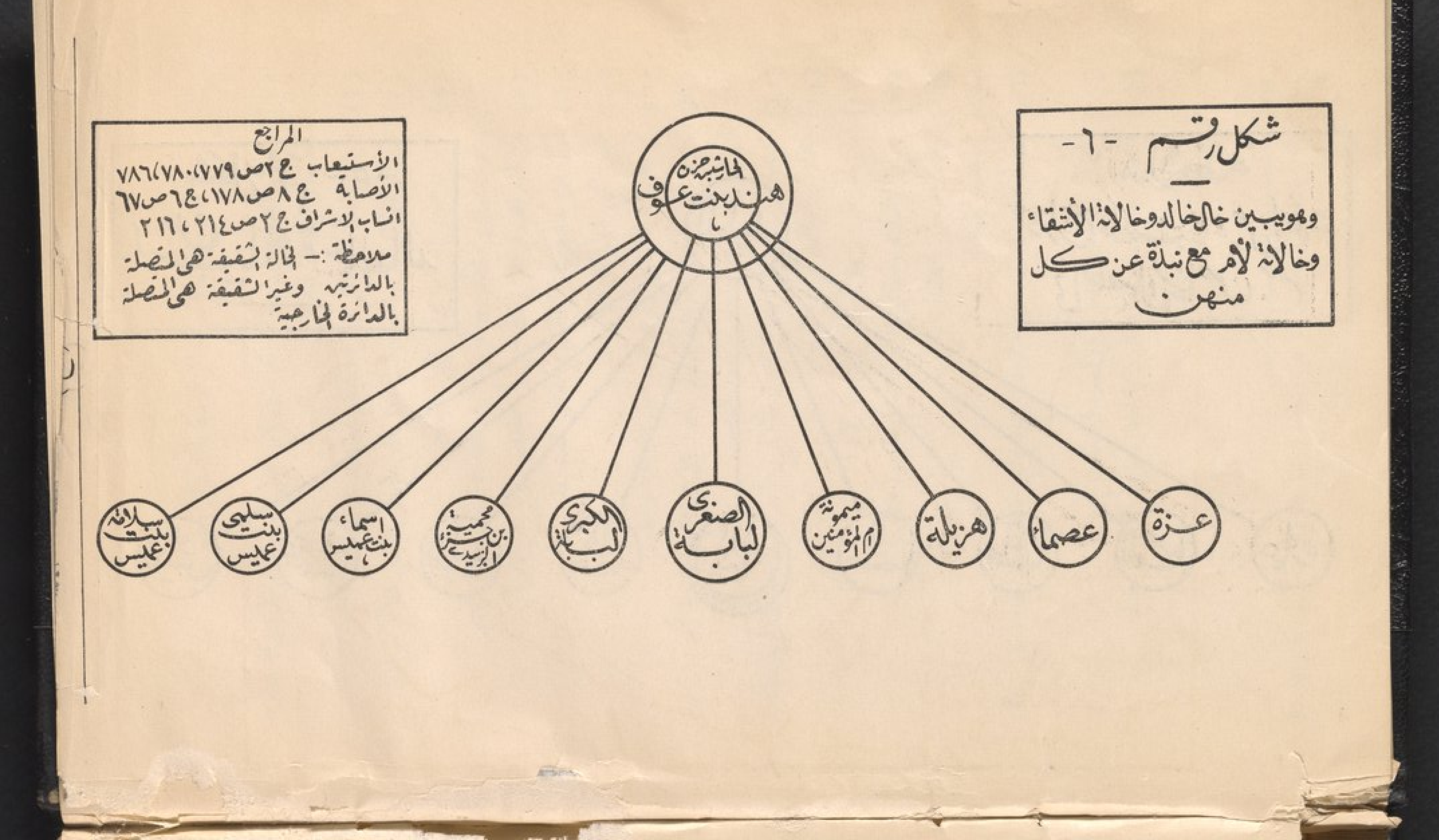
(١٧) كان فى عير ابن الحضرمى وأسره المسلمون

(١٨) اقتحم الخندق فرماه المسلمون بالحجارة ونزل اليه على فقتله

ملاحظة : قد ذكرنا بعض نبذ عن أعمامه فى الترجمة الخاصة بهم نكتفى به هنا



شكل رقم -٥-
لبيان اخوة خالد
ملاحظة
يراجع ماكتبناه عن اخوته
في الفصل الخاص بهم
الوليد
ابو قيس
عبد شمس
الوليد
فاختة
خالد
رضي الله عنه
فاطمة
هشام
العاص
عمارة



شكل رقم - ٦ -

وهو يبين خالات خالد وخالاته الأشقاء وخالاته لأم مع نبذة عن كل منهن

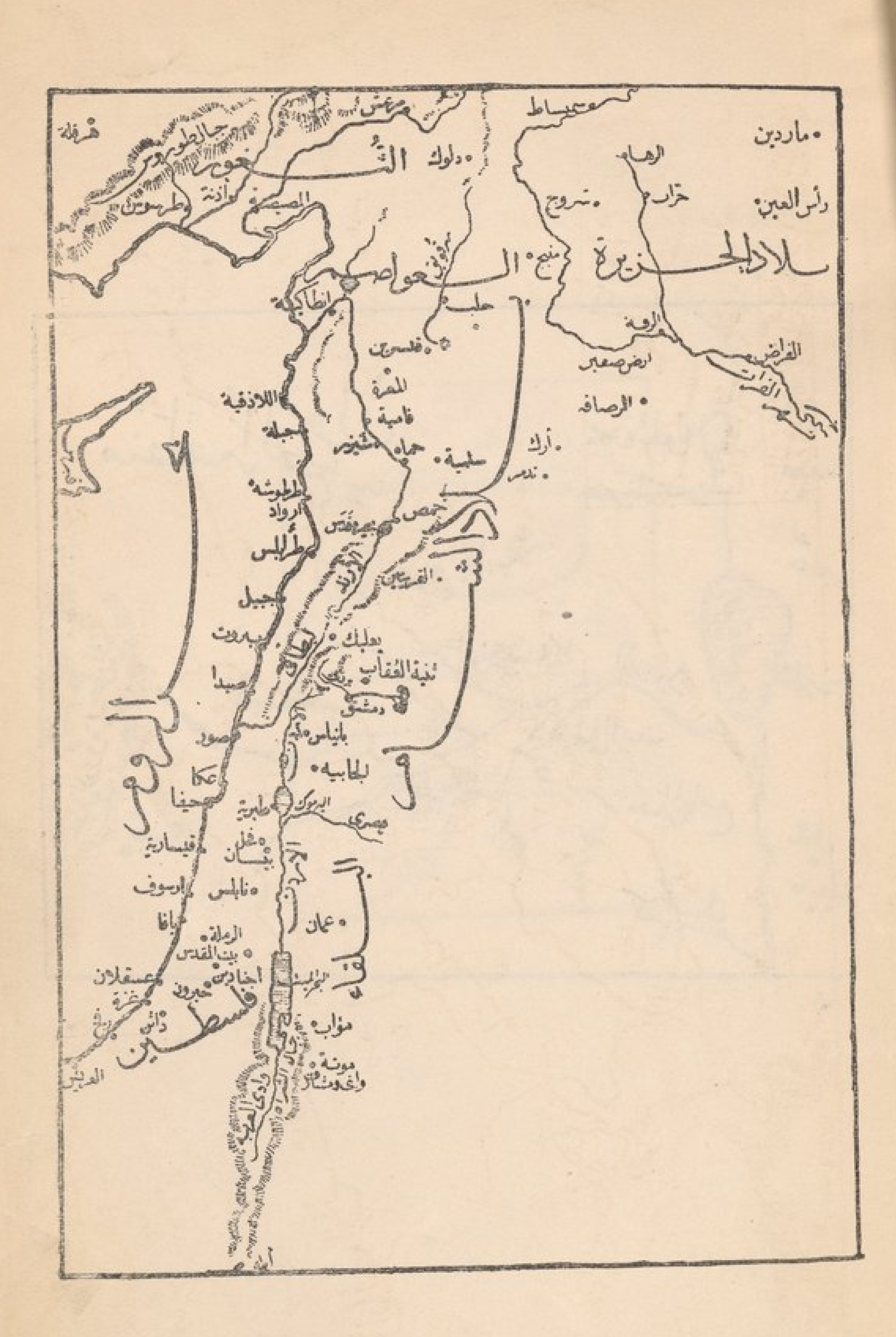

صفة جزيرة العرب
لبيان بعض المواضع التاريخية
واماكن القبائل التي ترد في حروب
الردة وغيرها
بحر الروم
مصر
النيل
النوبة
الحبشة
اليمن
الأحقاف او الربع الخالي
بحر الهند
والشحر وحضرموت
عمان
صحار
دبا
الأزد
هرمز
فارس
شيراز
اصطخر
خوزستان
همذان
نهاوند
الري
العراق العجمي
مداين كسرى
الأنبار
الجزيرة
الفرات
القادسية
العذيب
بنو كلب
دومة الجندل
قراقر
تبوك
تيماء
طيء
بنو أسد
فيد
الثعلبية
اليمامة
بنو حنيفة
عبد القيس
البحرين
هجر
المدينة
وادي القرى
فدك
خيبر
مكة
الطائف
ثقيف
تبالة
عبد مناة
هذيل
دمشق
بصرى
الجابية
اليرموك
مؤتة
معان
أيلة
العريش
الاسكندرية
منف
القلزم
قبرص

أرض العراقين والجزيرة

لبيان بعض الاماكن التي ترد في الفتح الاسلامي

رسم الشيخ محمد فريد الدين مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم

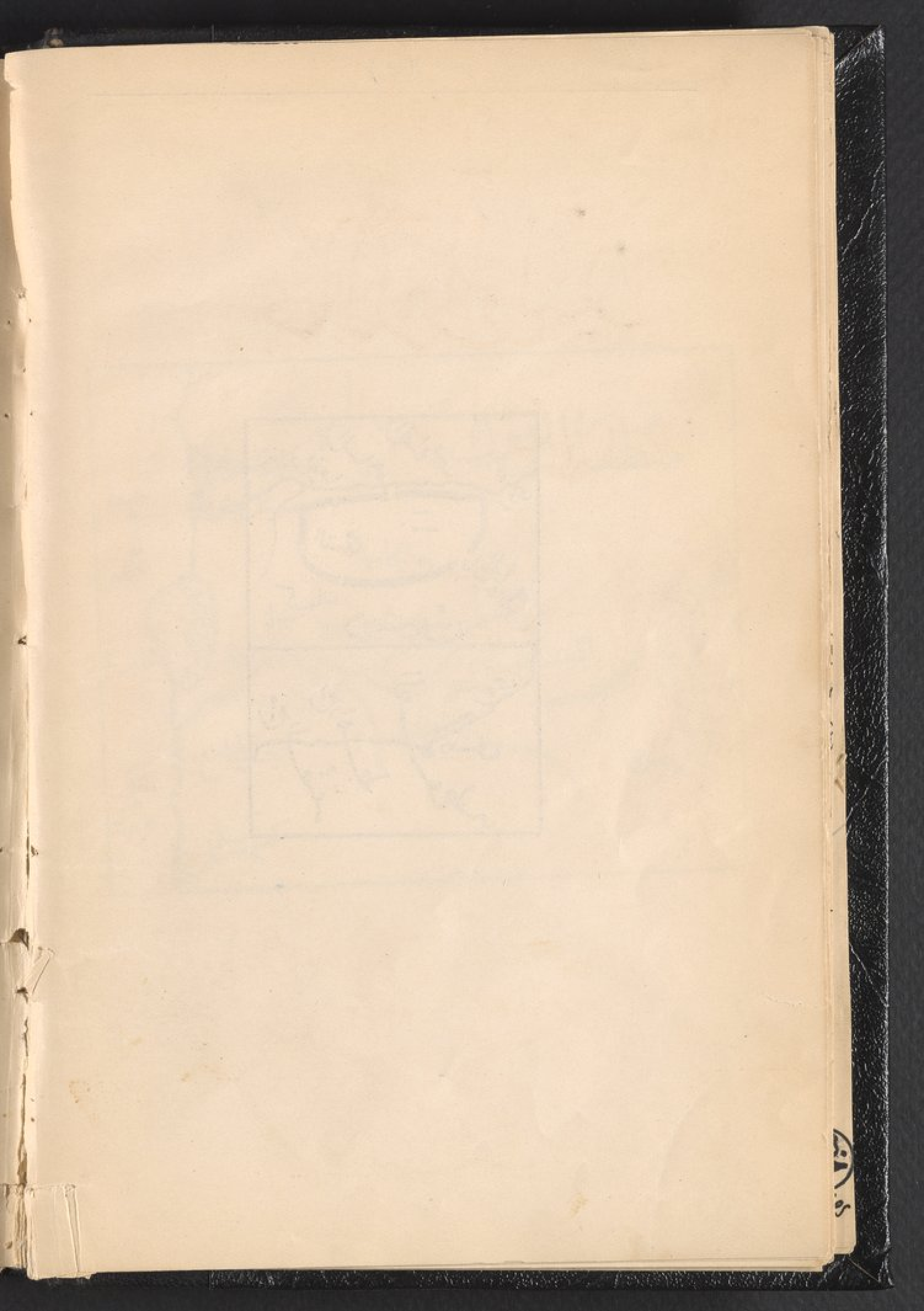
بحر الروم
بحر الخزر
بحر فارس
بادية الشام
ارض الجزيرة
ارض السواد
الجبال او العراق العجمى
كردستان
طبرستان
جيلان
اذربيجان
خوزستان
فارس
الضاحية العرب
بحيرة أرمية
المراغة
الرى
قزوين
ساوة
همدان
دينور (ماه الكوفة)
نهاوند (ماه البصرة)
قرميسين
حلوان
خانقين
جلولاء
شهرزور
دقوقاء
اربل
الزاب الاعلى
الزاب الاسفل
الموصل
سنجار
نصيبين
ماردين
راس العين
الرها
حران
الرقة
منبج
حلب
قنسرين
انطاكية
صفين
الفراض
الرصافة
قرقيسيا
الفرات
أراك
تدمر
حماه
حمص
العاصى
القريتين
بيروت
دمشق
بصرى
اليرموك
الاردن
البحر الميت
تكريت
سر من رأى
الاسكرة
النهروان
بغداد
الانبار
المدائن
ساباط
كربلاء
الحيرة
الكوفة
القادسية
العذيب
عين التمر
وادى حوران
الحصيد
الخافس
واسط
الوجة
المذار
البصرة
الابلة
وادى السباع
الحفير
كاظمة
سوس
حندسابور
تستر
الاهواز
رامهرمز
ارجان
اصبهان
جنابة
مواضع بانقيا وباروسما واليس وامغيشيا تقريبا



هرقلة
مرعش
سميساط
ماردين
دلوك
الرها
طرسوس
اذنة
المصيصة
سروج
حران
رأس العين
بلاد الجزيرة
منبج
انطاكية
حلب
قنسرين
الرقة
ارض صعبى
الرصافة
اللاذقية
المعرة
فامية
جبلة
شيزر
حماه
سلمية
أرك
تدمر
انطرطوسة
ارواد
حمص
بحيرة قدس
طرابلس
القريتين
جبيل
بيروت
بعلبك
ثنية العقاب
صيدا
دمشق
صور
بانياس
الجابية
عكا
حيفا
طبرية
اليرموك
بصرى
فحل
بيسان
قيسارية
ارسوف
نابلس
يافا
عمان
الرملة
بيت المقدس
عسقلان
اجنادين
حبرون
غزة
داثن
فلسطين
مواب
مونة
وادي موسى
العريش


منطقة اليرموك
بحيرة الحوله
جسر بنات يعقوب
صفد
الجابية
طبريه
الواقوصه
اليرموك
البثنية
آبل الزيت
اذرعات
جسر المجامع
فحل
كفر آبل
بصرى


باب الفراديس
باب السلام
باب توما
بردى
الشرقي
باب الجابية
باب كيسان
دمشق
بردى
دمشق



تاريخ

خالد بن الوليد

البطل الفاتح

تأليف

أبو زيد شلبي
خريج قسم التخصص بالازهر
والمدرس بالمعاهد الدينية

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

المطبعة المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد فهذه رسالة فى تاريخ عظيم من عظماء الاسلام ، وقائد هو بلا مراء أكبر قواد المسلمين ، ذلك هو سيف الله خالد بن الوليد .

وقد حبب إلى الكتابة فى سيرة هذا البطل العظيم وفتوحه أنى رأيت الأمم الناهضة لا تفتأ تشيد بذكرى أبطالها وعظمائها ، وتفخر بهم . ولا تدخر وسعاً فى تمجيدهم وتقديسهم . تذكر هؤلاء الأبطال فى المنازل والمعاهد ، فى النوادى والمجتمعات ، فينشأ ناشئهم وفى نفسه كل معانى الاجلال والاكبار لهؤلاء الأبطال .

وأرانا معاشر أهل الاسلام قد انصرفت نفوسنا عن تعرف حياة عظمائنا وسيرهم ، ومقدار ما بذلوه من جهد وطاقة فى نصرة دين الله وإعلاء كلمته ، وما كان لهم من فضل فى رفعة أممهم وأوطانهم ، مما كان له أكبر الأثر فيما نحن فيه من نعمة ، وما ندعيه من مجد . وإنه لمن الظلم أن نهنأ بمجهودهم ، ونرفل فى نعيمهم ، ولا نعرفهم ولا نحتفظ بمخلفاتهم ، وما كان لهم من مآثر صالحات ، بل كثيراً ما نعقهم ونغمطهم حقهم حتى فيما يعترف لهم به أعداؤهم ، ولا سيما تلك الفئة منا الذين يدعون لأنفسهم — ظلما — أنهم أهل الثقافة والعرفان ، فترى الواحد منهم إذا احتاج إلى ضرب مثل ، أو الاستشهاد على حادثة فسرعان ما يعمد لنابليون أو

بسمارك ليقتبس من سيرته وأعماله كأن أمته ليست من الأمم التى تتصل بماض تفخر به ، أو كأن قومه ليس فيهم من الرجال من يسامى بسمارك او يقارع نابليون ، بيد أنه لو رجع إلى تاريخ قومه لوجد ما تقر به عينه ، ولعثر على جم الشواهد والمثل .

لنقف قليلا ثم نتصور أن خالد بن الوليد كان فى أمة حية كالأمة الانجليزية مثلا ، ثم لننظر كم من الحفلات تقام للإشادة بذكره ، وكم من المعاهد والمدارس تعرف باسمه ! (١)

على أن من دواعى سرورى واغتباطى أننى فى أثناء دراستى بقسم التخصص كنت مجدوداً بأولئك الأساتذة الأجلاء ، والسادة الفضلاء ، فقد كان لغيرتهم على الاسلام وأبناء الاسلام ودأبهم على العمل لاعادة مجدهم أثر عظيم فى نفسى حفزنى على أن أسير قدما فيما عليه عزمت ، فان كنت قد أحسنت الاختيار فى موضوع رسالتى هذه ، أو كان فيها بحث مفيد ، أو رأى سديد ، فمرده إلى إرشاد أساتذتى ونصائحهم .

وقد شجعنى على أن أتقدم برسالتى هذه لهيئة الامتحان النهائى لقسم التخصص بالأزهر أنى رأيت الروح السائدة لمن كان لى شرف الاستفادة من آرائه ومباحثه إظهار تلك الشخصيات البارزة من أبناء الاسلام ، والاستفادة من أعمالهم وسيرهم

---

(١) يسرنى أنى اطلعت فى صحيفة البلاغ من العدد رقم ٣١٨٥ الصادر فى مساء يوم الاثنين ٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٢ ، ٣١ يولية سنة ١٩٣٣ على أن نخبة من الشبان فى بورسعيد ألفوا فرقة للكشافة أطلقوا عليها اسم « كشافة خالد بن الوليد » . وفى الحق أن مثل تلك الجماعة من أبناء الاسلام لمن أجدر الناس بالتيمن باسم خالد والتشبه بشهامته وشجاعته

على أنى لم أر من المؤرخين من كتب كتابة مستقلة مستوفاة لهذا القائد الكبير . ولعلى برسالتى هذه أتوصل إلى نشر شىء يعتد به من سيرة ذلك القائد المظفر الذى أبلى فى جهاد دولتى الروم والفرس البلاء الحسن، فانتشر الاسلام وساد فى تلك الأرجاء الواسعة .

وسأبذل جهدى فى تذليل ما يعترضنى من صعوبات وبخاصة البحث فى مراجع التاريخ العربية القديمة التى عليها المعول فى مثل موضوعنا هذا ، فأستعين الله وأستمد منه المعونة أن يوفقنى لاظهار شىء أستطيع تقديمه لمن يهمهم الاطلاع على تاريخ ذلك القائد العظيم الذى لا يجود الدهر بمثله ؟

ابو زيد شلبى

تصدير

الأمة برجالها، والرجال بأعمالهم، فالأمة تعلو بأبنائها المخلصين، وعلمائها الباحثين، وصناعها المجيدين، وأبطالها المجاهدين، وساستها المبرزين. وخليق بمثل تلك الأمة أن تسود، وأن تملى إرادتها على من سواها.

ولقد كان العرب قبل الاسلام أمة متبدية متنافرة لا تجمعهم رابطة، ولا يؤلف بين قلوبهم غرض أو غاية، يأنفون من الخضوع لرئيس، فلا يذعنون إلا لسيوفهم ورماحهم، يهيجهم تافه الأمر، ويضرم نار الحرب بينهم وَشَلَ[1]. قل أن يعرفوا لغيرهم واجباً، أو يقيموا للمساواة وزنا. شعارهم «انصر أخاك ظالما أو مظلوما[2]» فكانوا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

كانت هذه الأمة تعبد الأصنام والأوثان رجاء أن تقربهم إلى الله زلفى، متجافين عن العلم والتعلم، بعيدين عن التدبر والتفكر، إلا ما كان من معرفة ماهو ضرورى لحياتهم، كالسلاح والطب فى أبسط حالاته، ومعرفة النجوم والأنواء لحاجتهم إليها فى حلهم وترحالهم. فلما تأذن الله للاسلام بالظهور وأراد لهذه الأمة من الخير ما أراد، مهد لهذا الدين بوجود أفراد ذوى نظر وعمق وروية وثاقب فكر، لهم أثر غير منزور

(١) قال فى القاموس: (الوشل) محركة الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره

(٢) من غير أن يعدلوه بما عدله به الاسلام

فى تنبيه العقول وتهيئتها للدين الجديد مثل : أكثم بن صيفى ، وقس بن ساعدة [١] ، وورقة بن نوفل ومن إليهم ، ففاهوا بالحكم والمواعظ وحثوا على خلال الخير وخير الخلال ، وأخذوا ينعون على قومهم ما هم فيه من ضلال وباطل ، وأخذ فريق منهم يتلمس دين ابراهيم بينما كان فريق آخر يجد ويبحث عله يصل إلى دين أهدى مما عليه قومه [٢]

وما أشبه هذا الفريق من الحكماء والمفكرين بالبريق الذى يضىء قبيل الفجر ثم يخبو مؤذنا بالفجر الصادق الذى يسطع وتطلع شمسه فيعم ضياؤه كل الأرجاء ، ويطبق الآفاق .

انبثق فجر الاسلام وسط ظلام حالك من استبداد الأكاسرة ، وتجبر القياصرة ، والعكوف على عبادة الأحجار والكواكب وغيرها ، فكان من فضل الله ورحمته بعباده أن جاء الاسلام مبينا للناس أن الذى يجب أن يعبد إنما هو الله وحده لا إله غيره ، آمرا بمكارم الأخلاق وجميل الصفات ، مسويا بين الناس ، وأنهم إنما يتفاضلون بالتقوى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « فليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

ولقد كانت الأمة الاسلامية فى عهدها الأول المثل الأعلى فسادت العالم ، وأرته كيف تكون التضحية للوطن ، والدفاع عن العقيدة ، وعلمته مبلغ أثر الاتحاد فى النصر ، وقيمة المساواة بين الرعية .

كانت الأمة الاسلامية فى بدئها تعرف العدل على أنه عدل فلا محاباة لابن الامير وإن جل ، ولا غبن على ابن الفقير وإن قل

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٢

(٢) سيأتى لهذا القول فضل بيان عند الكلام على مركز مكة السياسى

اجتمعت كلمة المسلمين ووحدوا صفوفهم تحت رمز واحد هو : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فعند هذه الكلمة تهتز القلوب ، وتطرب النفوس ، وتذوب الضغائن ، وتمحى [١] الأحقاد ، عند هذه الكلمة يجتمعون ، وإليها يرجعون ، ولأجلها يجاهدون .

تلك الكلمة هى التى أوحت لمثل عكرمة بن أبى جهل أن يقول : « من يبايع على الموت[٢] » . وهذا المعنى السامى هو الذى جعل العربى القح يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد [٣]

حقا إن الانسان ليدهش لتلك الأمة ويحار لفتوحها الخالدة وهى قريبة عهد بالبداوة والانقسام ؛ فأى شىء طرأ على تلك الأمة أمة الشيح والقيصوم فهذبها ، وألف بين كلمتها وأحكم وحدتها ، بعد أن كان بيت من الشعر يقوله صعلوك كافيا للقطيعة بين بنى الأب الواحد ، ووقوفهم متصافحين بالسيوف .

ماذا حدث لتلك وماذا طرأ ؟ أتراه الدين الجديد الذى اعتنقوه ، ام العدل الذى بسطوه ، أم التسوية بين السيد والمسود ، أم حسن التزجية للجيوش ؟!

لاجدال فى أن الدين الجديد هو الأساس الذى جمع شملهم ، ووحد

---

(١) محاه فامحى كادعى وامتحى لغة قليلة أو رديئة . شرح القاموس

(٢) سيأتى بيان ذلك عند الكلام على موقعة اليرموك

(٣) قائله عمير بن الحمام أخو بنى سلمة يوم بدر حينما حرض النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين للقتال فألقى بتمرات كانت بيده وقاتل حتى قتل ـ الطبرى ج ٢ ص ٢٨١

كلمتهم، وحذرهم مما كانوا عليه فى جاهليتهم، ووجه همتهم لتكوين دولتهم، بعد أن كانت قواهم ضائعة فى منازعاتهم [١].

هو الذى أذاقهم طعم المساواة والعدل. هو الذى حضهم على الاتحاد وحذرهم مغبة التنازع والاختلاف بقوله: «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا». هو الذى عرفهم بالقيمة المعنوية فى الجيش وأن عليها يكون النصر فقال لهم: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون» [٢]

هو الذى صقل عقولهم وجعلها تفكر فيما حولها، بما استحثهم به من آى الذكر الحكيم كقوله تعالى: «أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء»

تفتحت أعينهم على ما جاورهم ورأوا الدنيا ونعيمها وفيئها ومتعها، ووراء هذا النعيم سادات يتلذذون، وعبيد يتحسرون، وظلم جارف، وتحكم فى عباد الله لا ترضاه الانسانية، ولا تقره الأديان الحقة. رأوا هذا ورأوا دينهم الذى ارتضوه قد ألقى عليهم مهمة المرشد المخرج للناس

---

(١) يقول الفيلسوف جوستاف لوبون فى الفصل الرابع من كتابه التعاليم النفسية للحرب الأوربية تحت عنوان: «أثر العوامل الروحانية فى منشأ الحرب» ما نصه: «فبفضل إيمان العرب تمكنت تلك الجماعة القليلة فى مدة وجيزة من فتح جميع العالم المتمدين تقريباً، وشيدت مملكة امتدت من مشارق الأرض إلى مغاربها» ص ٦٦ طبعة الهلال سنة ١٩١٦

(٢) قال فى العقد الفريد: جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب فى آيتين من كتابه فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا)

من الظلمات إلى النور ، فكان حقاً عليهم أن يمتثلوا قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

فعند ما استقرت الأمور ، وهدأت الأحوال التى أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تهيأ المسلمون لطاعة الله . واستعدوا لنشر دينه ، وهداية عبيده ، وقد ساعدهم على ذلك ، وسهل عليهم مهمتهم أن هيأ الله لهم رجالا باعوا أنفسهم فى طاعة الله ، ونسوا كل شىء إلا إعلاء كلمته ، وهداية خليقته ، أمثال ابى بكر وعمر وعثمان وعلى وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد . بيد أن خالدا كان فارس الحلبة ، فهو فاقىء عين الردة ، وفاتح السواد ، وصاحب يوم اليرموك .

تلك الفتوح العظيمة التى صيرته بحق القائد الأول وجعلت اسمه يهزم الجيوش ، ويقوض العروش .



الباب الأول

خالد بن الوليد قبل الإسلام

« نسبه ، ولادته ، بيئته التى عاش فيها ، البيئة الطبيعية ، البيئة الاجتماعية ، مركز مكة الدينى ، مركزها التجارى ، مركزها الادبى والاخلاقى ، مركزها السياسى ، قبيلته ، عمومته ، أخوته ، والدته ، والده ، شرفه ومكانته فى قريش ، صناعته ، السر فى أنه كان حربياً مظفراً ، موقفه ازاء الاسلام ، موقفه فى احد ، موقفه فى الخندق ، موقفه في الحديبية ، موقفه فى عمرة القضاء »

نسبه

هو أبو سليمان [١] خالد بن الوليد بن المغيرة عبد الله بن عمر [٢] بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى ، فهو يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه فى الأب السابع للنبى صلى الله عليه وسلم وهو مرة (انظر شكل رقم ١)

وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن الهلالية . وتلتقى مع الوليد أبى خالد فى مضر [٣] (انظر الشكل رقم ٢)

---

(١) وقيل أبو الوليد وما فى الأصل أشهر

(٢) فى بعض كتب التاريخ عمرو بدل عمر وهو تحريف صحناه من المراجع المخطوطة والمطبوعة المعتنى بتصحيحها مثل : أنساب القرشيين ج ١ ص ٥٩ وابن هشام فى مواضع عدة من الجزء الأول والثانى ، ابن سعد ج ٣ فى كثير من المواضع ، الطبرى ج ٢ ، ٣ فى أكثر من موضع منهما

(٣) سنفرد بحثاً خاصاً لكل من أبيه وأمه

ولادته

لم نجد بين كتب التاريخ التى اطلعنا عليها نصاً يبين تاريخ ولادة خالد غير أن ابن عساكر فى تاريخه،[١] وابن برهان الدين فى سيرته ذكرا أنه قد « اصطرع عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وهما غلامان ، وكان خالد ابن خال عمر فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبرت » . وهذه الحادثة تعطينا أن سنيهما كانتا متقاربتين جد التقارب ، إذ العادة جرت بمصارعة الغلمان اذا كانوا أتراباً ، وعليه فتكون سنه حين جاء الاسلام سبعاً وعشرين سنة تقريباً ، وهى سن عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وإذا كان من قصدنا أن ندرس حياة خالد دراسة تحليلية يجب أن نبنى دراستنا على أسس ثابتة ، وذلك بأن نتعرف مواهبه واستعداداته المختلفة ، بأن نبحث فى منشئه ومرباه ، فى القبيلة التى درج بين أبنائها ، وفى أبويه وصفاتهما وما كان لهما من مكانة فى قومهما ، فليس من شك فى أن البيئة والوراثة يحددان صفات كل كائن حى ، وبهما يمكن أن نحكم حكما لا يبعد عن الحقيقة . فللبيئة كما للوراثة الأثر الكبير فى إظهار الصفات الكامنة فى الانسان فالمكان الذى يعيش فيه المرء وما فيه من سهول ووديان وماء وهواء ، ورفقة وأصدقاء . وأسرة نشأ بين أبنائها هو الذى يكشف عن مزاج المرء ويظهر لنا كامل مزاياه . بل إن أثرها لا يقف عند هذا الحد ولكن يتصل بحياة الانسان قبل وجوده ، فهذا توماس لوب الحكيم الانجليزى (عاش فى القرن السابع عشر) ينسب خلق الجبن

(١) ابن عساكر فى تاريخه المجلد الثالث ص ٧١٠ . ابن برهان الدين ج ٣ ص ٢٧٦

الذى فيه إلى ما أصاب أمه من الخوف والفزع وهى حامل به عام أن كانت العمارة الأسبانية « ارمادا » تهدد انجلترا

بيئة خالد التى عاش فيها

خالد بن الوليد قرشى نشأ وترعرع بمكة ، ولأجل أن نفهم أثر هذه البيئة فى نابتتها ، نرى أن نتناول الكلام عليها من الناحيتين : الطبيعية ، والاجتماعية

١ – بيئته الطبيعية :

مكة واد غير ذى زرع ، سماؤه صافية وجوه فى جملته جاف ، جيد الهواء يميل إلى الحرارة ، وأرضه واسعة الفضاء ، طيبة الماء ، جنبت المستنقعات والعفونات ، لم تتوغل فى بيداء الصحراء العربية ، فهى تهامية لا تبعد كثيراً عن ساحل البحر

وطبيعة هذا البلد لا تساعد على انتشار الزراعة ولا الصناعة ، لعدم صلاح التربة ، وتعذر الحصول على المواد الغفل التى تقوم عليها الصناعة ، ولذا فانا نجد أهلها فى حاجة ماسة إلى جلب أقواتهم وحاجهم من خارج بلدهم ، فهم مضطرون لأن يكونوا فى حركة دائمة وأسفار مستمرة ، كى يتمكنوا من الاستيطان فى بلدهم ، والاقامة فيه ، وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « لأيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

أثر هذه البيئة فى أهليها :

من شأن هذه البيئة أن تؤثر فى أهليها تأثيراً ظاهراً فتجعلهم أهل جد وسعى وبصر بالأمور وعواقبها وحسن تصريفها بحكم دأبهم على الحركة والأسفار والاختلاط بمختلف الأمم والطبقات ، أصحاء الأبدان ، راجحى العقول ، شديدى الملاحظة بحكم الجو والسماء الصافية ، والبعد عن العفونات ، والقرب من الساحل

ب - بيئته الاجتماعية :

لما كانت البيئة الاجتماعية متشعبة النواحى تشمل البلد الذى عاش فيه ، والقبيلة التى ينتمى إليها . والبيت الذى تربى فيه ، وما إلى ذلك كان من الحسن أن نلم بأهم هذه النواحى حتى نعرف الملابسات والأحوال التى أحاطت بخالد وأثرت فيه .

وإذا كانت مكة — وهى البلد الذى نشأ فيه — هى منبت الدين الذى أتاح له تلك الفتوح العظيمة ، وهيأ له تلك الشهرة الفائقة . وفيها أيضاً تربى المصطفى لهذا الدين ، ومن خلفه وهم الأولى كانوا يسيرون خالداً ويرسمون له بما يريدون ، ويزودونه بنصائحهم ، رأينا أن نبسط القول فيها بعض البسط فنقول :—

مركز مكة الدينى :

كانت مكة صاحبة المكانة الدينية العليا فى جزيرة العرب لمكان الكعبة المكرمة وهى بيت الله الحرام الذى جعل مثابة للناس ، وأمنا ،

تجله كل العرب وتعظمه ، وتحج إليه من أطراف الجزيرة ، وأهلها صريح ولد اسماعيل ، وهم سدنة البيت والحمس [١] فى الدين والذادة عنه والقوم عليه .

الاثر الدينى لمكة :

من شأن هذه البيئة أن تجعل لأهلها فى نفوس العرب من الحرمة والاجلال ، والقداسة والاكبار ما يكونون به فى مركز ممتاز ليس لغيرهم ولا يماريهم فيه أحد [٢]

مركزها التجارى

كانت مكة محطا للقوافل الآتية من حواضر بلاد العرب وبخاصة من اليمن حيث تحمل بضائع الهند واليمن إلى الشام ومصر . بها ينزل التجار ليأخذوا حاجتهم من الماء ، ويتزودوا لأسفارهم وقريب منها أسواق رائجة للتجارة والأدب والمفاخرة ، فهى فى حركة دائمة ونشاط مستمر ، على اتصال دائم مع روادها من سائر أنحاء الجزيرة وغيرهم ممن يجتازونها

---

(١) الحمس - جمع أحمس ، وأصل التحمس التشدد . ومعنى أنهم حمس هو أنهم رأوا أنفسهم أهل الحرم ويجب أن يمتازوا عن أهل الحل ، فلا يفيضون من حيث يفيض أهل الحل ، كما فرضوا على أهل الحل ألا يطوفوا بثيابهم بل يستبدلوا بها ثياب أهل الحرم فأن لم يجدوا طافوا عراة إلى غير ذلك من الميزات . وقد أبطل الاسلام ذلك بقوله (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) راجع سيرة ابن هشام فى حديث الحمس ج ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢) وقد ذكرهم الله بهذه النعمة العظمى وحثهم على شكرها بقوله : « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

أضف إلى ذلك أن أهلها أنفسهم كانوا تجاراً ولهم أسفار إلى كثير من البلدان وبخاصة إلى الشام واليمن « رحلة الشتاء والصيف »

أثر البيئة التجارية

من شأن هذه البيئة التى يمارس أهلها التجارة ويكثرون من الأسفار ، ويختلطون بأقوام مختلفين أن يكتسب أهلها فوائد ذات بال ، فقد غدوا فى سعة من العيش ، وبسطة فى المال ورفاهة الحال أصحاب أموال وضياع وأصبحوا يحسنون وسائل الاختلاط بغيرهم ، فعرفوا كثيرا من أحوالهم الاجتماعية والأدبية ، وهذه المعرفة مكنتهم من الانتفاع بمعلومات من اختلطوا بهم ، والاطلاع على حضاراتهم وأفكارهم مما كان له أثر كبير فى تثقيف عقولهم وارتقاء مداركهم

مركزها الادبى والاخلاقى

لقد تولت مكة زعامة العرب الأدبية والأخلاقية كما تولت زعامتهم الدينية ، وعهدها بهذه الزعامة متقادم يرجع إلى الوقت الذى نبغ فيه قصى ابن كلاب [1] (الجد الخامس للنبى صلى الله عليه وسلم) وغلب خزاعة على مكة والبيت الحرام ، وأصبح له ولبنيه من بعده ثم لأهل مكة على وجه العموم منزلة أدبية وأخلاقية هى المثل الأعلى، والنهج الذى يحتذى لأهل الجزيرة .ولقد كانت أسواق العرب القريبة منها من أكبر العوامل

(١) يرجح المؤرخون المحدثون أنه عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ومات حوالى سنة ٤٨٠ م

لهذه الزعامة ، فقد كانت تقام هـذه الأسواق كل عام ويحضرها الشعراء والخطباء والمفكرون والحكماء ، وينشدون ويتناظرون ، ويعددون مآثرهم ويتفاخرون ، وكان لأهل مكة فى هذه الأسواق القدح المعلى والمركز السامى ، فاذا تفاخر الشعراء ، وتناظر الرؤساء ، استثنوا قريشاً ، وقالوا بعد ذلك ما شاء لهم الفخر والخيال

رأيت الناس ما حاشا قريشا فانا نحن أفضلهم فعالا [١]

كان يغلب على أهلها خلق الشجاعة والاقدام ، والصبر على المكاره وحب الفوز والقهر للأعداء ، والفوق فى الحروب :

فانا أناس لا تطل دماؤنا ولا يتعاطى صاعداً من نحاربه

وحب الثناء والمحمدة ، وطلب المعالى والوفاء بالعهد ، والمحاماة عن الجار والمستجير ، حتى ليستهين الرجل منهم بدم أخيه وفاء لجاره ، ودفاعا عمن يستجير به

أثر البيئة الأدبية :

من شان هذه البيئة أن تبث فى نفوس نابتتها طيب الخلال وتنشئهم على خير ما ينشأ عليه الفتيان : إقدام فى حزم وحب للرفعة والمجد ، وعزة نفس ، ووفاء بالعهد

مركزها السياسى

لقد كانت مكة فى مركزها السياسى على درجة تحمد عليها ، فكان لها

(١) قائله الأخطل . المغنى لابن هشام ج ١ ص ١٠٩

نظام سياسى شبيه فى جملته بنظام الحكومات الشورية : قسموا إشارات الشرف [1] والمجد ومناصب الحكم ، والمصالح بينهم ، لتأخذ كل قبيلة بنصيبها ، وليكون ذلك أدعى لرضاهم جميعاً وأبقى لألفتهم وإخائهم .

كانت لهم دار الندوة فيها تجتمع مشيختهم ورؤساؤهم فيفصلون فى مهام أمورهم ، وما يجد عليهم من حوادث فيتخيروا أحسنها وأوفاها بأغراضهم ومصالحهم ، فهى إلى حد كبير تشبه مايسمى فى عرف الدول المتحضرة « برلمانا »

كانت كلمة السادة منهم شرعا نافذا ودينا يجب اتباعه . كان على الشيوخ والسادة أن يبحثوا ويعالجوا الأمور وعلى من سواهم السمع والطاعة ، فكانت هذه الدار لهم مطلع خير ومجمع يمن وسعادة ، ومن ثم نراهم مستمسكين بوحدتهم متجنبين كل مايوهنها ويضعفها .

أثر البيئة السياسية

من شأن هذه البيئة أن تجعل نابتتها يعرفون واجباتهم ويسمعون لرؤسائهم ، وينتصحون بآرائهم ، يعرفون مبدأ الشورى ويخضعون لرأى الجماعة ، كما أنها باعدت بينهم وبين الأثرة والاستبداد والحكم الفردى ، فكانوا يوكلون الأمور لذويها والمصالح لمن يضطلع بها ويمكنه صيانتها ، والقيام عليها

شحذت هذه البيئات الاجتماعية أذهان أهل مكة وسهلت اخلاقهم

---

(١) سيأتى تحت عنوان : « شرف خالد ومكانته بين قومه » بيان هذه الاشارات مع ذكر مالكل قبيلة من المناصب والرجال الذين كانوا يلون ذلك عند ظهور الاسلام

ونشأتهم على حب الواجب والنصفة لأنفسهم ولغيرهم وظهر أثر ذلك في كثير من أحوالهم. فاذا قارنا بين حالتهم وما كانوا عليه قبل «قصي» وبين حالتهم قبيل الاسلام لظهر القرن واضحاً جلياً، فقد انتقلوا من جماعات متبدية متفرقة لا علم لهم بما وراء إبلهم إلى قوم متحضرين لهم كثير من الأمور التي تشبه أحوال الناس؛ ولا أدل على ذلك من حلف الفضول الذي تداعت فيه قبائل من قريش وتعاقدت على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غير أهلها إلا نصروه والذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعي به في الاسلام لأجبت»[1] ومن قيام أفراد منهم ينكرون على قومهم تركهم لدين أبيهم ابراهيم وما صاروا إليه من وثنية وشرك وتعظيم للأحجار والأصنام[2]

---

(١) ذكر ابن هشام في سيرته أنه قد «تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي لشرفه وسنه فكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة ابن كلاب وتيم بن مرة فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته» ج ١ ص ٩٠ وفيه يقول الزبير بن عبد المطلب:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتعاقدوا فالجار والمعتر فيهم سالم

السهيلي ج ١ ص ٩١ وذكر مثله ابن خلدون في تاريخه ج ٢ ص ٣

(٢) قال ابن هشام في سيرته: «واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض قالوا أجل وهم ورقة بن نوفل ... وعبيد الله بن جحش ... وعثمان=

ولعمرى أن ذلك لبمثابة إيذان من الله بظهور دينه وإعلام منه بأن الوقت قدآن لبعثة خاتم المرسلين ، ومصطفى رب العالمين بالهداية والنور « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » وهكذا لم يعوز قريشاً لأن تظهر فى التاريخ وتسود العالم زمناً طويلا ، وتحمل راية العدل والعرفان أحقاباً من الزمان إلا من يحكم ألفتها . ويجمع قلوب العرب حولها ، ويجعلهم رهن إشارته وطوع أمره . فكان إرسال النبى صلى الله عليه وسلم وظهوره فيهم جابراً لهذا النقص ومظهراً لما كمن فيهم من مواهب واستعدادات ظهر أثرها فى الاسلام بتلك الفتوحات العظيمة والأعمال الجليلة التى سنذكر طرفاً منها فيما سيأتى

قبيلته

بنو مخزوم [١] بطن من بطون قريش كانت إليهم القبة والأعنة [٢] من مظاهر الشرف فى قومهم ، وفيهم العدد الكثير من ذوى العقول

= ابن الحويرث . . . وزيد بن عمرو بن نفيل . . . . فقال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شىء . لقد أخطئوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، ياقوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ماأنتم على شىء فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابرهيم ؛ فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب . . . . » ج ١ ص ١٤٥

(١) « اشتهرت القبيلة بمخزوم دون أبيه لكثرة عقبه دون أبيه يقظة » صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٤

(٢) سيأتى بيان ذلك تحت عنوان : « خالد ومظاهر الشرف فى قريش » « وقد كان لهم وحدهم ثلاثون فرسا فى غزوة بدر من مائة فرس خرجت بها قريش » مغازى الواقدى ص ٣٢ ، أنساب الاشراف ج ١ ص ١٣٦

الراجحة الذين توازى أحلامهم الجبال أمثال المغيرة بن عبد الله بن عمر المعروف بالجود وأبى وهب بن عمرو الذى أدرك أن الكعبة وهى بيت الله ، وفيها يذكر اسمه ؛ لا يليق أن يدخل فى بنائها ما ليس بالكسب الحلال ؛ فأشار على قومه - حين عزموا على بنائها - قائلا : « يامعشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس »[1] وهو خال أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان شريفاً عظيما وله يقول الشاعر :

ولو بأبى وهب أنخت مطيتى غدت من نداه رحلها غير خائب
أبى لأخذ الضيم يرتاح للندى توسط جداه فروع الأطايب[2]

ويتجلى شرف بنى مخزوم ومكانتهم فى قريش واضحاً جلياً حينما أرادت قريش بناء الكعبة فجزأتها بين قبائلها ؛ فكان ربعها مابين الركنين : الأسود واليمانى من نصيب بنى مخزوم . وهذا والله هو السؤدد ونهاية الشرف[3]

ولقد بلغ من شرفهم ، ورفيع منزلتهم فى قريش أنهم كثيراً ما كانوا ينازعون بنى هاشم — وهم ماهم فى قريش — السيادة والشرف . والناظر إلى ما كان يلهج به كبراؤهم يتبين له ذلك بجلاء ووضوح . وحسبنا مقالة

(١) قال فى الروض الأنف : « وهذا يدل على أن الربا والظلم والبغاء كان محرما عليهم يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع ابراهيم عليه السلام » ج ١ ص ١٣١

(٢) وهو أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم — سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣١ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ١٨ ، ابن هشام ج ١ ص ١٣١ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٠٠ غير أن الطبرى وابن هشام لم يجعلا هذا الركن خالصاً لبنى مخزوم وحدهم بل شاركهم فيه غيرهم من القبائل

أبي جهل حسداً لبني هاشم أن يكون النبي ﷺ منهم دون بني مخزوم إذ يقول: «فلما أطعمنا الطعام وأطعمتم (يعني بني هاشم) وازدحمت الركب، واستبقنا المجد فكنا كفرسى رهان قلتم منا نبي»[١]

أليس منهم من لم تطب نفسه أن يحصر بنو هاشم والمطلب في شعب أبي طالب، وأن يتركوا ليموتوا جوعاً؛ فدعاه داعي الانسانية فلبى سراعا، واستحثته أريحيته أن يكون أول من يبدأ قريشا الكلام في نقض الصخيفة الجائرة الظالمة[٢]

وأخو بني مخزوم هو الذي ندبته قريش زميلا لعمرو بن العاص للوفادة على النجاشي في ارجاع من هاجر من المسلمين إلى الحبشة إلى قومهم. وإن ندب قريش له في مثل موقفها من المسلمين لدليل قائم على أن الفتى المخزومي يحسن الوفادة على الملوك ومفاوضتهم وهو كفء للاضطلاع بمثل هذا الأمر الخطير جداً في نظرها[٣]

ومما يشعرنا بسمو مركزهم في قريش أن أواصر المصاهرة كانت متبادلة بينهم وبين بني هاشم - وهم سادة قريش - فمن ذلك أن عاتكة بنت عبد المطلب كانت تحت أبي أمية بن المغيرة وأنجبت منه زهير بن أبي

---

(١) المغازي للواقدي ص ٢٣

(٢) وذلك حين تحالفت عليهم بطون قريش وقاطعتهم وكتبت بذلك صحيفة علقتها على الكعبة توكيدا على أنفسهم، فكان زهير بن أبي أمية بن المغيرة أول من بدأ قريشا الكلام في نقضها، الطبري ج ٢ ص ٢٢٨، ابن هشام ج ١ ص ٢٣٢

(٣) وسواء أكان الرسول مع عمرو بن العاص هو عمارة بن الوليد أخو خالد ابن الوليد أو عبد الله بن أبي ربيعة فهو على كلا الروايتين مخزومي. وسيأتي عند الكلام على اخوة خالد تفصيل لذلك

أمية الذى بدأ قريشاً بنقض الصحيفة الظالمة ، كما أنهم آل فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية أم عبد الله بن عبد المطلب [١] والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهم أخوال أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصهار عظيم قريش وسيدها عبد المطلب بن هاشم . ويكفيهم شرفاً وفخراً أن النبى صلى الله عليه وسلم أصهر إليهم ، فتزوج منهم أم سلمة وميمونة [٢]

وكما كان بنو مخزوم على جانب كبير من الجاه والشرف فى قومهم كانوا كذلك من أهل الثراء والأموال فى قريش يدل لذلك ماحكاه الواقدى فى أثناء كلامه عن عير قريش وغزوة بدر بقوله : « ويقال كان لبنى مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهب » [٣]

ولقد كان منهم الكثير من السابقين للاسلام الفارين بدينهم ابتغاء مرضاة الله ؛ فهاجر منهم إلى الحبشة ثمانية نفر [٤] وحسبهم أن يكون منهم أبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم [٥] بن أبى الأرقم ؛ فقد كان

(١) وهى أم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع بنات عبد المطلب سوى صفية - ابن هشام ج ١ ص ٧٨ ، الطبرى ج ٢ ص ١٧٣ ، ابن الاثيرج ٢ ص ٢

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٥، ٣٦٧ ابن الأثيرج ٢ ص ٢١١

(٣) المغازى للواقدى ص ٢١

(٤) ابن هشام ج ١ ص ٢٠٦

(٥) كان أبو سلمة عاشر تسعة سبقوا للاسلام كما كان الأرقم الثانى عشر إسلاماً على ماروواه ابن هشام ج ١ ص ١٦٥ وسابع سبعة على ماروواه ابن سعد ج٣ ص١٧٣ وكان أبو سلمة ابن عمة رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعته هو والنبى ﷺ وحمزة بن عبد المطلب ثويبة مولاة أبى لهب وقد استعمله النبى ﷺ على المدينة حينما خرج لغزوة العشيرة كما أغمضه بيده الشريفة حين مات . وهلك الأرقم بالمدينة سنة خمس وخمسين وهو ابن بضع وثمانين سنة وصلى عليه سعد بن أبى وقاص بن سعد

أبو سلمة من السابقين للاسلام وفى طليعة المهاجرين للحبشة ، كما كان أول المسلمين هجرة للمدينة . وكفاهم شرفاً وفخراً أن يكون الأرقم منهم وأن تكون داره هى المسجد الأول لجماعة المسلمين يعبدون الله فيها خفية، وفيها يجتمعون ، وإليها يلجأون

والناظر إلى الشكلين رقم ٣ ، ٤ يتبين مقدار حظهم من الرجال العظماء وأن نصيبهم من علية القوم كان موفوراً غير منقوص . « ومازال منهم جماعة بصعيد مصر بالأشمونين وفيهم بأس وشدة »

وقد يكون من الحسن بعد أن ذكرنا كلمة مجملة عن قبيلته وما كان لها من شرف ورفعة فى قريش أن نخص عمومته بكلمة تبين ما كان لهم من سيادة ومنزلة فى قومهم

عمومة خالد

كان لعمومته فى قريش منزلة أى منزلة . كانوا فى طليعة قومهم مجدا وشرفا ، وكرماً وثراء

فكان أبو أمية بن المغيرة صاحب الفضل فى حسم الخلاف الذى نشأ بين قبائل قريش حينما اختلفت على وضع الحجر الأسود وهى تبنى الكعبة وأرادت كل قبيلة أن تكون صاحبة الفضل والشرف وحدها

ج ٣ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ابن هشام ج ١ ص ١٦٥ ، ٢٠٦ ، ج ٢ ص ٥٧ ، ١٤١ والطبرى ج ٢ ص ٢٢٢ ، ٢٤٢ ، أنساب القرشيين ج ١ ص ٧ ودار الأرقم خلف الصفاقى سفح أبى قبيس فى زقاق غير متسع وهى موجودة للآن وكانت فى أيام الأتراك مكتباً لتعليم الأطفال واليوم يسكنها أحد النجديين كما أخبرنا بذلك أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار وهى أثر له خطره وقيمته فحبذا لو عرف ذلك المسلمون

فى وضعه ، وغدت الحرب بينهم قاب قوسين أو أدنى ؛ فأشار عليهم — وكان أسنهم — بأن يرتضوا حكما بينهم أول داخل من باب المسجد[١] كما كان معروفاً بزاد الراكب ؛ لا يتزود من رافقه فى سفره لفرط جوده وكرمه[٢] . ومات قبل أن يدرك الاسلام ، وقد رثاه أبو طالب بأبيات منها : —

ألا إن زاد الركب غير مدافع   بسَرْو سُحَيم غيبته المقابر[٣]

ورثاه أبو أحيحة بقوله : —

ألا هلك الماجد الرافد   وكل قريش له حامد

ومن هو عصمة أيتامنا   وغيث إذا فقد الراعد[٤]

ولقد بلغ من كرمهم وجودهم أن الفاكه بن المغيرة كان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير اذنه[٥]

وكان أبو حذيفة بن المغيرة المخزومى حين ارتضت قريش التحكيم

---

(١) كان لحسن حظ قريش أن كان أول داخل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أن رأوه حتى فرحوا وقالوا : « هذا الأمين قد رضينا به هذا محمد »

ابن هشام جزء ١ ص١٣٢ ، الطبرى جزء ٢ ص ٢٨١ ، ابن الأثير جزء ٢ ص ٢٩ ابن خلدون جزء ٢ ص ٥

(٢) بلوغ الأرب للألوسى جزء ٣ ض ٤١٥ ، وذكر فى صبح الأعشى أن زاد الراكب هو أبوه المغيرة بن عبد الله — جزء ١ ص ٤٥١

(٣) سرو سحيم — هى البلد التى مات فيها أبو أمية حين خرج بتجارة إلى الشام — بلوغ الأرب للألوسى جزء ٣ ص ٢١٥

(٤) السيرة الحلبية جزء ١ ص ١٦١

(٥) وللفاكه هذا حادثة طريفة مع زوجته وقد وجدها نائمة فى بيت الضيافة ذكرها صبح الأعشى جزء ١ ص ٣٩٨

فى وضع الحجر الأسود أحد الأربعة[١] الذين أخذوا بطرف من الرداء الذى جعل فيه النبى ﷺ الحجر الأسود فوضعه فى مكانه

كما كان هشام بن المغيرة من سادات قريش وأشرافها وهو قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وكان يقال له فارس البطحاء ، وكان مهيباً عظيما حزنت عليه كل بطون قريش حين مات ، وعدوا موته خطباً ذا بال ؛ فقد ذكر المقدسى : « أن هشاماً لما مات لم يقم سوق بمكة ثلاثاً وأن قريشاً إنما كانت تؤرخ بعد موت هشام من موته »[٢] وهو الذى يعنيه الشاعر بقوله :

وأصبح بطن مكة مقشعراً كأن الأرض ليس بها هشام[٣]

وهذا وأبيك نهاية الشرف وغاية المجد (انظر الشكل رقم ٤)

إخوة خالد

اختلف المؤرخون فى عدد اخوته ؛ فمنهم من قال عشرة[٤] ومنهم من قال ثلاثة عشر ومنهم من قال سبعة كلهم ذكور . ومهما يكن أمر هذا الاختلاف فصريح القرآن (وبنين شهودا) أن له اخوة عدة وأنهم كانوا مترفين فى سعة من العيش ورفاهة الحال ، ينعم والدهم برؤيتهم ويبدو لنا

(١) الأربعة هم : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، والاسود بن عبد المطلب بن أسد ابن عبد العزى ، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمر بن مخزوم ، وقيس بن عدى السهمى اليعقوبى جزء ٢ ص ١٩ ، ابن خلدون ص ٤ من بقية الجزء الثانى ، مروج الذهب للمسعودى جزء ١ ص ٣٩٧

(٢) أنساب القرشيين للمقدسى جزء ٢ ص ٣٤٨

(٣) بلوغ الأرب للألوسى جزء ٣ ص ٢١٥

(٤) ممن قال بذلك فخر الدين الرازى فى تفسيره جزء ٨ ص ١٨٧

أن من قال بأنهم سبعة ذكور أقرب إلى الواقع لأننا بعد البحث فى الغزوات وتتبع الحوادث التى تقدمت الاسلام والتى جاءت بعده لم نعثر على أكثر من هذا العدد . وهاك أسماؤهم ونبذة عن كل واحد منهم :[١]

(١) العاص (٢) ابو قيس (٣) عبد شمس (٤) عمارة (٥) هشام (٦) الوليد (٧) خالد وهم إخوته الذكور ، وفاطمة وفاختة . وهما أختاه من الاناث

ويظهر أن العاص مات صغيراً قبل أن ينبه ذكره وقبل أن يجىء الاسلام ، وابو قيس كان قد أسلم ثم فتن عن دينه وقتل كافراً ببدر قتله حمزة وقيل على . وفيه وفى مثله نزل قوله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم »[٢]

وعبد شمس هو الذى كان يكنى به والده الوليد بن المغيرة[٣] ،

وعمارة هو الذى أرسلته قريش مع عمرو بن العاص لنجاشى الحبشة لرد من هاجر إليه من المسلمين ، وهو الذى حين أرادت الخلاص من رسول الله صلى الله عليه وسلم مشت به إلى أبى طالب وقالت له : « هذا أنهد فتى فى قريش وأشعره وأجمله فخذه فلك عقله ...... »[٤] وهو

---

(١) لم نجد من المؤرخين من صرح بذكر أسمائهم جميعاً وقد التقطنا أسماءهم التقاطا من الحوادث التى كان لهم فيها ذكر لكن الالوسى فى تفسيره (جزء ٩ ص ١٢٢) ذكر السبعة الذكور الذين ذكرناهم

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٧٥ ، ١٠٣

(٣) مغازى الواقدى ص ١٤٧ ، أنساب الأشراف جزء ١ ص ٦٠ ، ابن الأثير جزء ٢ ص ٤٨ ، ابن خلدون جزء ٢ ص ٢١

(٤) الطبرى جزء ٢ ص ٢٢٠ ، ابن هشام ج ١ ص ١٧١

اعتراف صريح من قريش بأن ابن الوليد له مزايا انفرد بها ومن أجلها رأوه اهلا لأن يكون عدلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون رسولهم للنجاشي لرد من هاجر من قومهم إليه [1]

وقد أسلم خالد وأخواه الوليد وهشام . وكان هشام فى بدئه من المؤلفة قلوبهم [2] والوليد كان من المستضعفين وفر بدينه إلى المدينة فدميت أصبعه من المشى فقال :

هل أنت إلا اصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وهو أقدم إسلاماً من أخويه خالد وهشام ، ومن الذين كان يدعو لهم النبي صلى الله عليه وسلم فى قنوته وقد كان محبباً إليه كما كان له اليد الطولى فى إسلام أخيه خالد [3] الذى أسلم وكان له شأن من الشئون كما سنبينه بعد

وأخته فاطمة أسلمت يوم الفتح وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم وهى زوج الحارث بن هشام المخزومى وفاختة كانت تحت صفوان بن أمية وأسلمت قبله بشهر [4] انظر رقم (٥)

---

(١) لا يعارض هذا ما فى بعض كتب التاريخ والسير (مثل رواية الطبرى فى تاريخه ج ٢ ص ٢٢٥) من أن الرسول مع عمرو هو عبد الله بن أبى ربيعة لأن ذهاب عمرو إلى الحبشة تكرر وكان عمارة معه فى إحدى المرات كما يتضح من التحقيق الذى رآه صاحب السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٢ ، ج ٢ ص ٢٦٦ وممن ذكر أن الرسول مع عمرو هو عمارة صاحب الأغانى ج ٣ ص ٣٤ واليعقوبى ج ٢ ص ٢٨ ، والروض الأنف ج ١ ص ١٧١

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٩

(٣) سيأتى بيان أثره فى ذلك عند كلامنا على إسلام خالد

(٤) الاستيعاب جزء ٢ ص ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، الطبرى جزء ٣ ص ١٠ ، ١٢٢

والدته

أمه هى لبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة [١] يتصل نسبها بقيس عيلان بن مضر (أنظر الشكل رقم ٢) . واختلف فى اسلامها وصحبتها ورجح صاحب الاصابة اسلامها بناء على أنها عاشت إلى زمن عمر، وندبت ابنها خالداً [٢] ولكن لم يؤيد ابن حجر فى ترجيحه اسلامها من يعتمد عليه من المراجع التى اطلعنا عليها وكان لها أخوات ثمان وهن : —

١ — ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم؛ فلخالد خالة هى إحدى أمهات المؤمنين

٢ — أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب التى يقال إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة والتى أنجبت فلم تلد امرأة مثلها . ومن ثم قال فيها الشاعر :

ما ولدت نجيبة من فحل بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

فأولاد العباس من لبابة أبناء خالة خالد بن الوليد

٣ — عصماء بنت الحارث زوج أبى بن خلف الجمحى وولدت له ابان وغيره

٤ — وعزة بنت الحارث زوج زياد بن عبد الله بن مالك الهلالى .

قال ابن عبد البر :

---

(١) الاستيعاب جزء ٢ ص ٧٨٠

(٢) الاصابة جزء ٨ ص ١٧٨

« لم أر أحداً ذكرها فى الصحابة وأظنها لم تدرك الاسلام »

٥ — هزيلة بنت الحارث تزوجت فى الأعراب وهى التى أهدت إلى أختها ميمونة الضباب والأقط والسمن

٦ — أسماء بنت عميس كانت تحت جعفر بن أبى طالب ثم خلف عليها أبو بكر الصديق ، ثم خاف عليها على بن أبى طالب (١)

٧ — سلمى بنت عميس كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ثم خلف عليها بعده شداد بن أسامة بن الهاد الليثى

٨ — سلامة بنت عميس كانت تحت عبد الله بن كعب بن منبه الخثعمى (٢)

فهن ست أخوات لأب وأم وتسع أخوات لأم وفيهن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأخوات مؤمنات » (٣) وأخوهن لأمهن محمية بن جزء بن عبد يغوث الزبيدى حليف بنى سهم « وكان قديم الاسلام وهاجر إلى الحبشة وكان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأخماس» واستوهب النبى صلى الله عليه وسلم من أبى قتادة جارية وضيئة فوهبها له . وذكر الكلبى أنه شهد بدراً وقال الواقدى أول مشاهده المريسيع (٤)

وأمهن كلهن هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة الحميرية

---

(١) أنساب الأشراف جزء ٢ ص ٢١٤ - ٢١٦ الاستيعاب ج ٢ ص ٧٦٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨٦ ، السهيلى جزء ٢ ص ٧٨ ، ٧٩

(٢) أنساب الأشراف جزء ١ ص ٢١٦ الاستيعاب جزء ٢ ص٧٧٩، ٧٨٧، ٧٨٦

(٣) الروض الأنف جزء ١ ص ١٦٨

(٤) الاصابه جزء ٦ ص ٦٧ ، الطبرى جزء ٣ ص ١٠٦

أو الكنانية [١] التى قيل عنها: « إنها أكرم الناس أصهاراً » [٢] والناظر إلى الشكلين رقم ٢ ، ٦ يدرك بجلاء ما لأمه من شرف ونسب ؛ فهى تنتسب إلى قبيلة من أعرق القبائل المضرية وأكبرها ، وقوانين الوراثة تحكم بأن من له مثل هذا النسب والحسب لابد وأن يكون له أثر فى بنيه ومظهر فى أخلاق ذريته (انظر الشكل رقم ٦)

والده

أبوه هو عبد شمس الوليد بن المغيرة المخزومى صاحب العقل الراجح، والمنطق الفصيح ، والشرف الرفيع ، والجاه العريض ، ريحانة قريش وسريها . يدل لعقله وعظيم شرفه أنه كان أحد حكام قريش فى الجاهلية [٣]، وثالث ثلاثة احتبى كل واحد منهم بفناء الكعبة وادعى الرياسة بعد موت عبد المطلب [٤] وممن حرم على نفسه الخمر قبل الاسلام [٥] ، وأول من قطع فى السرقة وجاء الاسلام بتقريره [٦]

هو عدل [٧] قريش كان يكسو الكعبة وحده عاماً وقريش بأسرها

(١) الاستيعاب جزء ٢ ص ٧٨٠ ، أنساب الأشراف جزء ١ ص ٢١٤
(٢) المقدسى جزء ١ ص ٤١
(٣) اليعقوبى ج ١ ص ٣٠٠
(٤) اليعقوبى جزء ٢ ص ١٣
(٥) السهيلى جزء ١ ص ٢٨٣ بل قال فى صبح الأعشى أنه أول من حرم الخمر فى الجاهلية جزء ١ ص ٤٣٥
(٦) صبح الأعشى جزء ١ ص ٤٣٥
(٧) وقال صاحب أنساب الأشراف : « وإنما سمى العدل لأنه يقال إنه يعدل قريشا كلها ، ويقال إن قريشا كانت تكسو الكعبة فيكسوها مثل ما تكسوها كلها » جزء ١ ص ٦٠ ، السيرة الحلبية جزء ١ ص ٣٤٧

تكسوها عاماً . وهو الذى كان يطعم الناس فى منى وينهى أن توقد نار غير ناره للاطعام ، وهو الذى كان يوسع النفقة على الحجيج ويأتيه المدح والثناء من الأعراب[١] هو صاحب المال الممدود الذى قدر باثنى عشر ألف دينار فصاعداً[٢] هو صاحب البساتين التى تمتد من مكة إلى الطائف والتى منها مالا ينقطع ثمره طول العام[٣]

هو الذى بلغ من عزيمته أنه حينما أرادت قريش بناء الكعبة وتهيبت جميعها هدمها أخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : « اللهم لم ترع اللهم لانريد إلا الخير »[٤]. وكان شديد التمسك بمعتقده متفانيا فى تعظيم الكعبة يدل لذلك أنه كان لا يدخلها متنعلا بل قيل إنه أول من خلع نعليه عند دخولها[٥] ولعل تحمسه لدينه وتشدده فيه كان من أهم الأسباب التى جعلته يقف فى وجه الاسلام ، ويناوئ صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم؛ ولذافانا نراهم فى طليعة أشراف قريش وعظمائها الذين مشوا إلى

---

(١) السيرة الحلبية جزء ١ ص ٣٤٧

(٢) راجع تفسير قوله تعالى : « وجعلت له مالا ممدوداً والسهيلى جزء ١ ص ١٧٣

(٣) السيرة الحلبية جزء ١ ص ٣٤٧ ولكن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب استبعد ذلك ونفاه بقوله : « أما بساتين من مكة إلى الطائف فلا توجد إلا فى منام ، والمسافة ليس فيها بساتين اللهم إلا فى جبل كراء وهو على أكثر من مرحلة من مكة ومرتفع جدا » وأستاذنا إنما يذكر ما شاهده فى حجته عام ١٣٤٩ ه‍ ولكن ليس بعيدا أن يكون الحال قد تغير بفعل الطبيعة كما أنه ليس بلازم من أن هذه البساتين ممتدة من مكة إلى الطائف أن تكون متصلة لا انقطاع فيها

(٤) الطبرى جزء ٢ ص ٢٠١ ، ابن هشام جزء ١ ص ١٣١

(٥) صبح الأعشى جزء ٩ ص ٤٢٨

أبى طالب يطلبون منه أن يكف ابن أخيه صلى الله عليه وسلم عن تسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم [١]

هو الشخص الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً جد الحرص على إسلامه، وكان يرى أن فى إسلامه عزا للاسلام؛ حتى لقد بلغ من حرصه على إسلامه أنه لم يلتفت إلى ابن أم كلثوم حين جاءه طالبا أن يعلمه الأمر الدى أدى إلى عتاب الله له بقوله: « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى ... ... »

هو الذى نزل فى جواره عثمان بن مظعون الجمحى حين رجع من الحبشة إلى مكة فغدا فى مأمن من إيذاء قريش - لأنه فى جوار الوليد العظيم فيها - وقال فيه حين رد عليه جواره رضى بجوار الله: « قد وجدته وفياً كريم الجوار » [٢]

ويجلى لنا شرف الوليد وعزه فى قومه، وأنه لو أسلم لتبعته قريش فى إسلامه أنه لما سمع القرآن مرة وقال فيه: « إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه » [٣] اضطربت قريش وقالت: « صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها » . فأنت ترى أن مجرد اعتراف الوليد بأن القرآن ليس

---

(١) الطبرى جزء ٢ ص ٢١٨

(٢) سيرة ابن هشام جزء ١ ص ٢٣٠

(٣) سيرة ابن هشام جزء ١ ص ١٧٣، تفسير البغوى وابن كثير والطبرى وغيرهم مع اختلاف فى لفظ الرواية

كلاماً عادياً اضطربت له قريش ، وخافت أن يدخل الوليد فى الاسلام ، فتتبعه قريش وتسلم كلها باسلامه . وإن رجلا له هذه المكانة ، وتلك المنزلة بين قومه لهو بحق قمين بالشرف والرفعة . وفى الحق أن الذى يتصف بما ذكرنا ويصف القرآن بما وصفه به الوليد كان يجب أن يكون فى طليعة المصدقين بهذا القرآن الملبين لدعوته ولكن كبرياء قريش وعزها هو الذى حال دون ذلك « فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » : فقد كان الوليد من ذوى الأسنان والشرف فى قومه ، ومن الخمسة الأولى كانوا كبار المعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم المستهزئين به ، وفيه وفى صحبه نزل قول الله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون »[1]

هو الذى كان يسميه قومه « الوحيد[2] » لتفرده فيهم بتلك المزايا التى أسلفنا . ومات بعد الهجرة بثلاثة أشهر وله من العمر خمس وتسعون سنة ودفن بالحجون[3] وكان سبب موته أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له فوطىء على سهم منها فخدشه فمات من خدشه هذا وأوصى بنيه أن يأخذوا ديته من خزاعة فأعطت خزاعة ديته[4] قال صاحب الهمزية :

وأصاب الوليد خدشة سهم قصرت عنها الحية الرقطاء

وكانت له بعد وفاته أموال كثيرة فى ثقيف بالربا فطلبها منهم خالد

(١) سيرة ابن هشام جزء ١ ص ٢٢٥ ، ٢٤٢

(٢) أنساب الأشراف جزء ١ ص ٦٠ ، السيرة الحلبية جزء ١ ص ٣٤٧

(٣) أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٥ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٤٨ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٨

تنفيذاً لوصية أبيه فلما أسلمت ثقيف ونزل قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . . . .» وكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك: كف عن طلب ما بقى من الربا واكتفى برأس المال غير ظالم ولا مظلوم [١]

هذا وقد نزلت فى الوليد عدة آيات[٢] من القرآن الكريم هى فى جملتها وصف بين لما كان عليه الوليد من الشرف والجاه والمنزلة السامية فى قومه، منها: —

١ — قول الله تعالى: «ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم، أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين». فهذه الآية صريحة فى أن الوليد كان ذا مال وبنين وأنه لثروته وكثرة عقبه كذب واستكبر [٣]

٢ — وقوله عز وجل: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم[٤]» اعتراف من قريش يحكيه لنا القرآن بأن الوليد كان

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٧

(٢) هذه الآيات منها ما كان خاصاً بالوليد ومنها ما نزل فى جمع وهو واحد منهم. ونحن فى مثل هذه الآيات نتغاضى عن أنها نزلت على سبيل التهديد والوعيد ونأخذ منها ما يخصنا وهو الدلالة على سيادته وشرفه وجاهه وعظيم منزلته

(٣) يراجع الفخر الرازى ج ٨ ص ١٨٧ سورة ن

(٤) وقد رد الله عليهم بقوله: «أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون» ابن هشام ج ١ ص ٢٢٦ أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠، تفسير الفخر الرازى، والبغوى وابن كثير والالوسى وغيرهم سورة الزخرف

فيهم عظيما وبانهم يعتقدون أن لو كان ثمة من ينزل عليه وحى من السماء لكان الوليد أجدر به وأحق من محمد لعظمته ومنزلته بين قومه

٣ — وقوله جل شأنه : « ذرنى ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ..... إلى قوله إن هذا إلا قول البشر »[1] شهادة من الله بأن الوليد أوتى بسطة فى المال والولد والجاه والحسب .

هكذا ولد خالد بن الوليد من أبوين شريفين بلغا الذروة فى المجد والمكانة السامية بين قومهما ، وشب وترعرع فى تلك البيئة التى تعتبر بحق أرقى وأقوم بيئة فى بلاد العرب فى ذلك الوقت . بيد أنه من بنى مخزوم اهل الشجاعة وقوة الشكيمة ، وأصحاب القبة والأعنة فى قريش : فليس غريباً أن ينشأ نسل هذين الأبوين ، وغراس تلك البيئة على خير ماينشأ عليه الفتيان خطيرا عظيما ، ذا شرف ورفعة ، وعقل وحزم ، وشجاعة وإقدام ، وخبرة بالحروب وأساليبها يدون له التاريخ أعظم صفحات المجد والفخار

خالد ومظاهر الشرف فى قريش

سبق أن قلنا ان قصى بن كلاب غلب خزاعة على مكة وأجلاهم عنها

(١) أصح الأقوال فيها أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة بل قيل كونها فيه متفق عليه أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠ أسباب التنزيل للواحدى ص ٣٣٠ تفسير الفخر الرازى ، وابن كثير ، والبغوى ، والألوسى وغيرهم سورة المدثر . وقال السهيلى فى شرح هذه الآية : (وبنين شهودا) أى مقيمين معه غير محتاجين إلى الأسفار والغيبة عنه لأن ماله ممدود والمال الممدود عندهم اثنا عشر ألف دينار فصاعدا ـ الروض الأنف ج ١ ص ١٧٣

وأنزل قريشاً بها ؛ ومن ثم صارت له رياسة مكة والبيت الحرام . وكان مظهر هذه الرياسة أموراً ستة : —

١ — رياسة دار الندوة : وهو الذى أنشأها وبناها فى مواجهة الكعبة ، وكانت تجتمع فيها مشيخة قريش لتفصل فى مهام أمورها

٢ — اللواء : كانت قريش لاتعقد راية لحرب إلا بيده

٣ — حجابة الكعبة : كان هو الذى يفتح بابها وهو الذى يلى أمرها

٤ — السقاية : وهى سقاية الحاج فى موسم الحج

٥ — الرفادة : وهى عبارة عن خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها لقصى فيصنع به طعاماً للحاج ؛ فيأكل منه من لم تكن له سعة ولا زاد

٦ — القيادة : وكان هو أو من ينوب عنه الذى يتولى قيادة الجند فى الحرب

ولما توفى قصى أوصى لابنه عبدالدار بما كان يلى من مصالح قريش والكعبة فلما توفى عبد الدار وقع الخلاف بين أبنائه وبين أبناء أخيه عبد مناف ؛ فافترقت قريش فرقتين : فرقة تنتصر لبنى عبد مناف وفرقة تنتصر لبنى عبدالدار ؛ فكان من ذلك حلف المطيبين وهو حلف بنى عبدمناف مع حلفائهم ، وحلف الأحلاف أو حلف لعقة الدم وهو حلف بنى عبدالدار مع حلفائهم ، ثم تراضوا وتداعوا على اقتسام هذه المصالح بينهما بعد أن كادت الحرب تقع بينهم [1] . ثم صار بعض هذه المصالح إلى بطون

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ - ٩٠ ، الطبرى جزء ٢ ص ١٨٣ - ١٨٥

قريش . وإنا نورد هنا ما قاله المؤرخون [١] تفصيلا لمظاهر الشرف فى قريش ، ونصيب كل قبيلة منها وتبياناً لما كان يليه خالد من هذه المظاهر ، فقد ذكروا أن من انتهى إليه الشرف من قريش فى الجاهلية فوصله بالاسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وهم :

« هاشم ، وأمية . ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدى ، وجمح ، وسهم ؛ فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقى الحجيج فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الاسلام . ومن بنى أمية أبو سفيان ابن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بنى نوفل الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار . ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت إليه المشورة ؛ وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخير وكانوا له أعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن تيم أبو بكر الصديق وكانت إليه الأشناق وهى الديات والمغارم فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض

---

(١) تاريخ ابن عساكر ص ٧٠٤ من المجلد الثالث ، المقدسى جزء ٢ ص ٣٣٧ العقد الفريد جزء ٢ ص ٣١ مع تفاوت فى بعض الألفاظ وقد أثبتنا رواية العقد الفريد فى الأصل لوضوحها .

معه ، وإن احتملها غيره خذلوه . ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد كانت إليه القبة والأعنة ؛ فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها مايجهزون به الجيش . وأما الأعنة فأنه كان على خيل قريش فى الحرب . ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حى للمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به . ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام ، فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تسييره على يديه . ومن بنى سهم الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم .

فهذه مكارم قريش التى كانت فى الجاهلية يتوارثونها كابرا عن كابر ، وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الاسلام وصله لهم .

صناعته

لم نجد فى كتب التاريخ التى اطلعنا عليها من صرح بصناعة لخالد قبل إسلامه بيد أنه يمكننا بعد أن أثبتنا لأبيه تلك الثروة العظيمة والمال الوفير أن نقول : ان أبناء ذلك الرجل الثرى صاحب الضياع والبساتين التى لا ينقطع ثمرها طول العام ليسوا فى حاجة إلى الاحتراف بصناعة أو تجارة ، إذ الاحتراف بأحدهما إنما يكون غالبا طلبا للرزق والمعاش أو سعيا وراء الثروة وكلا الأمرين موفور ميسر له لأن مال أبيه يفيض على غيره ، وعطاياه تغدق على من سواه .

ونستروح لهذا بقول السهيلى تفسيرا لقول الله تعالى : « وبنين

شهودا » أى مقمين معه غير محتاجين إلى الأسفار و الغيبة عنه لأن ماله ممدود [١] ويرشح قول السهيلى هذا ما ذكره المفسرون كالألوسى وغيره فى تفسير الآية الكريمة يمكن بعد هـذا أن نرجح أن خالدا لم يكن محترفا فى جاهليته .

وإذا نحن نظرنا لأبناء الأغنياء فى القرى والبلاد الريفية التى يغلب على أهلها طباع البداوة والتى هى قريبة الشبه بحال العرب فى جاهليتهم وجدنا أن همهم منصرف لأعمال الفروسية ، وركوب الخيل ، والمهارة فى الفوق على من عداهم فى تذليل صعبها وسياسة جامحها ، وكل من اختلط بالأعراب المنبثين فى الصحارى — وهم صورة لاتبعد كثيراً من عرب الجاهلية — وخبر ما عليه أبناء سادتهم وكبرائهم ، وعرف أن شغلهم الشاغل هو ركوب الخيل والعدو والسباق حتى إن أحدهم ليقوم بخدمة فرسه بنفسه ولا يكل ذلك إلى خادمه الذى يأمنه على مأكله ومشربه ليدرك بسهولة أن أبناء الأشراف همهم أن يكونوا فرسانا ولنى .

وقد يكون من السهل بعد هـذا التمهيد أن نقول : إن خالدا كان فى جاهليته كأبناء الأشراف همه الخيل وركوبها وتذليلها وتصريف اعنتها . ولئن كان ذلك مستحسنا لأبناء السادة فهو لخالد أحسن وألزم لأن قبيلته — بنى مخزوم — كان حظها كما بينا من مظاهر الشرف فى قريش القبة والأعنة وهو الذى كان يلى ذلك قبل الاسلام ولا يمكن بحال أن يحسن رجل قيادة الأعنة من غير أن يجيد ركوب الخيل وتصريفها ،

(١) الروض الأنف جزء ١ ص ١٧٣ ، الألوسى جزء ٢٩ ص ١٢١ . وهذه الآية نزلت فى الوليد على أصح الأقوال .

وبالممارسة والمران تكونت له خبرة وفوق فى أعنة الخيل وتذليلها مما نراه واضحا فى مشاهده جاهلية وإسلاما .

على أن المهارة فى ركوب الخيل الى الحد الذى وصفنا لاتتم لشخص الا بعد أن يتصف بخفة الحركة والشجاعة والتهاون بالمخاطر والمعرفة بمواضع الكر والفر وحماية ظهره ونفسه . ولقد كانت هذه الصفات ظاهرة بارزة فى خالد .

وانصرافه إلى الخيل واهتمامه بها هذا الاهتمام الذى ألممنا به لايمنع من أن يكون له مال يستغله فى التجارة ويعطيه لغيره مضاربة كما كان يفعل الكثير من أشراف قريش خصوصا وهو من بنى مخزوم أهل الثروة والمال ، وأبوه الوليد صاحب المال الممدود .

واذا نحن تدبرنا كلام صاحب العقد الفريد وغيره — وهو ما ذكرناه آنفا — وما كان عليه خالد من الشرف فى قومه وما انتهينا اليه من أن همه فى جاهليته كان منصرفا للخيل وتذليلها وسياستها وأثر ذلك فى أخلاقه وميوله سهل علينا أن ندرك .

السر فى أنه كان حربيا مظفرا

فغير منكور أن التبريز فى أمر من الامور أساسه أن يكون الشخص محبا لذلك الشىء الذى يبرز فيه ، وله فيه استعداد جبلى خاص . وكثير من الناس اذا زاول غير العمل الذى يجد فى نفسه الاستعداد له فقد قوة التبريز ، وظهر دون المتوسط أو تبلد فى حين أنه لم يكن بليدا : فاذا وجد الاستعداد النفسى وقارنه بعض الأمور المعينة على هذا العمل ، وكانت

الرغبة فيه والميل اليه قويا كان الشخص فيه غاية الغايات . وقد كان خالد ذا نفس حربية بطبيعتها ، ووجد فى بيئة تساعد على هذا التفوق فى هذا النوع . لان قريشا كانت تجعل اليه مخازن التموين ومهمات الجيش ، كما كانت تكل اليه أعنة خيلها ، ومن قبل كانت شارتا الشرف هاتين حقا لبنى مخزوم؛ فكان طبعيا لمن ينشأ فى تلك القبيلة ذات القوة والبأس وشدة الشكيمة والتى اليها جانب جد هام من عبء الحرب والدفاع عن البيضة أن ينشأ حربيا ماهراً وقائداً مستكملا لصفات العظماء من القواد .

ولئن كان خالد لم يتح له ولم يكن فى الامكان أن يتربى فى مدرسة للحربية فقد أتيح وواتته الظروف أن يتربى فى ميادين القتال ومدرسة العمل والاستعداد للحرب والطوارئ . وهذه التربية تستلزم فى صاحبها أن يكون شجاعا مقداما مستهينا بالمخاطر والمخاوف فى طباعه شىء من الشدة وقوة البأس وكذلك كان خالد .

فالبيئة الخاصة له ولا سيما قبيلته المشهورة بالشجاعة وقوة البأس وما كان له من مظاهر الشرف فى قومه وما وهبه من استعداد وما صادفه وهو فى بدء حياته من حروب الى مؤثرات أخرى كل هذه عوامل تضامت وتضافرت على تكوين خالد تكوينا حربيا جعله فى مقدمة أشهر مشاهير قواد العالم وخليق بمن يتربى تلك التربية أن يكون القائد الماهر وأن تكون له تلك الشهرة الخالدة التى لخالد .

فلا بدع اذن أن يكون عارفا بأصول الحرب حائزاً لصفات الجندية جامعا لصفات العظماء من القواد : اقدام فى حزم ، ونجدة فى عزم ، وذكاء فى روية ، وخبرة بفنون الحرب وخدعها ، وبعد نظر فى كيد العدو ، وصدق رأى فى سياسة الجند .

وإن حروبه المظفرة وسيرة فى جنده لخير شاهد لاكبر قائد عرفه تاريخ الاسلام [١]

والآن بعد أن ذكرنا نسبه ومكانته فى قومه نرى لزاما علينا أن نقول كلمة عن.

موقفه إزاء الاسلام

كان خالد كغيره من صناديد قريش وعظمائها فى موقف المعاداة للاسلام والكراهة لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ومن ناصره، لذلك كان فى كل مواقفه ومشاهده التى شهدها مع كفار مكة ضد الاسلام حريصاً جد الحرص على النكاية بالمسلمين، والنيل منهم

موقفه فى أحد

فتراه حين وجد غرة من المسلمين فى موقعة أحد قد أخذهم بخيله من خلفهم، وأعمل فيهم السيف حتى أذهلهم عن أنفسهم ودارت رحى الحرب من جديد، وكان طبعياً أن تكون الدبرة على المسلمين بعد أن كان لهم إذ جاءهم خالد [٢] على أعنة الخيل من خلفهم ومن مأمنهم وعلى غرة منهم وفى وقت اعتقدوا فيه أن الحرب قد وضعت أوزارها، وأنه قد آن لهم أن يجمعوا الغنائم ويجنوا ثمار انتصارهم ولذلك كانت دهشتهم شديدة وارتبا لهم أشد

(١) سيأتى لهذا البحث فضل بيان عند كلامنا على صفته وأخلاقه

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣٤، الطبرى ج ٣ ص ١٦، ابن الأثير ج ٢ ص ١٠٧ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩١

ولولا خالد ويقظته وانتهازه الفرصة والموقف الذى وقفه ضد المسلمين لكانت هزيمة قريش فى تلك الموقعة لا تقل عن هزيمتهم فى بدر ، ولما كان فى مكنة قريش أن تقف من المسلمين موقف المنتصر ، وتلوم نفسها وتألم لعدم القضاء على المسلمين وقد تمكنت منهم حتى لقد راودوا أنفسهم على الرجوع إليهم

ولو انتصر المسلمون فى تلك الموقعة ولم يوقع بهم خالد لكان من المرجح ألا تقف قريش من المسلمين موقفها يوم الحديبية ، ولما تمكنت من صدهم عن زيارة الكعبة

موقفه فى الخندق

ولقد كان أحد أولئك الأفذاذ الذين كانوا يتناوبون الطواف [1] بخندق المسلمين علهم يعثروا على ثغرة أو يظفروا منهم بغفلة فيأخذوهم وهم فى غفلتهم بسيوفهم وخيلهم ولكانت هلكت تلك العصابة التى كانت منفردة بعبادة الله

ولكن المسلمين لم يكونوا وهم فى مثل موقفهم يوم الخندق – الذى يصفه الله بقوله : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار

(١) « لما نظر المشركون إلى الخندق قالوا والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها وصار المشركون يتناوبون فيغدو أبو سفيان فى أصحابه يوما ، ويغدو خالد ابن الوليد يوما ، ويغدو عمرو بن العاص يوما ...... » ابن سعد ج ٢ ص ٤٨ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٠٨

وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »⁽¹⁾ ـ بالذين يسهون أو يغفلون عن عدوهم ، فما أن شعروا بخالد فى خيل المشركين يطلب غرة منهم ،⁽²⁾ ويريد اقتحام الخندق حتى رشقوه ومن معه بالنبل ، ولو تمكن من اجتياز الخندق لكان من المحتمل أن يتغلب على المسلمين وأن يكون له النصر عليهم

ولم يكن من المشركين حين فشلوا فى الخندق ، وكروا راجعين إلى ديارهم إلا أن لجأوا إلى الشهمين : عمرو بن العاص وخالد بن الوليد⁽³⁾ ليحميا ظهورهم مخافة أن يكر المسلمون عليهم ويتبعوهم . وفى هذا دلالة على ثقة القوم به ، واعتمادهم عليه ، وأنه كفء وجدير بمثل تلك الثقة التى ما كانت تعطى فى مثل ذلك الموقف جزافا . وفضلا عن ذلك فان قبوله لتلك المهمة واضطلاعه بها يجلى لنا ثقته بنفسه واستهانته بالمخاطر والمخاوف الأمر الذى كان له أثر كبير فى حياته المستقبلة

موقفه بالحديبية

كذلك كان موقفه يوم الحديبية فقد قدمته قريش على أعنة خيلها إلى

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٩٠ وفى ذلك يقول الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا »

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٤٩ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١٧

(٣) « فأقام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فى مائتى فارس ساقة للعسكر ورداءا مخافة الطلب » ابن سعد ج ٢ ص ٥٠ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٢٢

كُراع الغَميم (١) فى مائتى فارس يتحرق تحرقا لموافقة المسلمين (٢) « ودنا بخيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عباد بن بشر فتقدم فى خيله فأقام بأزائه » (٣). وحين رأى المسلمين يصلون ندم على ألا يكون أعد عدته للهجوم عليهم وقت صلاتهم واستعد لأخذهم على غرة متى قاموا لصلاة أخرى ولكن الله أعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بالأمر؛ فصلى بأصحابه صلاة الخوف (٤) ولم يخل جبهة جيشه من الحماة بل كان المسلمون يتناوبون الحراسة والصلاة. ولولا أن الأمر قد لج بينهم بتلك المعاهدة — التى كانت فاتحة خير للاسلام والمسلمين — لذكر لنا التاريخ فصلا عما كان من الحدث بينه وبين المسلمين

موقفه فى عمرة القضية

ولا أدل على كراهته وبغضه للأسلام وعدائه الشديد لأهله فى ذلك العهد من تغيبه وخروجه من مكة حين أراد المسلمون دخولها فى عمرة القضية (٥) لأنه لم يطق أن يرى المسلمين يدخلونها ولو كانوا زائرين

(١) كراع الغميم — « موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال » ياقوت ج ٧ ص ٢٢٦

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٩ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٦ ، الطبرى ج ٣ ص ٧٢ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٣٦ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٤

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٦٩

(٤) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٤

(٥) أنساب القرشيين ج ٢ ص ٣٣٨ تاريخ ابن عساكر ص ٦٩٠ من المجلد الثالث

للبيت معظمين له ورغم ما كان بينهم وبين أهل مكة من التصالح على دخولهم فى عامهم هذا للزيارة ، ورغم أن الكثير ممن يرغبون زيارة البيت هم من قريش ومن قبيلته وأبناء عمومته . ولكنها الحمية للعقيدة التى لا تزال تحتل جوانب النفس ويعز استئصالها رغم تلك الضربات الشديدة التى لم تلبث أن حطمتها بل نسفتها بعد عهد قريب

رحم الله خالداً لئن كان موقفه فى شركه شديداً على الاسلام والمسلمين فذلك الاخلاص للمعتقد والتفانى فى الفكرة وقوة النفس هى التى جعلت نصرته للاسلام أشد ونكايته باعدائه أبلغ

الآن وقد طوينا عصراً من حياة خالد يفصله عما بعده ذلك الانقلاب الفكرى والاعتقادى الخطير فانا نتقدم إلى عصر جديد يتميز عما قبله تميزاً واضحاً ، وتظهر فيه شخصية خالد بقوتها فى صورة أخرى وينشر فيه ذلك التاريخ الخالد وتلك الصحيفة الذهبية صحيفة خالد المسلم

الباب الثانى

خالد منذ اسلامه الى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

«اسلامه ، لماذا أبطأ فى اسلامه ، غزوة مؤتة ، فتح مكة ، هدم العزى ، خالد فى بنى جذيمة ، خالد فى غزوة هوازن ، خالد فى غزوة الطائف ، سرية خالد إلى دومة الجندل ، ارسال خالد الى نجران» .

اسلامه

اختلف المؤرخون فى العام الذى أسلم فيه خالد ؛ ففريق منهم زعم ان إسلامه كان فى سنة خمس للهجرة ، وزعم فريق آخر أنه أسلم سنة ست . كما أن منه من قال إن إسلامه كان فى سنة سبع للهجرة ، ومنهم من قال إنه أسلم سنة ثمان [١] . وإذا نحن نظرنا إلى هذه الأقوال فانا نرى أن من زعم أن إسلامه كان سنة ست قد أغرب وأبعد ولم يؤيده فى زعمه مؤرخ يوثق بقوله برواية تشعر بقبولها . وأما الزعم القائل بأنه أسلم سنة خمس فهو ساقط لايقام له وزن . ونحن فى غنية عن التدليل على بطلان هذين الزعمين لأنه فضلا عن بعدهما فكل نقض يتجه على قول

(١) ومنهم من تحاشى التحديد فقال : كان اسلامه بين الحديبية والفتح وهو قول صحيح لكنه لايفيد المؤرخ الذى يريد الضبط والتحديد . شرح العينى للبخارى جزء ١٦ ص ٢٤٥

من قال بأنه أسلم سنة سبع يتجه على هذين الزعمين بطريق الأولى [١]
بقى أن يكون اسلامه سنة سبع أو ثمان

وإذا نحن عرضنا كتب التاريخ والسير تبين لنا أن اسلامه كان فى صفر من سنة ثمان للهجرة قبل فتح مكة بستة أشهر ، وقبل غزوة مؤتة بشهرين .

وبيان طريقنا فى الوصول إلى هذه النتيجة أمران : —

ا — نصوص تاريخية

ب — معقولات ترتكز على نصوص تاريخية

ا — والنصوص التاريخية منها : —

١ — قول ابن سعد : « فاصطحنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول يوم من صفر سنة ثمان » [٢]

٢ — وقول البلاذرى : « وكان عمرو بن العاص قدم من عند النجاشى مسلما فلقى فى طريقه عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد يريدان النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا فى صفر سنة ثمان [٣]

---

(١) كثير من المؤرخين قد تعرض لهذين الزعمين بالرد الصريح كقول ابن الأثير فى أسد الغابة ردا على من زعم بأنه أسلم سنة خمس : « وليس بشىء » جزء ٢ ص ١٠١ » وقال صاحب الاصابة : « ووهم من زعم أنه أسلم سنة خمس » جزء ٢ ص ٩٨ . وقال فى أسد الغابة ردا على من زعم اسلامه سنة ست : « وهذا القول مردود ، فان الصحيح أن خالد بن الوليد كان على خيل المشركين يوم الحديبية » جزء ٢ ص ١٠١ ومثله فى الاصابة

(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٠١

(٣) أنساب الأشراف ج ١ ص ١٨٤ وذكر نحوا من ذلك فى كتابه فتوح البلدان ص ٦٩

٣ — وقول ابن قتيبة : « وأسلم سنة ثمان هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة [1]

٤ — وما رواه الطبرى إذ يقول : « وفيها (يعنى سنة ثمان) قدم عمرو بن العاص مسلماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلم عند النجاشى وقدم معه عثمان بن طلحة العبدرى وخالد بن الوليد بن المغيرة قدموا المدينة فى أول صفر » [2]

٥ — ومارواه ابن عساكر نقلا عن الواقدى ونصه : « الثبت عندنا أن خالداً لم يشهد خيبر وأسلم قبل الفتح هو وعمرو بن العاص وعثمان ابن طلحة بن أبى طلحة أول يوم من صفر سنة ثمان . . . . . . » [3]

٦ — وقول ابن الأثير : « فى هذه السنة (يعنى سنة ثمان) فى صفر قدم عمرو بن العاص مسلماً على النبى صلى الله عليه وسلم وقدم معه خالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة العبدرى » [4]

٧ — وما ذكره أبو الفدا وهو : « وفى سنة ثمان قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص السهمى وعثمان بن طلحة بن عبد الدار فأسلموا » [5]

وغير هؤلاء كثير أضربنا عن ذكرهم اكتفاء بمن ذكرنا من الثقاة وتحاشياً للتطويل والملل

ب — والمعقولات منها : —

---

(١) المعارف ص ٩٠

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٠٣

(٣) تاريخ مدينة دمشق ص ٦٨٦ المجلد الثالث

(٤) الكامل جزء ٢ صفحة ١٥٥

(٥) أبو الفداء فى تاريخه جزء ١ صفحة ١٤٢

١ — ماذكره البلاذرى فى صدد كلامه على فتح مكة إذ يقول : « فدفع (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) المفتاح إلى عثمان بن طلحة وكان أسلم فى صفر سنة ثمان » وعثمان هذا كان رفيقاً لخالد فى طريقه إلى المدينة يريد الاسلام وأسلما معاً ؛ فاسلامه إذن فى صفر من سنة ثمان [١]

٢ — كثير من المؤرخين حين يروى لنا إسلام عمرو بن العاص بحكاية عمرو نفسه يقول : « وذلك قبل الفتح » فهل أعجزت العبارة عمراً فلم يستطع أن يقول : وكان ذلك بعد الحديبية أو قبل عمرة القضاء مثلا . على أن بعض المؤرخين كابن هشام فى سيرته كان أوضح عبارة إذ يقول عن لسان عمرو أيضاً : « وذلك قبيل الفتح » وهذا لعمرى صريح فى أن إسلام خالد كان قبل الفتح بقليل . ولا يمكن أن يفهم من هذا التركيب العربى الذى يقصد إليه مؤرخ يعنى ما يقول أنه أسلم قبل الفتح بسنة أو سنتين إلا إذا أهدرنا مداولات الألفاظ العربية ، وتلاعبنا بلغة العرب وفهمناها على غير ما أرادوا وهو ما لا نستطيعه [٢]

٣ — معظم كتب التاريخ والسير التى تعرضت لاسلام الوليد بن الوليد أخى خالد تذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوليد وهو فى عمرة القضاء : «لو جاءنا خالد لقدمناه ومن مثله سقط عليه الاسلام فى عقله» فكتب الوليد إلى خالد يرغبه فى الاسلام ويخبره بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ؛ فكان ذلك سبب إسلامه وهجرته [٣] . وهذا صريح

(١) أنساب الأشراف جزء ١ صفحة ٢٣

(٢) راجع الطبرى جزء ٣ صفحة ١٠٤ ، سيرة ابن هشام جزء ٢ صفحة ٢١١ ، الاصابة جزء ٢ صفحة ٩٨

(٣) أنساب القرشيين للمقدسى جزء ٢ صفحة ٣٣٨ ، الاستيعاب جزء ٢ صفحة ٦١٩

فى أن خالداً كان حتى عمرة القضاء غير مسلم ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما فرغ من عمرته وتوجه إلى المدينة فى ذى الحجة خاتمة سنة سبع . وبعيد جداً أن يصل كتاب الوليد إلى خالد — الذى غادر مكة حتى لايشهد المسلمين يدخلونها — فيرغبه فى الاسلام ثم يسلم ويبعث إلى النبى صلى الله عليه وسلم أفراساً ويعلمه باسلامه ثم يعزم على الهجرة ويبحث عن رفيق له ويشيع خبر إسلامه فى مكة ويحصل ما حصل من المشاتمة بينه وبين أبى سفيان ويحضرها عكرمة بن أبى جهل ويغضب لابن عمه وأخيراً بعد هذا كله يصل إلى المدينة قبل انقضاء الأيام القلائل التى بقيت من ذى الحجة سنة سبع حتى يمكن أن يقال انه أسلم وهاجر فى آخر لحظة من سنة سبع [1]

٤ — يقول المؤرخون الموثوق بقولهم : « إن أول مشهد شهده خالد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فتح مكة وأن أول غزوة غزاها كانت مؤتة [2] ومعلوم أن مؤتة والفتح كانتا سنة ثمان فهل أسلم خالد سنة سبع ثم انزوى بعيداً عن الأعين فلم نسمع له ذكراً أو كان جباناً فلم يخرج فى غزوة أو سرية أو أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقدره قدره . اللهم لا هذا ولا ذاك ؛ لأنه ليس من الأفراد الذين يعيشون من غير أن يشعر بهم أحد كما أنه يقول عن نفسه : فما عدل بى رسول الله

= الاصابة جزء ٦ صفحة ٣٢٣ . أسد الغابة جزء ٥ صفحة ٩٢ ، ابن عساكر مجلد ٣ صفحة ٦٩٠ السيرة الحلبية جزء ٣ صفحة ٨٦

(١) مغازى الواقدى صفحة ٤٠٠ ، ٤٠١ ، سيرة بن هشام جزء ٢ ص ٢٥٥

(٢) الاستيعاب جزء ١ صفحة ١٥٧ ، أسد الغابة جزء ٢ صفحة ١٠٢ ، تهذيب الأسماء للامام النووى صفحة ١٧٣ من القسم الأول

صلى الله عليه وسلم أحداً من أصحابه فى أمر حزبه »

ونلاحظ على قول من يقول : بأن إسلامه كان فى سنة سبع الغموض وعدم التحديد فى حين أننا نرى من يقول بان إسلامه كان فى سنة ثمان قد أوضح قوله وحدده ، فعين لنا السنة والشهر واليوم الذى أسلم فيه ، بل إن بعض الروايات قد عينت الساعة أيضاً (١)

بعد هذه الأدلة العقلية والنقلية نجزم واثقين برأينا السابق من أن إسلامه كان فى صفر من سنة ثمان

هذا وقد حملنا على الاكثار والاطالة فى تعيين الوقت الذى أسلم فيه كثرة الروايات والأقوال الواردة فى إسلامه وغموضها وإبهامها تارة وتضاربها واضطرابها تارة أخرى ، كما أننا رأينا كثيراً من الكتاب المحدثين الذين ندين لهم بالفضل يذكرون أن إسلامه كان فى سنة سبع ، فكنا مضطرين إزاء ذلك أن نأتى بكثير من الأدلة ليتبين وجه الصواب واضحاً ولنقنع أولئك الأساتذة الأجلاء بصحة ما ارتأيناه (٢)

وها نحن نذكر إسلامه رضى الله تعالى عنه كما روى عنه (٣) . قال : « لما أراد الله عز وجل ما أراد بى من الخير قذف فى قلبى حب الاسلام وحضر لى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد

---

(١) كما فى رواية عن عمرو بن العاص نقلها صاحب السيرة الحلبية جزء ٣ صفحة ٨٧

(٢) ومنهم من رأى رأينا كالبستانى فى دائرة المعارف وأستاذنا الدكتور حسن ابراهيم فى كتابه عمرو بن العاص ، وجيبون فى كتابه انحلال وسقوط الدولة الرومانية

(٣) طبقات ابن سعد جزء ٤ صفحة ١ ، ٢ ، تاريخ ابن عساكر المجلد الثالث صفحة ٦٩٠ - ٦٩١ ، السيرة الحلبية جزء ٣ صفحة ٨٦ مع تفاوت فى بعض التراكيب بين هذه الكتب

صلى الله عليه وسلم فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى
نفسى أنى مُوضِع فى غير شىء وأن محمداً صلى الله عليه وسلم يظهر فلما جاء
صلى الله عليه وسلم لعمرة القضية تغيبت ولم أشهد دخوله فكان أخى
الوليدبن الوليد قد دخل معه صلى الله عليه وسلم فطلبنى فلم يجدنى فكتب
إلى كتابا فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فانى لم أر أعجب من
ذهاب رأيك عن الاسلام وعقلة عقلك ومثل الاسلام يجهله أحد !؟ قد
سألنى عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد فقلت يأتى
الله به فقال : ما مثله يجهل الاسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين
على المشركين كان خيرا له ولقدمناه على غيره فاستدرك يا أخى مافاتك
فقد فاتك مواطن صالحة،فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة
فى الاسلام وسرتنى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت فى
المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة فلما
أجمعنا الخروج إلى المدينة لقيت صفوان فقلت يا أبا وهب أما ترى أن
محمدا ظهر على العرب والعجم فلو قدمنا عليه فاتبعناه فان شرفه شرف لنا
قال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا . قلت هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر
فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ماقلت لصفوان فقال مثل الذى
قال صفوان قلت فاكتم ذكر ماقلت لك قال لا أذكره . ثم لقيت عثمان
ابن طلحة (أى الحجبى) قلت هـذا لى صديق فأردت أن أذكر له ثم
ذكرت من قتل من آبائه (أى قتل أبيه طلحة وعمـه عثمان . وقتل
اخوته الأربعة مسافع والجلاس والحارس وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد)
فكرهت أن أذكر له ثم قلت وما على فقلت له إنما نحن بمنزلة ثعلب فى

بحجر او صب فيه ذنوب من ماء لخرج ثم قلت له ماقلت لصفوان وعكرمة فأسرع الاجابة فواعدنى إن سبقنى أقام فى محل كذا وإن سبقته انتظرته فلم يطلع الفجر حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة (اسم محل) فنجد عمرو بن العاص بها فقال مرحبا بالقوم فقلنا وبك. قال: أين مسيركم قلنا الدخول فى الاسلام. قال: وذلك الذى أقدمنى. وفى لفظ قال عمرو لخالد يا أبا سليمان اين تريد قال والله لقد استقام الميسم[1] (أى تبين الطريق وظهر الحق) وإن هذا الرجل لنبى أذهب فأسلم فحتى متى قال عمرو: وأنا ماجئت إلا لأسلم فاصطحبنا جميعا حتى دخلنا المدينة الشريفة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا (أى وقال: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها) فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال: أسرع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سر بقدومكم وهو ينتظركم فأسرعنا المشى فاطلعت عليه فمازال صلى الله عليه وسلم يبتسم إلى حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق فقلت: أشهد أن لا إله الا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير» قلت يارسول الله ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك فقال

---

(١) رواية الطبرى جزء ٣ صفحة ١٠٤ «المنسم» قال السهيلى: من رواه الميسم بالياء فهى العلامة أى قد تبين الأمر واستقامت الدلالة ومن رواه المنسم بفتح الميم وبالنون فمعناه استقام الطريق ووجبت الهجرة والمنسم مقدم خف البعير وكنى به عن الطريق للتوجه به فيه» الروض الأنف جزء ٢ صفحة ٢١١

صلى الله عليه وسلم : « الاسلام يجب ما كان قبله »[١] قلت يا رسول الله على ذلك فقال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلما أوضع فيه من صد عن سبيلك » قال خالد فتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مقدمنا فى صفر من سنة ثمان فوالله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أسلمت يعدل بى أحدا من أصحابه فيما حزبه[٢] » ثم أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع داره من الدور التى كان وهبها له الحارثة ابن النعمان[٣]

هذا ولا يسعنا أن نمر باسلامه دون أن نتدبره لعلنا نجده قد اشتمل على ميزة له : فنجد أنه لم يدخل فى الاسلام تبعا لغيره أو طمعا فى نفع أو تفاديا من ضر ، وإنما أسلم بعد أن رأى أن الميسم قد استقام ، وبعد تدبر ، ومراجعة للنفس وعرض للمواطن التى شهدها ضد الاسلام ، واقتناع بحقية الدين الذى ارتضاه لنفسه ، وبفساد ما كان يعتقده ، فهنيئا لك يا خالد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لدخولك فى الاسلام ، وقوله لأخيك الوليد : « مامثله يجهل الاسلام » . جدير أنت ياخالد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك وفى رفيقيك حين جئتموه مسلمين : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

مرحى مرحى ياخالد فقدسر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامك

---

(١) إلى هنا انتهى ما ذكره صاحب السيرة الحلبية

(٢) رواية ابن سعد « فيما يجزيه » بدل فيما حزبه » وفى رواية عن عمرو بن العاص « فى أمر حربه »

(٣) طبقات بن سعد جزء ٤ ص ١

ورفيقيك وانتظركم فما أن طلعت عليه حتى ابتسم وما زال يبتسم إليك حتى سلمت عليه بالنبوة فرد عليك السلام بوجه طلق .

لا جرم فأنت جدير بكل ذلك ؛ ألست أنت الذى يقول فيك الرسول صلى الله عليه وسلم حين أسلمت : « الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » ثم يمنحك موضع دارك ويميزك بذلك عن صاحبيك وهما ماهما فى قريش

ألست أنت الذى طلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لك مما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله فأجاب طلبتك ودعا لك بقوله « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلما اوضع فيه من صد عن سبيلك » . حقيق وعقلك عقلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بك أحداً من أصحابه فيما حز به كما تقول أنت عن نفسك

على أن ما حكاه لنا خالد عن إسلامه وما كان من سرور الرسول صلى الله عليه وسلم به وقوله فيه : « ما مثله يجهل الاسلام » يجعلنا نتساءل

لماذا أبطأ خالد فى اسلامه

وقد كفانا عمرو بن العاص مؤنة الجواب حين سئل : « ما أبطا بك عن الاسلام وأنت أنت فى عقلك » إذ يقول كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن توازى أحلامهم الجبال فلذنا بهم فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فاذا حق بين فوقع الاسلام فى قلبى »

« فضلا عن ذلك فان قريشاً هم الحمس فى الدين وهم حماة البيت الحرام والذادة عنه الذى تعزهم العرب من أجله فطبعى جداً أن يقفوا — وبخاصة ذوى

الشرف والسادة منهم — فى وجه هذا الدين الجديد الذى يزيل سلطانهم إن اعتنقوه ويجعلهم فى مستوى غيرهم من العرب، وأن يناصبوه العداء، وإن الموت عندهم أيسر على نفوسهم من الدخول فى هذا الدين

وهذا العداء يذكيه ويلهبه ما كان من قتل المسلمين لكثير من أشراف قريش — ولاسيما فى بدر حيث قتل معظم أشرافهم وصناديدهم — وعزيز على النفوس البشرية مهما سما إدراكها أن تذعن للدين الذى قتل الأحبة وأبعدهم. يدل لذلك مادار من الحوار بين عكرمة بن أبى جهل وخالد فحين عزم خالد على الاسلام فزع عكرمة وقال: «قدصبوت ياخالد فقال لم أصب ولكنى أسلمت قال عكرمة والله إن كان أحق قريش أن لا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت قال: ولم؟ قال عكرمة لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عمك وابن عمك ببدر، فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد أما رأيت قريشاً يريدون قتاله قال خالد هذا أمر الجاهلية وحميتها لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق . . . .»[1] وما كان يلهج به كثير من أشرافهم كقول صفوان بن أمية حين فاوضه خالد فى الاسلام: «لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبداً». ولقد أدرك خالد هذه الحقيقة النفسية التى أدت إلى امتناعه وإبائه الاسلام فقال: «هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر»

الآن وقد أسلم خالد وسر الرسول صلى الله عليه وسلم باسلامه كما فرح المسلمون بانضمامه إليهم نتقدم لبيان فتوحه وأعماله، وما كان له من أثر فى نصرة دين الله وإعلاء كلمته. وأول غزوة شهدها فى الاسلام هى:

(١) مغازى الواقدى صفحة ٤٠٠، ٤٠١

غزوة مؤتة (١)

في جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة أنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الأمراء إلى مؤتة للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير رسوله إلى صاحب بصرى (٢) واستعمل على هذا الجيش: « زيد بن حارثة وقال ان أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » (٣)

سار المسلمون حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون إلى مؤتة والتقوا بعدوهم فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر ابن أبي طالب واقتحم عن فرسه فعقرها (٤) وقاتل حتى قتل ثم أخذها ابن رواحة وقاتل حتى قتل

صار المسلمون ولا قائد لهم يحفظ نظامهم ويحقق الغرض الذى أرسلوا من أجله فاضطربوا وأصبح موقفهم تجاه عدوهم دقيقاً حرجاً فلم يجدوا

(١) قال في الروض الأنف: « وهى مهموزة الواو وهى قرية من أرض البلقاء من الشام وأما الموتة بلا همز فضرب من الجنون . . . . » ج ٢ ص ٢٥٦ . وقال ياقوت: « مؤتة بالضم ثم واو مهموزة ساكنة وتاء مثناة من فوقها وبعضهم لا يهمز... قرية من قرى البلقاء في حدود الشام » ج ٨ ص ١٩٠ - وسماها المؤرخون غزوة تساهلا وإلا فهى سرية لأن النبى ﷺ لم يخرج فيها

(٢) بصرى من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٦ وفى تأمير الرسول ﷺ ثلاثة من الأمراء على خلاف ما جرت عليه عادته تلميح لا يخفى بأن الشهادة قد وجبت لهم

(٤) وهو أول من عقر فرسه فى الاسلام الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ ، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٨ ابن الأثير ج ٢ ص ١٦٠

– وهم فى مثل موقفهم – أحزم من أن يلجأوا للشهم ربيب الحرب خالد بن الوليد فأمروه عليهم وأسلموه قيادهم فكان ذلك من توفيق الله لهم.

تسلم خالد إمرة جيش منهزم قليل العدد لا يزيد على الثلاثة الآلاف كاد يفقد قوته المعنوية أو فقدها وهو فضلا عن ذلك بأزاء جيش عظيم يربو على المائة والخمسين ألفاً [1] مدرب عظيم الثقة بنفسه، معتز بقوته، وله ضراوة وخبرة بالحروب قريب عهد بالانتصار على الفرس وهنا ظهرت مواهب خالد الحربية، فأعمل الحيلة فى خلاص الجيش وإنجائه من الفناء فقاتل فى يومه قتالا شديداً ولما غدا غير نظام الجيش فجعل مقدمته ساقة وساقته مقدمة وكذلك فعل بالميمنة والميسرة؛ [2] فكان هذا التغيير مما جعل الروم يظنون أن مدداً جاء للمسلمين فقدروهم ونظروا إليهم بعين ليست عين الأمس

كان هذا تدبيراً وقتياً لحماية الجيش من الفناء؛ ولذا فانا نرى خالداً يتقهقر بالجيش قليلا قليلا مع حفظ نظامه «وحياطة قاصيته» وهذا تدبير محكم وخطة رشيدة لا تفضلها غيرها فى مثل هذا الموقف. وبذلك تحاجز الفريقان ونجا جيش المسلمين من فناء محقق

مثل هذا التدبير من خالد ليس بالعمل الميسور الذى يستطيعه كل قائد بل هو عمل عظيم جسيم يتطلب مهارة وحزما ورباطة جاش وثقة

---

(١) وهذه رواية المقل من مؤرخى العرب

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٩٦

بنصر الله . وكثيرا ماعرف التاريخ قوادا عظاما [١] كان السر فى شهرتهم إنجاء جيوشهم من مثل هذا الموقف الحرج الذى لو اختل أقل تدبير فيه لفنى الجيش . ومما يصور لنا مقدار مالاقاه جيش المسلمين من شدة وخطوب قول خالد : « لقد اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما ثبت فى يدى الا صفيحة يمانيـة » [٢] ؛ فالجيش الذى يضطر قائده للقتال — وإن كانت تلك عادة خالد فى معظم وقائعه — حتى تتكسر فى يده تسعة أسياف لابد وأن يكون قد لاقى من الأهوال أشدها ومن الخطوب أقساها وقائده لهو من أعظم القواد وأشجعهم وأعرفهم بالحرب

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بموت الأمراء الثلاثة واستغفر لهم وقال : « ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء هو أمر نفسه » ثم قال : اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره » [٣] فمنذ ذلك اليوم سمى خالد سيف الله . وحقا إنه لجدير بذلك اللقب النبوى الكريم ؛ فقد أمر نفسه ونجى جيش المسلمين ، ولعمرى مهما أجاد الانسان فى وصفه ومدحه فلن يصفه بأحسن ولا بأوفى مما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم

وربما همس هامس قائلا : إذا كان هذا حال جيش المسلمين فلماذا لم يتبعهم الروم حين انحازوا وتقهقروا فيقضوا عليهم ؟ وجوابنا أن الجيوش

---

(١) مثل هندنبرج القائد الألمانى العظيم (رئيس الجمهورية الألمانية اليوم) وأحمد مختار باشا فى حرب الروسيا سنة ١٢٩٣

(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٩٦ ، أنساب القرشيين ج ٣ ص ٣٣٩ الاستيعاب ج ١ ص ١٥٧ ، أسد الغابة ج ٢ ص ١٠١

(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٩٧

الكبيرة ذات العدة والأثقال يعسر عليها الحرب والقتال فى الفيافى والمفاوز والمسلمون كان عددهم قليلا وعدتهم خفيفة وهم بحكم تربيتهم ونشأتهم أنشط من الروم وأمرن على السير فى المفاوز والقفار وأخبر بشعابها وحزنها ، فلا فائدة عمليا من تتبعهم لتعذر لحاقهم. ولا يبعد أنهم خافوا من أن يكون للمسلمين كمين وأن يكون تأخرهم مكيدة كى يزجوا بهم فى الصحراء فاذا تورطوا فيها أخذهم الكمين من خلفهم أو أن يكون تأخرهم للتحيز إلى فئة أو مدد أتاهم فتحرزوا من الكمين ومبالغة فى الحيطة والحذر لم يتبعوهم

عود على بدء

يقول بعض المؤرخين : إنه بعد أن تسلم خالد قيادة الجيش هزم الروم هزيمة منكرة . ومن ذلك رواية لابن سعد فى طبقاته يقول فيها راويها ما نصه : فأخذ خالد اللواء ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا . . . »[1]. ولم نطلع على ما يؤيدها فى كتب التاريخ الموثوق بها برواية تشعر بقبولها بل إن معظم المؤرخين ومن بينهم ابن سعد نفسه فى أول كلامه على الموقعة قد نص على أن الفريقين تحاجزا من غير قتال وأن خالدا لما أخذ الراية دافع القوم وخاشى[2] بهم ثم انحاز ، وانحيز عنه حتى انصرف بالناس

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٤

(٢) المخاشاة المحاجزة وهى مفاعلة من الخشية لأنه خشى على المسلمين لقلة عددهم ومن رواه حاشى بالحاء المهملة فهو من الحشى وهى الناحية — الروض الأنف ج ٢ ص ٢٦٠

وفضلا عن هذا فان العقل يستبعد جدا مثل هذا الانتصار إذماقيمة كتيبة صغيرة عدتها ثلاثة آلاف رجل بأزاء جحفل جرار عدته ٢٠٠ ألف مقاتل وكم عدد الأشلاء وآلاف القتلى الذين وضع المسلمون أسيافهم فيهم حيث شاءوا ؟ لم نر من المؤرخين من تعرض لمقدار الغنائم ولا لعدد القتلى على غير عادتهم فى مثل هذه الحوادث التى ينتصر فيها المسلمون انتصارا مؤزرا كالذى يحكيه لنا الراوى

ومن ذلك أيضا ماذكره ابن هشام وابن برهان الدين [١] من ان المسلمين أمروا عليهم خالدا ففتح الله عليهم . وما ذكره هذان المؤرخان يمكن حمله على المجاز ؛ لأن نجاة ثلاثة آلاف من فناء محقق يعتبر بحق فتحا لأنه لولا خالد ومهارته لهلك الجيش فكأنه أضاف إلى سواد المسلمين ثلاثة آلاف من الأنفس . على أننا نجد المؤرخين جميعا يذكرون أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين خرجوا لاستقبال هذا الجيش حين شارف المدينة راجعا ، وكان الناس يحثون فى وجوههم التراب ويعيرونهم بقولهم: « يا فرار فررتم فى سبيل الله » والنبى صلى الله عليه وسلم يخفف عنهم ويعتذر بقوله : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » [٢] فهل ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين خرجوا لاستقبال أفراد رجعوا فارين قبل انتصار المسلمين كما زعم بعض من قال ذلك أم المقبول أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج لاستقبال الجيش وأن حثى التراب فى وجوههم دليل بين على عدم انتصارهم . واذا كان بعض من تمحل

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٩٦

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٣ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٠

هذا العذر لجيش المسلمين ربما كان الحامل له على ذلك أنه عز عليه أن يفر من وجه العدو فانا نرى أن كتيبة صغيرة تنجو من براثن هذا الخميس العرمرم لا يقتل منه الا اثنى عشر رجلا لمن أعظم الفخر وفى غنية عن الاعتذار

وكثير من الشعر الذى قيل فى هذه الموقعة يؤيد رأينا ، فمن ذلك قول « قيس بن المحسر اليعمرى » يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس :

فوالله لا تنفك نفسى تلومنى — على موقفى والخيل قابعة قبل
على أننى آسيت نفسى بخالد — ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحو جعفر — بمؤتة إذ لا ينفع النابل النبل
وضم الينا حجزتيهم كليهما — مهاجرة لا مشركون ولا عزل

فبين قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك فى شعره أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وحقق انحياز خالد بمن معه » [1]

وقد أيد ابن برهان الدين تأويلنا لما نقله بقوله : « وكون هذا نصراً وفتحاً واضح لاحاطة العدو بهم وتكاثرهم عليهم لأنهم كانوا مائتى ألف والصحابة ثلاثة آلاف إذ مقتضى العادة أن يقتلوا بالكلية » [2] ويقول أيضاً فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنتم الكرارون وهو دليل على أنه كان بينهم محاجزة وترك للقتال » [3]

هذا وقد قيل كثير من الشعر فى هذه الموقعة ؛ فمن ذلك قول حسان ابن ثابت يرثى الأمراء الثلاثة :

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٩٧

(٣) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٩٩

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعاً وأسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
ومازال فى الاسلام من آل هاشم دعائم عز لايزلن ومفخر [١]

فتح مكة

لما أراد الله فتح مكة وهيأ الأسباب لذلك سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان بعد العصر [٢] بجيش عظيم بلغت عدته بعد أن تكامل ١٠ آلاف مقاتل [٣] من المهاجرين والأنصار [٤] ومن أجابه من قبائل العرب التى بعث اليها وحين قارب الرسول صلى الله عليه وسلم مكة ووصل إلى ذى طوى [٥] فرق الجيش فكان خالد أميرا على الميمنة «وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينه وجهينة وقبائل من قبائل العرب» [٦] وهذا أول يوم نال فيه خالد شرف القيادة والامارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦١
(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٩
(٣) وهو أكبر جيش عرفته بلاد العرب إلى ذلك الوقت
(٤) لم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس — ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٧ الطبرى ج ٣ ص ١١٤ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٠٩
(٥) موضع قرب مكة — معجم البلدان ج ٦ ص ٦٤
(٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧١ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٨

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة أن يدخل من كداء والزبير من كدى[١] وخالد من الليط[٢] ودخل عليه السلام من أذاخر[٣] حتى نزل بأعلى مكة وضربت له هناك قبته ؛ فدخول المسلمين مكة كان من اربعة مواضع[٤]

كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً جد الحرص على الايراق دم فى البلد الحرام فنهى أمراءه عن القتال إلا إذا قوتلوا ومنعوا لكن بعض أشراف قريش ورجالاتها أبوا إلا أن تراق الدماء فى الحرم المقدس ؛ فان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمر كانوا قد جمعوا ناساً من بكر والأحابيش[٥] وغيرهم بالخندمة[٦] أسفل مكة ليقاتلوا المسلمين

(١) كداء الممدود بأعلى مكة دار النبي ﷺ من ذى طوى إليها وكدى بضم الكاف وتنوين الدال بأسفل مكة عند ذى طوى عند شعب الشافعيين ومنها دار النبي ﷺ إلى المحصب فكأنه ﷺ ضرب دائرة فى دخوله وخروجه بات بذى طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها وفى خروجه خرج من أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب ...... قال ابن المواز : كداء التى دخل منها النبي ﷺ هى العقبة الصغرى التى بأعلى مكة وهى التى تهبط منها إلى الأبطح والمقبرة منها عن يسارك وكدى التى خرج منها هى العقبة الوسطى التى بأسفل مكة ....» معجم البلدان ج ٧ ص ٢٢١

(٢) الليط موضع أسفل مكة معجم البلدان ج ٧ ص ٣٤٦

(٣) أذاخر بالفتح والخاء المعجمة المكسورة معجم البلدان ج ١ ص ١٥٩

(٤) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٨

(٥) الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحرث بن عبد مناف بن كنانة وبنو المصطلق بن خزيمة وقيل لهم ذلك لأنهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حبش هم وقريش على من عاداهم ماسجا ليل ووضح نهار وما رسا حبش فسموا أحابيش قريش - السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٨

(٦) الخندمة موضع بمكة قريبا من شعب أبي طالب - البلاذرى ص ٥٥ وأما ياقوت فقال الخندمة بفتح أوله جبل بمكة - معجم البلدان ج ٣ ص ٤٧٠

ويصدوهم عن الدخول . وأراد الله أن يكون لخالد - وهو أول من أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدخول - [١] فى هذا اليوم المشهود جولة وأن يشهر سيفه ليزحزح الأولى يريدون منع المسلمين من دخول البيت الحرام فاشتبك معهم فى قتال انجلى عن قتل ١٣ من المشركين وثلاثة من المسلمين [٢] . ولم يحدث فى هذا اليوم المشهود قتال سوى هذه المناوشة التى أعقبها انهزام المشركين ودخول المسلمين المسجد الحرام محلقين رءوسهم ومقصرين : فكان ذلك تحقيقاً لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التى ذكرها القرآن الكريم بقوله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً »

وكان دخول المسلمين مكة فى يوم الجمعة لعشر بقين من شهر رمضان من سنة ثمان [٣]

ظن أولئك القوم أنهم بما جمعوا من بكر والحارث والأحابيش [٤] يقفون فى وجه المسلمين ويصدونهم عن دخول مكة ولم يدروا أن سيف

---

(١) البلاذرى ص ٤٦

(٢) وهم : كرز بن جابر أحد بنى محارب ، وخنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم حليف بنى منقذ وسلمة بن الميلاء من جهينة والأولان كانا فى خيل خالد فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا والأخير أصيب من خيل خالد ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧١ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٨ وابن سعد فى طبقاته قال : ان قتلى المشركين كانوا أربعة وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ج ٢ ص ٩٨ ومثله فى أبى الفداء ج ١ ص ١٤٤

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٩ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٥

(٤) الطبرى ج ٣ ص ١١٧

الله امير على ميمنة الجيش الفاتح ، وأنه أمر أن يتقدم فيكون أول من يدخل وان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أذن له فى قتال من يتصداه ولسوء حظهم كانوا من نصيبه فأراهم أن ذا العزمات الماضية الذى عرفوه بالأمس شديداً قاسياً على المسلمين هو اليوم أشد وأقسى على الشرك والمشركين .

هذا ولا يسعنا أن نمر بفتح مكة من غير أن نتدبره علنا نجد ميزة لاختيار خالد للقيادة فى هذا اليوم العظيم .

ذلك أن هذا اليوم المشهود كان ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفارغ الصبر لأن لأهل مكة الزعامة الدينية على سائر العرب وكل العرب تبع لهم فى ذلك فاذا أذعن أهلها ومحيت منها عبادة الأوثان والأصنام فقد أذعنت كل العرب وأعطت بيدها صاغرة وليس أحب إلى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يرى الكعبة يذكر فيها اسم الله خالصاً ويعبد فيها وحده وتمحى منها الأصنام والأنداد ورسول الله أعلم الناس بنفسية قريش ومقدار كرههم لهذا الدين وللداعى إليه ؛ فهم لا تطيب نفوسهم لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلا مكة مستولياً عليها . وهم يعرفون أنه متى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فقد دالت دولتهم وانتهى عزهم ومحيت عظمتهم وقضى على أوثانهم ومعبوداتهم . كل هذا وأكثر منه يعرفه الرسول وتعرفه أهل مكة فالمعقول إذن أن يختار الرسول صلى الله عليه وسلم لامرة جيشه فى هذا اليوم أكفأ قواده الذين خرجتهم الحروب وعركتهم الحوادث ولهم سابق خبرة ودراية بقيادة الجيوش وتسييرها والاشراف عليها وإذا كنا نعلم أن جيش الفتح هذا

فيه كل قواد المسلمين وكثير من زعماء العرب فانه يمكننا أن نقول : ان اختيار خالد للقيادة فى مثل هذا اليوم المشهود ليس لأنه يصلح للقيادة وكفى بل لأنه قائد ممتاز قدره الرسول صلى الله عليه وسلم وعرف له فوقه فى القيادة. وإذا نحن عرفنا أنه كان تحت إمرته قراب ثلث الجيش [١] وأن هذا الفريق كان خليطاً من قبائل العرب المتبدين المتنافرين الذين لم يهذبهم دين ولم يألفوا النظام أمكن بسهولة أن ندرك السر فى اختيار خالد لقيادة تلك الفرقة المختلطة .

فليس اختياره إذن لمثل هذا اليوم ولقيادة تلك الفرقة المتباينة عفواً بل لأنه الجدير بذلك ولا يحسن أن يسوس هذه الجموع أحد ما ساسها خالد

هذا وقد أكثر الشعراء من المسلمين والمشركين من القول فى هذا اليوم. فمن ذلك قول حماس بن قيس أخو بنى بكر وكان ممن تصدى لقتال خالد فلما هزمهم فر إلى بيته وقال لامرأته أغلقى على بابى فقالت له فى ذلك فقال : [٢]

إنك لو شهدت يوم الخندمه	إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمؤتمه	واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه	ضربا فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه	لم تنطق فى اللوم أدنى كلمه

(١) فقد كان تحت امرته بنو سليم فى سبعمائة وقيل ألف وأسلم فى أربعمائة ومزينة فى ألف وثلاث نفر وبنى غفار فى أربعمائة وجهينة فى ثمانمائة وقيل ألف وأربعمائة، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧١ ، ٢٧٩ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٨ ، ١٢٢ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٢ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٩

يعدفتح مكة أول يوم طهرت فيه الكعبة من عبادة الأوثان والأصنام وإذا اجتث الأصل وجرثومة الشرك لم يبق إلا مظاهر ومعابد فى المرتبة الثانية وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم فى إزالتها ومحوها ليكون الدين كله لله لا شريك له فما أن استراح قليلا بعد الفتح حتى عزم على :

هدم العزى

لم يمض على فتح مكة خمسة ايام حتى أرسل النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى ثلاثين فارساً من المسلمين إلى بطن نخلة حيث هيكل العزى فسار إليها خالد وهدمها لخمس ليال بقين من رمضان وكانت أكبر صنم لقريش تعظمه كنانة ومضر كلها وكان سدنتها بنو شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم (1)

على أن هدم العزى وإن بدا أمراً هيناً ولا خطورة فيه لكن لا يعزب عنا أنها كانت أكبر أصنام قريش وتعظمه كنانه ومضر كلها ومن جهة أخرى هى أول صنم أراد الرسول البداءة بهدمه — بعد ما كسر ما فى داخل الكعبة — فاذا هدم هذا وأذعن معظموه — وهم من ذكرنا — فغيره مما ليست له هذه الميزة وتلك المنزلة أيسر وأهون

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم خبيراً بتلك الحقيقة النفسية وهى : أن هدم العزى كان بعد الفتح بخمسة أيام فقط والنفوس مهتاجة مضطربة ساكنة على مطوية حقد وغيظ فليس بعيداً إن أمكنت فرصة لأولئك الموتورين أن يشفوا صدورهم وغيظهم فكانت الحكمة وبعد

(1) مغازى الواقدى ص ٧ ، طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٩ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٣

النظر أن يختار الرسول لهدمها — بصفة خاصة — من قواده أشدهم باساً واصلبهم عوداً فى ذات الله فاختيار خالد يوضح لنا ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لامن الوجهة الحربية فقط ولكن من الوجهة الدينية أيضا

خالد فى بنى جذيمة (١)

لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم بالذى يقعد به الفرح بفتح مكة والفوز على أولئك القوم الذين آذوه وأخرجوه من بلده فيتوانى عن مهمته الشاقة الجليلة مهمة هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور . وكيف يتوانى أو يخلد للراحة وفتح مكة قد أتاح له فرصاً ذات بال لنشر دين الله وهداية عبيده ؛ لأن قريشاً — وهى قدوة العرب والعدو اللدود له وللدين — قد خمد نفسها وأذعنت للاسلام فصار الأمل فى إجابة غيرها من قبائل العرب عظيما .

لم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الفرصة التى أعقبت الفتح تمر من غير أن يغتنمها ويستفيد منها ؛ فأرسل سراياه فيما حول مكة مبشرين وداعين إلى الله .

كان من أولئك الرسل خالد بن الوليد فانه بعد أن هدم العزى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم — وهو مقيم بمكة بعد الفتح — إلى بنى جذيمة

(١) (جذيمة) « بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة بعدها ياء آخر الحروف ساكنة » شرح العينى على البخارى ج ١٧ ص ١١٣ ومثله فى فتح البارى على البخارى ج ٨ ص ٤٢ وهم من كنانة وكانوا بأسفل مكة على ليلة ناحية يلملم ـ طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٦ فتح البارى ج ٨ ص ٤٢ وينتسبون إلى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ـ سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٨٤ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٣ ، فتح البارى شرح البخارى ج ٨ ص ٤٢

فى ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم وغيرهم [١]

سار خالد فى شوال قبل خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزوة حنين [٢] حتى نزل الغميصاء [٣] وانتهى إلى بنى جذيمة فقال لهم : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا فوضعوه فقال لهم استاثروا فاستأثروا ثم أمر بهم فكتفوا وعرضهم على السيف فقتل منهم من قتل .

انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد . ثم دعا على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأعطاه مالا وقال له اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم فجاءهم على فودى الدماء وما أصيب من الأموال حتى إنه ليدى ميلغة الكلب وبقيت معه بقية من المال أعطاها لهم تطيبياً لنفوسهم واحتياطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا يعلمون . وقد استحسن صلى الله عليه وسلم عمل على هذا وصوبه وسر به .

وإذا كانت هذه الحادثة لها أهمية خاصة بالنسبة لخالد إذ قد عيبت عليه

---

(١) الواقدى فى مغازيه ذكر أنه كان مع خالد ٧٠٠ فارس من بنى سليم وليس معه من الأنصار رجل غير أبى قتادة بن أنس ـ ص ٤١٥ وأبو قتادة هذا هو الذى ترك خالدا حينما قتل مالك بن نويرة وذهب إلى المدينة فأبلغ الأمر إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

(٢) هذا البعث كان عقب فتح مكة فى شوال قبل الخروج إلى حنين عند جميع أهل المغازى ـ فتح البارى شرح البخارى ج ٨ ص ٤٢ ، شرح العينى للبخارى ج ١٧ ص ٣١٣

(٣) الغميصاء ماء من مياه بنى جذيمة ـ الطبرى ج ٣ ص ١٢٣

واعتبرت سيئة فى تاريخه المجيد فيحسن بنا أن ندلى برأينا فيها علنا نوفق إلى شىء من الصواب أو ما يقاربه . والفصل فى هذه الحادثة يتطلب أن نعرض أمامنا هذه الأسئلة ونجيب عنها إجابات صريحة وهى : —

١ — هل قاتل خالد قوماً كافرين أو كان بنو جذيمة مسلمين عند قدومه عليهم ؟

٢ — هل كان غير مصيب فى قتلهم ؟

٣ — إذا كان مخطئا فهل قتلهم للتشفى وثارات الجاهلية أو كان متأولا ؟

٤ — إذا كان له عذر فى قتلهم فما هو ذلك العذر ؟

أما عن السؤال الأول فان القوم لو كانوا كفاراً لما كان هناك ما يبرر تلك الضجة التى أثيرت حول قتالهم ولما كان هناك معنى للمشادة التى حصلت بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف واتهامه خالداً بأنه قتلهم ثأراً لعمه الفاكه بن المغيرة [1] ولما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم علياً فودى قتلاهم إذ لو كانوا كفاراً حقيقة لما كان هناك معنى لدفع ديتهم ولكان قتالهم غير محظور ولا يأثم فاعله . وكثير من المؤرخين الموثوق برواياتهم صرحوا باسلامهم ونخص بالذكر من بينهم الواقدى واليعقوبى وابن سعد — لأنهم أقدم المصادر التى بين أيدينا — فيقول الواقدى فى مغازيه : [2]

« ثم مضى خالد بن الوليد إلى حى من كنانة بالأبرق يقال له بنو جذيمة فوجدهم يصلون صلاة الغداة ...... فغشيهم خالد . فقال ما أنتم قالوا نحن مسلمون نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٤ ، الطبرى ج٣ص١٢٣

(٢) ص ٤١٥

عبده ورسوله قال فمتى أسلمتم إن كنتم صادقين قالوا الليلة حين بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كف يده عمن ألقى السلاح وقال لا إله إلا الله فقلناها وصلينا »

ويقول كاتبه ابن سعد فى طبقاته : « فانتهى إليهم خالد فقال ما أنتم قالوا مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذنا فيها » [١]

ويقول اليعقوبى : « فقال لهم خالد ضعوا السلاح فقالوا إنا لا نأخذ السلاح على الله ولا على رسوله ونحن مسلمون فانظر ما بعثك رسول الله له فان كان بعثك مصدقاً فهذه إبلنا وغنمنا فاعد عليها » [٢]

إذن فالقوم مسلمون :

وعن السؤال الثانى نقول : إن ابن سعد [٣] روى لنا أن المهاجرين والأنصار أرسلوا أساراهم وهذا معناه أنهم لم يروا ما يبرر قتلهم ولوكان القتل صواباً للبوا إليه سراعاً ولما أرسلوا أسراهم وعرضوا أنفسهم لمخالفة أميرهم خصوصاً وأن فيهم الكثير من جلة الصحابة وفضلائهم كابن عمر وعبد الرحمن بن عوف .

وما لنا نميل يمنة ويسرة والنبى صلى الله عليه وسلم قد حكم الحكم الذى لا يحتمل النقض ولا الجدل بقوله : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد »

---

(١) ج ٢ ص ١٠٦

(٢) . اليعقوبى ج ٢ ص ٦٣

(٣) ونص عبارته : فأما بنو سليم فقتلوا من كان بأيديهم وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم » ج ٢ ص ١٠٧ ويرشح هذه الرواية ما سنذكره بعد من رواية البخارى عن ابن عمر

فهذا صريح فى أن خالداً فعل ما لا يرضى النبى صلى الله عليه وسلم حتى تبرأ من فعله . وبعبارة أخرى كان خالد غير مصيب فى قتلهم . وقد صرح بذلك فى الاستيعاب حيث يقول : « ... فقتل منهم ناساً لم يكن قتله لهم صواباً فوداهم الرسول صلى الله عليه وسلم ... » (١)

وعن الثالث نقول : إن خالداً لم يقتل بنى جذيمة لمحض التشفى وثارات الجاهلية وإلا لاقتص منه النبى صلى الله عليه وسلم وقاده حتما وبلاهوادة لكنه لم يفعل واكتفى بالتبرؤ من فعله . ولو لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم قد ارتأى أنه متأول لما تساهل فى قتله قصاصاً بله أن يبقيه أميراً ويوليه ثقته ويجعله على مقدمة جيشه حين خرج إلى حنين وما بعدها . وإرسال النبى صلى الله عليه وسلم عليا ليدى القتلى والأموال دليل الخطأ لا العمد والقصد . وهذه أدلة شرعية وعقلية صحيحة فلا يعارضها ما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى حين أرسله : « واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » (٢) الأمر الذى يشعر بأن خالداً قتلهم لما كان بينه وبينهم من ثارات فى الجاهلية لأن هذه الرواية لا ترتفع إلى مستوى الدليل العقلى القاطع إلا إذا تبين صحتها وصدورها من النبى صلى الله عليه وسلم وهو مالم يقم عليه دليل بعد . ورواية البخارى ومعظم أهل الحديث — وهم الذين توافروا وعنوا أشد العناية بنقل ما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم — لم تشر إلى صدور هذا القول منه صلى الله عليه وسلم كما لم يذكرها معظم

---

(١) الاستيعاب جزء ١ ص ١٥٧

(٢) سيرة ابن هشام جزء ٢ ص ٢٨٤ ، الطبرى جزء ٣ ص ١٢٤ ويلاحظ أن هذين المؤرخين قد رويا هذا القول عن راو واحد هو ابن اسحاق

المؤرخين وهذا مما يجعلنا نشك كثيراً فى صحتها وغاية ما تفيده هذه الرواية بعد هذا هو الظن المرجوح والظن وإن كان راجحا لا يعدل الدليل العقلى القاطع بله أن يكون مرجوحاً .

الفصل فى أمر بنى جذيمة

فى ضوء هذه الاجابات يمكن ان نستخلص رأيا فى هذه الحادثة وهو : أن القوم مسلمون وأن خالدا لم يكن مصيباً فى قتلهم . وأن خطأه لم يكن بقصد التشفى والثأر ولكنه متأول وله شىء من العذر .

بقى علينا أن نجيب عن السؤال الرابع لنعرف ما عذره وعلى أى أساس قتلهم ؟

اعتذر بعض المؤرخين عن خالد فيما فعل . ومن ذلك ما ذكره بن هشام والطبرى عن ابن اسحاق [1] من أن خالدا اعتذر عن نفسه بقوله : ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمى وقال : إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الاسلام ، ويظهر لنا أن هذه الرواية لا يعتمد عليها إذ لو كانت صحيحة لما كان هناك وجه للطعن على خالد بل كان اللوم كله على عبد الله بن حذافة ولما ترك الرسول صلى الله عليه وسلم ابن حذافة يفر من العقاب لافترائه الكذب عليه وتسببه فى قتل قوم مسلمين ونحن نجل ابن حذافة أو أى صحابى آخر ليس فى منزلته [2] عن أن يفترى على رسول الله الكذب ويتقول عليه . هذا فضلا عن

---

(١) سيرة ابن هشام جزء ٢ ص ٢٨٤ . الطبرى جزء ٣ ص ١٢٤

(٢) راجع منزلة ابن حذافة فى كتب الطبقات

أنها تصرح بكفرهم وامتناعهم عن الاسلام وقد أثبتنا فيما سبق إسلامهم عن طريق العقل والنقل

ولعل أصرح رواية واصحها فى الاعتذار عن خالد هى رواية البخارى عن ابن عمر إذ يقول : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالدَ بن الوليد إلى بنى جذيمة فدعاهم إلى الاسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا [١] فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل منا أسيره فقلت والله لاأقتل أسيرى ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره حتى قدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم فذكرناه فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال : اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد مرتين » [٢]

وقد علق شراح الحديث على ذلك بما يوضح عذر خالد فيقول البدر العينى. [٣] « صبأنا من صبأ إذا خرج من دين الى دين وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم صبأ فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الاسلام حقيقة وأما خالد فانه لم يكتف بذلك حتى يصرحوا بالاسلام. وقال الخطابى : يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الاسلام لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولا وإنما نقم رسول الله صلى الله عليه وسلم على خالد موضع العجلة وترك التثبت »

وقد اعتذر ابن تيمية فى كتابه منهاج السنة [٤] عن خالد بما يقرب

---

(١) وذكر مثله ابن هشام فى سيرته جزء ٣ ص ٢٨٤ نقلا عن أبى عمرو المدنى

(٢) البخارى بشرح العينى جزء ١٧ ص ٣١٣

(٣) وذكر مثل ذلك فى فتح البارى جزء ٨ ص ٤٢

(٤) جزء ٢ ص ٢٢٩

مما قاله العينى وابن حجر وغيرهما بقوله : « فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا صبأنا صبأنا فلم يقبل ذلك منهم وقال : إن هـذا ليس باسلام فقتلهم . . . . . . ولم يكن خالد معاندا للنبى صلى الله عليه وسلم بل كان مطيعا له ولكن لم يكن فى الفقه والدين بمنزلة غيره فخفى عليه حكم هذه القضية . . . . . . فان خالدا لم يتعمد خيانة النبى صلى الله عليه وسلم ولا لمخالفة أمره ولا قتل من هو مسلم معصوم عنده ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة ابن زيد فى الذى قتله بعد أن قال لا إله الا الله وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذى قال : أنا مسلم »[١]

والعينى وابن تيمية ومن اليهم ممن تعرض لشرح حديث البخارى أئمة يعتد برأيهم فى مثل هذه الحادثة واعتذارهم عن خالد واضح صريح فى أن له بعض العذر وأن مافعله كان خطأ منه ولم يكن تشفيا لثأر ولا تعمدا لقتل مسلم معصوم

وسواء أكان الأمر الذى أهاج خالداً هو عدولهم عن التصريح بالاسلام أم ظنه أن ذلك أنفة منهم فان له نوع من العذر لأن كلا من الأمرين يهيج مثل خالد الشديد فى ذات الله والذى تربى تربية عسكرية من شأنها أن تجعل صاحبها يميل إلى البطش والشدة وهو فوق ذلك يجهل أنه غير مصيب فى قتلهم فمثل ذلك الرجل لا يعرف للحق إلا طريقاً واحداً ولا يرضيه إلا الحق الصراح خصوصاً وأن القوم حين رأوه أخذوا السلاح فكان هذا من دواعى سوء الظن بهم وإن كنا نرى أيضاً

(١) راجع الطبرى جزء ٣ ص ٩٩ ، ١٠٧ ففيه بيان الحادثتين : حادثة أسامة وحادثة السرية

أن تحمسه للدين الذى يترتب عليه مثل هذا الصنيع أكثر مما يجب ولكن شأن الشهم الشجاع ألا يداهن فاما صبح أبلج وإما ضرب الرقاب

وصفوة البحث أن خالدا أخطأ متأولا لا عن قصد وتعمد . وليس أدل على أن ما فعله ليس إلا عن اجتهاد وتأويل من أنه ما زال حائزا ثقة النبى صلى الله عليه وسلم متمتعا برضاه : ولذا فانا نراه عقب هذه السرية على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى : —

غزوة هوازن[1]

فقد سار رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال سنة ثمان إلى هوازن بجيش الفتح وانضم إليه من أهل مكة قراب ألفين حباً فى الغنيمة أو للعصبية القرشية وذلك عند ما بلغه أنها قد أجمعت على حربه وأنها خرجت بحدها وجدها لقتاله فكان خالد على مقدمة الجيش فى مائة فرس[2] هى خيل بنى سليم — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قدم سليما من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد فلم يزل على مقدمته حتى ورد الجعرانة[3] — وانتهى النبى صلى الله عليه وسلم إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال[4].

(١) هوازن قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إلى هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن اليأس بن مضر ـ العينى على البخارى جزء ١٧ ص ٢٩٦

(٢) السيرة الحلبية جزء ٣ ص ١٦٣ ، ١٦٥

(٣) الجعرانة ماء بين الطائف ومكة وإلى مكة أقرب ـ معجم البلدان جزء ٣ ص ١٠٩

(٤) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٠٨

وبينما جيش المسلمين ينساب فى وادى حنين (١) فى عماية الصبح معتزاً بقوته ومغتراً بكثرته إذ استقبلتهم هوازن وساوروهم ورشقوهم بالنبل وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد وطلع عليهم كمينها فارتبك المسلمون وزلزلوا زلزالا شديداً وكانوا كما قال الله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » وانكشفت خيل بنى سليم (٢) وتبعهم أهل مكة والناس فهامت إبل المسلمين لا تلوى على شىء ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم إلا نفر يسير من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ثم فاءت إليه فئة واجتلدوا لعدوهم وأخلصوا لله فى قتالهم وتراموا على الموت دفاعا عن نبيهم ودينهم « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » وحقت الهزيمة على هوازن .

بعد هذا نريد أن نعرف هل كان خالد من المدبرين الفارين أو أنه كان من النفر القلائل الذين بقوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ؟ وإذا كان من الفارين فهل رجع مسرعا وكان له أثر فى المعركة أو مضى فى هزيمته ولم يرجع إلا وأسرى هوازن تحت سيوف المسلمين ؟

لم نر فى كتب التاريخ التى اطلعنا عليها مايثبت أن خالدا كان من النفر الذين بقوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ولم يفارقوه . ومن الطبعى أن ينهزم من فى مثل موقفه مع المنهزمين إذ أنه أمير على خيل بنى سليم وهى مقدمة

---

(١) وادى حنين بين مكة والطائف وبينه وبين مكة ثلاث ليال أو مقدار بضعة عشر ميلا بجنب ذى المجاز — العينى على البخارى ج ١٧ ص ٢٩٤ ومعجم البلدان جزء ٣ ص ٣٥٤ ، طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٠٨ ، الطبرى ج٣ ص ١٢٥

(٢) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٠٩

الجيش وهى التى انهزمت أولا فتبعها الناس ولا تثريب عليه فى ذلك فمثل هذا الانهزام قد يساق فيه بعض الشجعان البواسل سوقا ولكنهم لايتمون على هزيمتهم متى أمكنتهم فرصة وهو مانراه فى مثل موقف خالد وكثير من أجلاء الصحابة ؛ فكان الواحد منهم حينما يسمع النداء [1] ولا يمكنه أن يوجه بعيره نحو الصوت — لشدة الزحام من الهزيمة — يتقلد سيفه وينزل عن بعيره فيؤم الصوت . والثابت أن خالدا لم يمض فى هزيمته بل رجع من قريب وكان فى الموقعة حين حمى وطيسها وكأنه أراد أن يتدارك مافاته حين أكره على أن ينساق مع بنى سليم فى هزيمتهم فأبلى البلاء الحسن ولم ينج من سيفه حتى النساء فقد قتل فيمن قتل امرأة فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم من ينهاه عن قتل النساء والأطفال ومازال يجول فى المعركة ويطعن فى نحر عدوه حتى أثبتته الجراحات البليغة التى كانت داعية لعطف النبى صلى الله عليه وسلم وسؤاله عن رحله لعيادته [2]

خالد فى غزوة الطائف [3]

لم تمنع خالدا جراحاته من أن يكون على مقدمة الجيش عندما سار النبى صلى الله عليه وسلم للطائف لحرب ثقيف وفل هوازن .

---

(١) « .... فلما رأى (يعنى الرسول ﷺ) الناس لايلوون على شىء قال ياعباس اصرخ : يامعشر الأنصار ...... فيذهب الرجل منهم يريد ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ .... » الطبرى جزء ٣ ص ١٢٨

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦١

(٣) الطائف بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا ذات مزارع ونخل وأعناب وفيها =

سار خالد على مقدمة الجيش فى مائة فارس [١] من بنى سليم — وهم الذين خرج بهم من مكة — حتى عسكر قريباً من حصنهم وحاصرهم المسلمون ثمانية عشر يوماً كان خالد ينادى فى أثنائها هل من مبارز فلا يجيبه أحد وأخيراً ناداه عبد ياليل عظيم ثقيف قائلا : « لا ينزل إليك منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين ... » [٢]

أذن النبى صلى الله عليه وسلم بالرحيل راجعاً إلى الجعرانة حيث غنائم هوازن وعندما انتهى من قسمتها قال رجل من المنافقين [٣] : « ما أريد بهذه القسمة وجه الله » فقال عمر : ألا نقتله . وقال خالد ألا أضرب عنقه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا ، لعله يصلى » .

واستئذان خالد فى أن يضرب عنق هذا المنافق وإن بدا أمراً صغيرا لكنه يصور لنا مقدار حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحدبه عليه وتفانيه فى إجلاله وإعظامه ، كما يكشف عن شدته فى دينه وعدم هوادته

= الأودية والمياه الجارية . طيبة الهواء وهى من أحسن المصايف وهى مصيف مكة قال الشاعر :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

ياقوت ج ١ ص ١١

وقال العينى فى شرحه للبخارى : الطائف بلد كبير مشهور كثير الأعناب والنخيل على ثلاثة مراحل أو اثنتين من مكة من جهة المشرق — ج ١٧ ص ٣٠٢

(١) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦٣

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦٥

(٣) قيل اسمه معتب ، وقيل هو ذو الخويصرة التميمى — السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٧٢،١٧١

لكل من تحدثه نفسه أو يبدو منه ميل أو انحراف عن الجادة [١] وليس جزاء من يصم النبي صلى الله عليه وسلم بقبيح أو يشك فى عدله ونزاهته إلا أن يضرب عنقه.

إرسال خالد إلى بنى المصطلق [٢]

بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق مصدقا فى أوائل السنة التاسعة بعد إسلامهم بعامين [٣] ولما بلغهم بعثه إليهم خرجوا للقائه كرامة لقدومه فهابهم وتوهم أنهم خرجوا لقتاله - وكان بينهم وبينه شحناء فى الجاهلية - فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الاسلام [٤]

بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل وأن يرمقهم عند الصلاة فان كانوا قد تركوها فشانه بهم، فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما جاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالاسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر [٥] فنزل قوله تعالى : «يا أيها

---

(١) فى البخارى حادثة تشبه هذه عند ما أرسل على كرم الله وجهه مالا من اليمن فقال رجل ما قال فقام إليه خالد مستأذنا فى قتله - البخارى بشرح العينى ج ١٨ ص ٧

(٢) بنو المصطلق بطن من خزاعة وهم بنو جذيمة، وجذيمة هو المصطلق من الصلق وهو رفع الصوت - السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٤

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧١

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧١، ٤٨٨ تفسير الطبرى ج ٢٦ ص ٧٩، تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١١ - ١٢ تفسير البغوى ج ٨ ص ١٠ طبع المنار

(٥) الأغانى ج ٥ ص ١٤١ طبع دار الكتب

الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين ...... » « فكان نبى الله يقول : التبين من الله والعجلة من الشيطان » (١) .

وهذه الحادثة يتصل بها أمور ، منها : —

١ — ان المؤرخين وكذا المفسرين عند قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ . . . . . . » اختلفوا فيما بينهم فيما كان بعد أن رجع الوليد بن عقبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بأنهم ارتدوا وهموا بقتله فنهم من قال : إنه عقب رجوع الوليد هم النبى صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، وأكثر المسلمون ذكر غزوهم وفيما هم كذلك قدم وفدهم فأخبر أنهم خرجوا ليكرموا الوليد فقبل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك منهم (٢) .

ومنهم من قال : ان النبى صلى الله عليه وسلم أرسل خالدا وأوصاه وكان منه ماينا آنفا . وهذا القول هو ما نميل إليه ونرجحه .

ا — لأن الذى تلوح به الآية الكريمة وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة... » ينطبق على القول الثانى من إرسال خالد ووصية النبى صلى الله عليه وسلم له بأن يتثبت ويتبين وليس فيها ما يشير إلى القول الأول من الهم بقتالهم والاكثار من ذكر غزوهم ومن المحقق أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن عقبة بن أبى معيط . قال ابن برهان الدين : « قال ابن عبد البر رحمه

(١) تفسير الطبرى ج ٢٦ ص ٧٩

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧١ ، تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١١ -١٢ طبع المنار تفسير البغوى ج ٨ ص ١٠

الله : لاخلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله : إن جاءكم فاسق بنبأ نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق لأخذ صدقاتهم » [١]

ب – ولأن كثيرا من رواة الأدب الموثوق بهم كصاحب الأغانى [٢] لم يتعرض للقول الأول واكتفى بايراد القول الثانى وما كان من إرسال خالد وتحريه لمعرفة الحقيقة فى أمر هؤلاء القوم.

٢ – إن اختيار خالد للمسير الى هؤلاء القوم ووصيته بالتثبت لا يخلو من حكمة فان موقف النبى صلى الله عليه وسلم بازاء هؤلاء القوم بعد الذى بلغه عنهم يتطلب أن يكون من يرسله إليهم حازما مفكرا بعيد النظر واسع الحيلة يستطيع الكشف عن حقيقة القوم وأن يكون قائدا ماهرا إذا احتاج الأمر للقتال. وخالد خير من تتوفر فيه هذه الأمور ووصية النبى صلى الله عليه وسلم له بأن يتثبت ولا يعجل هو ما يقتضيه الحزم ولو ثبت أن الآية الكريمة نزلت قبل مسير خالد لكانت هذه الوصية أيضا امتثالا لأمر الله تعالى ولا يبعد أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم خشى أن يتعجل خالد فى أمرهم وأن يأخذهم بالظنة خصوصا وهم من بنى جذيمة ، وله معهم سابقة فكان الحزم تلك الوصية.

---

(١) الأغانى ج ٥ ص ١٤١ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧١ ، تفسير ابن كثير وتفسير البغوى فى الصفحات السابقة

(٢) الأغانى ج ٥ ص ١٤١

سرية خالد إلى دومة الجندل [١]

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم الروم فى رجب من السنة التاسعة وفى أثناء مقامه بتبوك أرسل خالدا فى أربعمائة وعشرين فارسا [٢] إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل - وهو نصرانى من كندة - فوجده يصيد البقر [٣] كما أخبره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن بقر الوحش [٤] ذعر فى الوادى الذى كان فيه حينما أخذت سرية خالد وجهها إلى دومة ، فأخذ البقر فى طريقه وانتهى إلى دومة فبات يحتك بحائط بيت أكيدر فقالت له زوجه أمامة : هل رأيت مثل هذا قط ؟ فقال لا ، فقالت : من يترك هذا ؟ قال لا أحد ، وكانت ليلة صائفة مقمرة فركب فى نفر من أهله فيهم أخوه حسان ، خرجوا معه بمطاردهم « فشدت عليه خيل خالد فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهما فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر حتى يأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يفتح له دومة الجندل ففعل وصالحه على ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح فعزل للنبى صلى الله عليه وسلم صفياً خالصا ثم قسم الغنيمة فأخرج

---

(١) حصن قرب جبلى طىء على سبعة مراحل من دمشق بينها وبين المدينة - معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٧ أو كما قال ابن سعد فى طبقاته « بينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة » ج ٢ ص ١١٩

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١١٩ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٨٦

(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٤٦ ، « « « « « «

(٤) تاريخ الاسلام لأستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٣٥٠

الخمس وكان للنبي صلى الله عليه وسلم ثم قسم مابقى بين أصحابه فصار لكل رجل منهم خمس فرائض ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد — وكان فى الحصن — وبما صالحه عليه قافلا الى المدينة فقدم بأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى له هدية فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم اخيه وخلى سبيلهما وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذ بظفره [1]

كان على أكيدر قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد وبعث به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدومه عليه فجعل المسلمون يلمسونه ويتعجبون منه

ارسال خالد الى نجران [2]

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر وقيل فى جمادى الأولى من سنة عشر [3] إلى بنى الحارث بن كعب بنجران فى أربعمائة من المسلمين، وأمره أن يدعوهم إلى الاسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا فان استجابوا فاقبل منهم وأقم فيهم وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الاسلام فان لم يفعلوا فقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون الناس الى الاسلام ويقولون:

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١١٩ - ١٢١، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٨٦، ٢٨٧

(٢) بالفتح ثم بالسكون وآخره نون — معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٨

(٣) اقتصر ابن الأثير على الرواية الأولى ولعلها أشهر وأصح

يا أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه فاقام خالد فيهم يعلمهم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه [١] ثم كتب خالد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً باسلامهم [٢] فكتب إليه يستقدمه مع وفد منهم فقدم ومعه وفد بلحارث

ومما يحسن ذكره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوفد بلحارث: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ فقالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم» [٣]

هذا وقد اطلعنا فى الطبرى على رواية تنص على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالدا إلى اليمن داعيا للاسلام فذهب وأقام هناك ستة أشهر فلم يجبه أحد ثم أرسل عليا فما أن وصل حتى أجابه الناس ودخلوا فى دين الله أفواجا [٤]

ونلاحظ على هذه الرواية أمورا منها: —

١ — إن الطبرى ذكرها فى حوادث سنة عشر وذكر أن إرسال على كان فى رمضان من تلك السنة بعد أن مضى على خالد فى اليمن ستة أشهر ولم يجبه أحد؛ فيكون إرسال خالد على هذا فى ربيع الأول أو فى ربيع الآخر مع أننا سبق أن ذكرنا أن خالدا أرسل فى هذا الوقت نفسه إلى بنى الحرث بنجران. وبعث خالد هذا متفق عليه من المؤرخين؛

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٧، الطبرى ج ٣ ص ١٥٦

(٢) ونص الكتابين موجود بكتب التاريخ المطولة. يراجع سيرة ابن هشام ج٢ ص ٣٤٧ الطبرى ج ٣ ص ١٥٦

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٧، الطبرى ج ٣ ص ١٥٩

(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٥٩

فان كان إرساله إلى نجران هو ما تشير إليه هذه الرواية فقد ظهر ضعفها ؛ لأننا سبق أن قررنا أن أهل نجران أسلموا على يد خالد وذهب وفد منهم معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وإن كان إرساله إلى نجران حادثة تغاير ماتشير إليه هذه الرواية فقد ظهر ضعفها أيضا : إذ لا يقبل عقلا أن يذهب شخص واحد فى وقت واحد إلى جهتين مختلفتين فيسلم على يديه إحدى الجهتين ويفد على رأس وفدهم إلى المدينة فى الوقت الذى يقيم فيه فى الجهة الأخرى ستة أشهر فلا يجيبه أحد

٢ — إن هذه الرواية لم يرشحها الطبرى — على خلاف عادته — برواية أخرى بمعناها حتى تطمئن النفس إليها كما أنه لم يروها عمن اعتاد الاكثار من الرواية عنهم كابن اسحق وسيف ·

٣ — لم نجد فى كتب التاريخ التى اطلعنا عليها مايثبت صحة هذا البعث بل الذى رأيناه فى بعضها يثبت بطلان هذه الرواية: فقد ذكر ابن هشام[1] مانصه : — « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب إلى اليمن ، وبعث خالد بن الوليد فى جند آخر وقال : إن التقيتما فالأمير على بن أبى طالب » وذكر مثله فى السيرة الحلبية · وهذا يفيد أنهما ذهبا معاً أو فى وقتين متقاربين لا أن خالداً ذهب فمكث ستة أشهر فلم يجبه أحد فذهب بدلا منه على كرم الله وجهه فأسرع الناس إلى إجابته

من هذا يتبين عدم صحة هذه الرواية عقلا ونقلا ؛ ولذا فانا لانتحرج من الجزم بعدم التعويل عليها؛ ومن ثم فقد أغفلنا ذكرها كعمل من أعمال خالد

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٥ ، وراجع أيضا الطبرى ج ٣ ص ١٦٧

هذا والناظر إلى تلك الأعمال الجليلة التى عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى خالد القيام بها يتبين له أنه منذ أسلم كان موضع ثقة الرسول يوليه أعنة الخيل ويجعله على مقدمة الجيش ؛ وكان كما قال عن نفسه : « لم يعدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم، منذ أسلمت أحداً من أصحابه فيما حز به » ؛ فكانت المدة التى قضاها فى الصحبة بين مجاهد بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو أمير على سرية يكافح أعداء الاسلام وينشر دين الله ، ولم نره منذ أسلم تخلف عن خرجة أو غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكان مرافقاً له فى كل أسفاره حريصاً على رضاه

ولقد كان له بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الأثر الجليل والذكر الخالد فى نصرة دين الله وإعلاء كلمته

الباب الثالث

أعمال خالد وفتوحه

فى زمن أبى بكر رضى الله عنه

أثره فى حروب الردة

(١) طليحة الاسدى (٢) مالك بن نويرة (٣) مسيلمة الكذاب

تمهيد

قبل الكلام على حرب خالد للمرتدين يحسن بنا أن نلم إلمامة خفيفة بحالة العرب حين وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم

كان الكثير من سكان الجزيرة العربية من أهل البادية والأعراب الرحل الذين لم يتعودوا الخضوع لقانون أو نظام ، جفاة لم يهذبهم دين ولم ترق بهم مبادىء اجتماعية ، واسس مدنية . حديثو عهد بكفر . والنفس بطبيعتها تنزع الى قديمها ، وتحن إلى مألوفها ، وتود الرجوع إلى خيمها . والاسلام قد ألزمهم بتكاليف خاصة ، وأخذهم باتباع قوانين لا يلائم الكثير منها طباعهم ، وما نشأوا عليه / لمنعهم من الأخذ بالثأر ، وجلدهم على الزنا — وهم فوق ذلك ليست لهم صحبة طويلة بالنبى صلى الله عليه وسلم أو لاصحبة لهم أصلا ؛ فتتهذب نفوسهم ، وتسمو طباعهم وتصفو من عقائد الشرك ولم يتدبروا الاسلام ويفهموه فتشرب نفوسهم حبه ،

وكثير منهم أسلم طوعاً لرؤسائهم لا حباً فى الدين، ومعرفة به. حتى لقد أدى بهم جهلهم بالدين أنهم فهموا أن دفع الزكاة ما هو إلا نوع من الأتاوة يلزمون بدفعه، ولم يفقهوا أنها صدقة تؤخذ من ذوى اليسار منهم لترد على أهل الحاجة فيهم، وأنها مبدأ تعاونى، ومن أهم المبادىء التى ترقى المدنية وتأخذ بيد المجتمع

فما أن سمعوا بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم حتى ظنوها فرصة للتخلص من ذلك الدين. وتلك التكاليف؛ فأصبحوا بين مانع للزكاة، وتارك للدين أو متبع لأفراد متنبئين — رجاء أن يكون لهم مالنبى قريش — وأعلنوا تمردهم على الدين القويم وعصيانهم لأوامره؛ فاضطربت جزيرة العرب واختلط الحابل بالنابل، وكفرت الأرض وتصرمت «ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقلتهم، وكثرة عدوهم»[1] وبالجملة فان جزيرة العرب أصبحت كالبركان الثائر: هياج واضطراب، وردة وإلحاد، وزيغ عن الدين القويم، والصراط المستقيم. ولم ينج من هذه الفتنة الحالكة إلا أهل مكة والمدينة والطائف، وقليل غيرهم من أهل البادية والأعراب.

تلك هى حال العرب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى حال تتطلب لتهدئتها وتسكينها إرادة صارمة، وعزيمة ماضية، وثقة بنصر الله، وتأييده لأهل دينه.

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢١٢

كانت هذه الصفات مكتملة تتوفر فى الخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر رضى الله تعالى عنه ؛ فقد برهن بموقفه إزاء المرتدين كما برهن عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم — وقد ذهل جميع الصحابة ونفى بعض فضلائهم « كعمر رضى الله عنه [1] » أن يكون محمد قد مات — أنه رجل الساعة ، وأنه جدير بالاضطلاع بأعباء الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل الوقت الذى تولاها فيه .

لم تكن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا وقعها الأليم على نفسه وعلى المسلمين ولا ما يرد كل يوم من أخبار العرب وارتدادهم بمانع أبا بكر من تنفيذ الخطة التى رسمها ولا موهن لعزيمته ، أو مضعف من ثقته بنصر الله . فبين هذه الفتن والأنباء المخذلة قام بانفاذ جيش أسامة — وكان قد توقف عن السفر حين مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم — رغم معارضة بعض كبار الصحابة فى تسييره أو على الأقل استبدال آخر بأسامة أسن منه إن كان لابد من سيره . ولقد تبين بعد أن ذلك من توفيق الله لأبى بكر ؛ فقد وهنت نفوس العرب ، وكفوا عن كثير مما اعتزموا عليه

لم يفت أبو بكر أن يكون بعض المرتدين أراد غزو المدينة ، أو قصدها بسوء ، فأخذ الحيطة لنفسه وحذر ، فجعل كل ما فيها من رجال على استعداد للطوارئ ، ولقد كان لهذا الاستعداد أثر محمود ، فقد تمكن من عبس وذبيان وغيرهما ممن أراد المدينة بسوء ، وحين رجع جيش أسامة واستراح قليلا عقد الألوية ، وسير الجيوش لأخضاع العرب وإرجاعهم إلى الجادة

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ — ١٩٩

عقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً ، وعين لكل قائد الجهة التى يقصدها ، والقوم الذين يلى قتالهم ، وكتب لهم عهدا صورته واحدة ، وفصلت الأمراء بجيوشها من ذى القصة [١] بعد أن كتب للمرتدين كتاباً [٢] واحداً « منشورا [٣] » أرسله إليهم ليكون نذيراً لهم بين يدى جيوشه ، وليكون أعذر إليهم قبل الايقاع بهم

وفيما يلى أسماء الأمراء والجهات التى قصدوها : —

١ — خالد بن الوليد : وجهه لقتال طليحة بين خويلد الأسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح

٢ — عكرمة بن أبى جهل : وجهه إلى مسيلمة الكذاب

٣ — شرحبيل بن حسنة : وجهه فى إثر عكرمة فاذا فرغا من أمر مسيلمة قصد قضاعة

٤ — المهاجر بن أبى أمية : وجهه إلى الأسود العنسى بصنعاء

٥ — حذيفة بن محصن : وجهه إلى دبا بعمان

٦ — عرفجة بن هرثمة : وجهه إلى أهل مهرة وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فيما وجه اليه

٧ — سويد بن مقرن : وجهه إلى أهل تهامة اليمن

٨ — العلاء بن الحضرمى : وجهه الى أهل البحرين

---

(١) منزل من المدينة على بريد من نحو نجد — الطبرى ج ٣ ص ٢٢٥ ، ٢٢٨

(٢) العهد والكتاب موجودان بنصهما فى كتب التاريخ المبسوطة - راجع الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٣) كان هذا المنشور أول منشور عام يقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم — تاريخ الخلفاء لأستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٤٤

٩ — طريفة بن حاجر : وجهه إلى بنى سليم ومن انضم اليهم من هوازن .

١٠ — عمرو بن العاص : وجهه إلى قضاعة

١١ — خالد بن سعيد : وجهه إلى مشارف الشام

وبالنظر فى هذا الثبت يتبين أن أبا بكر لم يول أحد أولئك القواد أكثر من ناحية واحدة وربما أشرك اثنين فى ناحية ، ما عدا خالد بن الوليد فقد ولاه أمر طليحة ومالك بن نويرة ثم مسيلمة بعد انهزام من وجه اليه من القواد ، مما يدل على عظيم ثقته فيه ، واعتماده عليه ، وأنه حقا سيف الله ، وفاقىء عين الردة

ولسنا فى معرض بيان أعمال أولئك القواد حماة الاسلام ، ونكايتهم فيمن وجهوا اليهم فلذلك موضع آخر ولذا فانا سنقصر القول على خالد ومن وجه اليهم بياناً لجهده فيهم وبلائه فى قتالهم ، وأولهم : —

طليحة(١)

هو طليحة بن خويلد الأسدى تنبأ فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع حين علم بمرضه طمعاً فى أن يكون له ما لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

وجه النبى صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور إلى بنى أسد وأمرهم بالقيام على من ارتد فأشجوا طليحة وأخافوه وضعف أمره حتى لم يبق إلا أخذه سلماً إلا أن ضراراً ضربه بالسيف فنبا عنه فشاع بين الناس أن السلاح لا يحيك فيه ؛ فتزايد جمعه ، وكثر أتباعه ، وفيما هم على ذلك نعى

(١) من بنى أسد بن خزيمة

النبى صلى الله عليه وسلم فعظم أمره وتفاقم، وسجع الأكاذيب، وادعى أن جبريل يأتيه، وأمرهم أن يعبدوا الله قياماً، وأن يتركوا السجود فى الصلاة، وظاهره كثير من العرب للعصبية؛ ولذا فانا نجد أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطىء وعبس وذبيان ومن لف لفهم. ومن هذه القبائل من هو فى حلف مع قبيلة أخرى أو يجمعها بسواها أب واحد [1]

أمر أبو بكر خالداً «أن يبدأ بطىء على الأكناف [2] ثم يكون وجهه إلى البزاخة [3] ثم يثلث بالبطاح ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يحدث إليه، ويأمره بذلك وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف» [4] وقد أوعب الناس مع خالد ولكنه فعل ذلك مكيدة وإرهاباً للعدو، فقعد ذلك طيئاً وبطأهم عن طليحة [5]

وكان أبو بكر قد بعث عدى بن حاتم إلى قومه قبل توجيه خالداً إليهم وقال له: «أدركهم لا يؤكلوا» [6] ويجتاحهم خالد بمن معه، فأسرع عدى إلى قومه (الغوث من طىء) ودعاهم وخوفهم، وصار يفتلهم فى الذروة والغارب حتى أجابوه وقالوا له: استقبل خالداً فنهنهه عنا ثلاثاً

---

(١) «كان بين بنى أسد وغطفان وطىء حلف فى الجاهلية» ـ الطبرى ج٣ ص ٢٣٠

(٢) الأكناف جبلا طىء: سلمى وأجأ ـ معجم البلدان ج ١ ص ٣١٨

(٣) بزاخة بالضم والخاء المعجمة ماء لبنى أسد ـ ياقوت ج ٣ ص ١٦١، الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٧

(٥) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨

(٦) يظهر أن أبا بكر كان يعرف من خالد الشدة والبطش، ولذا فقد أرسل عديا إلى قومه حتى لا يبطش بهم خالد

حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا، فانا إن خالفنا طليحة وهم فى يده قتلهم أو ارتهنهم»[١] فاستقبل عدى خالداً وهو بالسنح[٢] وقال له: «أمسك عنى ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تجعلهم إلى النار وتشاغل بهم»[٣] وجاء من عند طليحة منهم كالمدد لقومهم، ورجع عدى إلى خالد باسلامهم فارتحل نحو الأنسر يريد جديلة «فقال له عدى إن طيا كالطائر، وإن جديلة أحد جناحى طىء فأجلنى أياماً لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث ففعل فأتاهم عدى فلم يزل بهم حتى بايعوه فجاء باسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد فى أرض طىء وأعظمه عليهم بركة»[٤]

توجه خالد ومن انضم إليه من طىء تلقاء بزاخة، وأرسل عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم الأنصارى طليعة فقتلا حبالا أخا طليحة، فلما بلغه مصرع أخيه خرج ومعه أخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً، ثم رجعا وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلا فلم يفطنوا له حتى وطئته المطى بأخفافها فكبر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فاذا هم بعكاشة بن محصن صريعاً فجزع لذلك المسلمون وقالوا: قتل سيدان من سادات المسلمين

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨

(٢) السنح بضم أوله وسكون ثانيه وآخره حاء مهملة موضع بنجد قرب جبلى طى معجم البلدان ج ٥ ص ١٤٩

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨

وفارسان من فرسانهم ؛ فانصرف خالد نحو طىء [١] — حينما رأى ما بأصحابه من الجزع لمقتل ثابت وعكاشة ـ وهناك تعبى للحرب . ثم إن طيئاً سألت خالداً أن تكفيه قيساً فان بنى أسد حلفاؤهم فقال لهم : اصمدوا إلى أى القبيلتين أحببتم . فقال عدى : والله لا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم ، فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد . لا تخالف رأى أصحابك امض إلى أحد الفريقين وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط [٢]

سار خالد على تعبية يريد طليحة ببزاخة ، وكان عيينة بن حصن الفزارى قد انضم إليه فى سبعمائة من بنى فزارة . ثم التقى الجمعان ودارت رحى الحرب واقتتل الناس قتالا شديداً وطليحة متلفف فى كسائه بفناء بيت له من الشعر يتنبأ لهم ، فلما هزتهم الحرب كر عيينة على طليحة فقال له : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فرجع وقاتل حتى إذا عضته الحرب وضرس القتال كر عليه فقال : لا أبالك أجاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فقال عيينة : حتى متى قد والله بلغ منا . ثم رجع فقاتل قتالا شديداً ثم كر عليه فقال : هل جاءك جبريل بعد . قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال لى : إن لك رحاً كرحاه وحديثاً لا تنساه . فقال عيينة . قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه . يا بنى فزارة هكذا فانصرفوا فهذا والله كذاب فانصرفوا وانهزم الناس ، فغشوا طليحة يقولون ماذا تأمرنا فقام فوثب على فرسه ، وحمل امرأته ونجا بها — وكان قد أعد فرسه عنده وهيأ

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٩ ـ وقولة خالد هذه قولة حكيم خبير بنفوس من معه ، فانه لو ألزمهم بقتال من يتحرجون قتاله لما قاتلوهم بعزيمة وحماس

بعيرا لامرأته النوار - ثم قال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل ، ولحق بالشام وارفض جمعه . ثم أسلم فيما بعد وحسن إسلامه [١] وكان ذا غناء وأثر محمود فى حروب الفرس فى أيام عمر بن الخطاب واستشهد هناك وقد قيل كثير من الشعر فى هذه الموقعة، فمن ذلك قول القعقاع بن عمرو :

ويوما على ماء البزاخة خالدٌ   أثار بها فى هبوة الموت عثيراً

وقول ربيعة بن مقروم الضبى :

وقومى فان أنت كذبتنى   بقولى فاسأل بقومى خبيراً
بنو الحرب يوماً إذا استلأموا   حسبتهم فى الحديد القروما
فدى ببراخة أهلى لهم   إذا ماؤوا بالجموع الحريما [٢]

هذا ولم يصب خالد على البزاخة عيلا واحدا من عيالات بنى اسد لأن عيالاتهم كانت محرزة [٣]

كان بنو عامر بن صعصعة فى سادتهم وقادتهم بالقرب من ساحة القتال لا يقدمون ولا يحجمون فلما دارت الدائرة على طليحة أقبلوا يقولون: ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ، فبايعوا خالدا على ما بايع عليه أهل بزاخة . وكانت بيعته : « عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله ولتقيمن الصلاة ، ولتؤتن الزكاة ، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم . فيقولون نعم » ثم إن خالداً لم يقبل من أحد من أسد ولا غطفان

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٩ — ٢٣٢

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ١٦٢

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٢

ولا من لف لفهم إلا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على أهل الاسلام فى حال ردتهم فأتوه بهم فقبل منهم إلا قرة بن هبيرة ونفراً معه أوثقهم ، ثم إنه مثل بالذين عدوا على الأسلام فأحرقهم ورضخهم ورمى بهم من الجبال . وكتب إلى أبى بكر : إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت فى الاسلام بعد تربص وإنى لم أقبل من أحد قاتلنى أو سالمنى شيئاً حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين ؛ فقتلتهم كل قتلة ، وبعثت إليك بقرة وأصحابه [١]

أوثق خالد عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة فبعث بهما إلى أبى بكر فلما قدما عليه تجاوز عنهما وحقن دماءهما . ثم كتب إلى خالد : « ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً ، واتق الله فى أمرك ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جد فى أمر الله ، ولا تنين ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ، ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحا فاقتله » [٢]

أقام خالد على البزاخة شهراً يصعد ويصوب ويتتبع الثأر ويأخذ الصدقات ، ويدعو الناس ويسكنهم وفيما هو كذلك إذ بلغه تجمع الفلال من جند طليحة على أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة (وهى من بنى فزارة) وقد أمرتهم بقتال المسلمين ، وكثر جمعها وعظم أمرها فسار إليها وقاتلها وفض جمعها . وكانت تقاتل على جمل لأمها فعقره المسلمون حتى

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٣
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٣

يقصر أمد القتال وقتلوها وقتل حول جملها مائة جمل (١)

يحسن بنا بعد أن فاءت بنو أسد ومن تأشب إليهم إلى أمر الله أن تتعرف الأسباب التى ساعدت خالداً على النصر ورجحت كفته . وأهم هذه الأسباب فيما نرى : —

١ — أن خالداً وجيشه يقاتلون عن عقيدة واثقين بنصر الله وتأييده يرددون قوله تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فمن قتل منهم قتل شهيداً ومن سلم عاش سعيداً فى حين أن أعداءهم إنما ينصرون شخصاً للعصبية لا أزيد . وليس هناك ما يحببهم فى الموت أو ينشطهم للترامى على القتال . وشتان بين الحالتين

٢ — تورية أبى بكر ومكيدته من أنه سائر بجيش آخر يلاقى به خالداً لقتال العدو فان وصول هذا الخبر لمسامع العدو ثبط من همته وبطأ بكثير ممن كان يريد الانضمام إليه ، وجعل الروح المعنوية فى جيشه خامدة لا حماسة فيها ، وهذا السبب وحده كاف لخذلان أكبر جيش ، فى حين أن جيش المسلمين يقاتل بحماس وشجاعة وثقة بالفوز

٣ — قتل الرجلين اللذين أرسلهما خالد طليعة للجيش أحفظت قلوب المسلمين وحرضتهم على قتال عدوهم ، وتشفيهم منه . ويتبين ذلك من قول الطبرى الذى ذكرناه آنفاً

٤ — انضمام طىء لجيش المسلمين زاد فى عدتهم بقدر ما أنقص من

---

(١) كانت أم زمل هذه يضرب بها المثل فى عزها وكان يقال : من نخس جملها فله مائة من الابل — انظر الطبرى ج ٣ ص ٢٣٤

عدد عدوهم وكسر نفسه لانحياز من يعتبرهم كجزء منه لصف عدوهم

د ـ تململ عيينة بن حصن من القتال وانصرافه فى بنى فزارة والمعركة فى شدتها حتى أدى ذلك إلى متابعة بقية الجيش لهم فحقت الهزيمة عليهم.

٦ ـ إن طليحة الأسدى نفسه ـ وهو قلب الجيش وروحه ـ كان غير واثق من النصر ، ورجل يقاتل على نية الهرب خليق بالهزيمة بله أن يكون رئيس الجيش (١)

(٢) مالك بن نويرة (٢)

كان بنو تميم قد وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا وأمر على بطونهم أمراء منهم : ومن بينهم الزبرقان بن بدر ، وصفوان بن صفوان وقيس بن عاصم ، ومالك بن نويرة . فلما سمعوا بموت النبى صلى الله عليه وسلم كان منهم من بقى على وفائه بما عاهد عليه الرسول ، فأرسل الصدقة إلى أبى بكر ومنهم من تردد ثم فاء إلى أمر الله ، ومنهم من منع الزكاة حتى قوتل وهو مالك بن نويرة

فرغ خالد من طليحة ومن تابعه فسار يريد مالك بن نويرة بالبطاح (٣) ويظهر أن مالكا كان يتوقع مجىء خالد لقتاله ولذا فانا نراه قد أمر قومه

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٩

(٢) هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع ـ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٤٨ ، خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ١٩ طبع منير ، الاصابة ج ٦ ص ٣٦

(٣) البطاح بالضم منزل لبنى يربوع ـ معجم البلدان ج ٢ ص ٢١٤

بالتفرق ونهاهم عن الاجتماع فلما قدمهم خالد لم يجد أحدا بالبطاح فبث سراياه وأمرهم بداعية الاسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب فان امتنع قتلوه، وذلك طاعة لوصية أبى بكر التى تنص على: أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلا فان أذن القوم فكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وإن اجابوكم إلى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة، فان أقروا فاقبلوا منهم، وإن أبوا فقاتلوهم »[1]

جاءت السرايا بمالك بن نويرة فى نفر من قومه بنى ثعلبة بن يربوع واختلفت السرية التى جاءت به، فقائل إنهم لم يؤذنوا، وقائل شهد بانهم أذنوا وعلى رأس هذه الفئة أبو قتادة الصحابى الجليل. فلما اختلفوا فى امرهم أمر بهم خالد فحبسوا وكانت ليلة شديدة البرد، فأمر خالد مناديا أن دافئوا أسراكم — والمدافأة فى لغة كنانة القتل — فقتلوهم، وهو لم يرد إلا أدفئوهم وسمع خالد الواعية[2] فخرج وقد فرغوا منهم فقال: « إذا أراد الله أمراً أصابه ». وكان الذى قتل مالكا ضرار بن الأزور.

خرج أبو قتادة حتى أتى أبا بكر وأخبره بمقتل مالك فغضب عليه وألزمه الرجوع للقتال تحت لواء أميره[3] فرجع إلى خالد وما زال معه حتى قدم وإياه المدينة. وقال عمر لأبى بكر: « إن فى سيف خالد رهقا » وأكثر عليه فى ذلك وألح فى عزله فقال له: « هيه ياعمر تأول فأخطأ

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) الواعية الصراخ والصوت ـ القاموس المحيط

(٣) وتلك سياسة رشيدة من أبى بكر

فارفع لسانك عن خالد فانى لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين »[١].
وكتب إلى خالد أن يقدم عليه فقدم ودخل المسجد وعليه قباء له عليه أثر الحديد ، وقد غرز فى عمامته أسهما فقام إليه عمر فحطمها وأغلظ له القول[٢] ونال منه وخالد لا يتكلم ظنا منه بأن رأى الخليفة كرأى عمر . ثم دخل على أبى بكر فأخبره الخبر ، واعتذر إليه ، فعذره وقبل منه وعنفه فى التزويج الذى كانت تعيب عليه العرب من ذلك ، وودى مالكا من بيت المال

الفصل فى أمر مالك

بقى علينا أن نعرف : هل راجع مالك الاسلام حين قدم عليه خالد أم كان لا يزال مصراً على ردته ؟ وعلى فرض إسلامه فهل قتله خالد قصداً أو متأولا ؟

وفى الحق أن الفصل فى أمر مالك لمن الدقة والصعوبة بمكان ، لما يعتور هذه الحادثة من اللبس والغموض وتضارب الرأى والاختلاف ، قال ابن سلام : « وحديث مالك مما اختلف فيه فلم نقف منه على مانريد »[٣] على أن ذلك لا يقعد بنا عن إبداء رأينا لعلنا نوفق إلى شىء من الصواب فنقول :

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٢ وشام سيفه يشيمه غمده القاموس المحيط . وكانت سياسة أبى بكر أنه لا يقيد من عماله ووزعته ـ الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٣ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٣

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٤٨

أما عن النقطة الأولى فان مالـكا كان ظاهر العداء للاسلام من بدء الردة حتى قدوم خالد عليه ، ومعاودة أشراف تميم الاسلام صراحة سواه ، وإغارته على إبل الصدقة التى كانت برحرحان [1] وتفريقه ما كان بيده منها ، وإنشاده الشعر الذى يظهر فيه رجوعه عن الاسلام ، وعدم مبالاته بما يجىء به الغد كقوله :

فقلت خذوا أموالـكم غير خائف ولا ناظر فيما يجىء من الغد

بعد أن كلمه الأقرع بن حابس والقعقاع بن معبد الدارمى ونصحاه بالتريث وعدم التسرع بقولهما : إن لهذا الأمر قائما وطالبا فلا تعجل بتفرقة مافى يدك فما كان جوابه إلا أن قال :

أرانى الله بالنعم المندى ببرقة رحرحان وقد أرانى
أإن قرت عيون فاستفيئت غنائم قد يجود بها بنانى
حويت جميعها بالسيف صلتا ولم ترعد يداى ولا جنانى
تمشى يا ابن عوذة فى تميم وصاحبك الأقيرع تلحيانى

الخ ما قال [2] كل ذلك يدل فى بادئ الرأى على عدم إسلامه . ثم ما باله يأمر قومه بالتفرق حين سمع بقدوم خالد ولماذا لم يقدم بين يديه الصدقة حتى فى آخر فرصة ويلاقى بها خالداً كما فعل وكيع بن مالك وسماعه وهما من أشراف تميم — ليدرأ عن نفسه وقومه القتل وليكون أعذر له عند الناس .

---

(١) رحرحان ماء دوين بطن نخل خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٠ طبع منير

(٢) راجع طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٤٨ وما بعدها وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢٠ وما بعدها من طبعة منير

على أن شهادة من شهد باسلامه[1] من المسلمين وفى مقدمتهم أبو قتادة تجعلنا لا نجزم بالرأى السابق لعلمنا بصدق شهادة أبى قتادة ولا موجب لأن يكذب ، وما كان لمثله أن يقدم على مخالفة أميره بل ويتركه فى جهاده ويذهب لشكايته للخليفة من غير أن يكون متثبتا من رأيه جازماً به ولم يتبين بعد خطأ شهادته . كما أنه من البعيد أن يحضر أبو بكر خالدا ـ وهو القائد الأعلى للجيش ـ لأمر مظنون . وما كان لعمر أن ينال من خالد ما نال حتى إنه طلب من أبى بكر أن يقيده بمالك وهو برىء من دمه أو قتله كافراً مهما كان بينهما من عداء شخصى . وقد ودى أبو بكر مالكا من بيت مال المسلمين ورد السبى وهذا يحمل فى طيه أن مالكا قتل مسلماً وأن خالداً لم يكن مصيباً فى سبيهم .

لكن من الجائز أن يكون أمر أبو بكر خالداً بالقدوم خشية أن يكون فى الجيش من يرى رأى أبى قتادة فيخرج على خالد أو يكره القتال تحت لوائه كما أن قدوم أبى قتادة المدينة قد أشاع الخبر بين أهلها بالصيغة التى رواها لهم مما أدى إلى تشدد عمر وطلبه أن يقيد خالداً . فتحت هذه المؤثرات طلب أبو بكر قدوم خالد ليسمع رأيه كما أنا نلاحظ أن عمر لما آلت إليه الخلافة لم يرجم خالداً ولم يقتله ولا نظن بحال أن عمر الشديد فى الحق الذى لا يبالى بغير الله ـ وقد أصبح الأمر بيده يترك خالداً يمشى على الأرض وعليه حد زنا أو مهدر الدم قصاصاً . ثم إن أبا بكر

---

(١) من المحتمل أن يكون الأذان من مالك وتابعيه اتقاء القتل وفرقا من السيف كما آمن فرعون حين شارف الغرق « الآن وقد عصيت قبل وكنت من الكافرين » .

قد ودى مالكا وحده ولم يد أحداً ممن قتل على شاكلته[1] ومن غير مراء حكم من قتل معه لحكمه، ولو كان أبو بكر يرى أن هؤلاء قتلوا مسلمين لوداهم إن لم يقتص من قاتلهم ولعل ودى مالك ورد السبى كان تطيباً لقلب أخيه متمم بن نويرة وقومه وتخفيفاً عنهم من مصيبتهم بقتل عميدهم.

ونحن إزاء هذا الغموض وتطرق الاحتمال إلى كل من طرفى الاثبات والنفى لا يمكننا أن نرسل القول باسلام مالك ولا بقتله مرتدا وكل مايمكن أن نقوله بشىء من التسامح والتساهل هو: إن مالكا راجع الاسلام

وعن النقطة الثانية نقول: إن المؤرخين قد ذكروا فيها عدة روايات منها: ما سبق أن ذكرناه: من أن خالداً قال: دافئوا أسراكم[2] يريد أدفئوهم - وكانت الليلة باردة - ولكن القوم فهموا أنه يريد اقتلوهم فقتلوهم.

ومنها أن عمرو بن العاص قال لخالد: يا أبا سليمان إن رأت عينك مالكا فلا تزايله حتى تقتله[3].

فان صحت الرواية الأولى فلا ذنب على خالد فى قتله لأن الناس فهموا خطأ أنه يريد قتله. ويبدو لنا أن هذه الرواية لا يعتمد عليها والا لاعتذر خالد بذلك عن نفسه، ولما كان هناك معنى لذهاب أبى قتادة لأبى بكر ولما قامت حول خالد كل هذه الضجة.

---

(١) كان عدة من أصيب مع مالك خمسة وأربعين رجلا من بنى بهان - خزانة الأدب ج ٢ ص ٢١ طبع منير

(٢) إكرام الأسارى أمر معروف عن المسلمين حتى إن أحدهم ليؤثر أسيره على نفسه ويتفحه بما عنده، وصنيع المسلمين مع أسارى بدر خير شاهد

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٠ طبع ليدن

والرواية الثانية — على فرض صحتها — لا تصلح مبررا للقتل لأن خالداً لا يتلقى أوامره من عمرو بن العاص وليس فيها ما يشير إلى أن ما قاله عمرو لخالد صادر عن رأى الخليفة

والذى يصلح فى رأينا أن يكون عذراً لخالد هو : —

١ — الأشعار التى قالها مالك مظهراً فيها رجوعه عن الاسلام وعدم مبالاته بالمسلمين وبما يجىء به الغد (١)

٢ — وصية أبى بكر التى سبق ذكرها ؛ فهى تنص على مقاتلة من لم يقر بالزكاة . ومالك قد التوى بالزكاة فقتاله إذن طاعة لأمر الخليفة (٢)

٣ — كتاب أبى بكر لخالد بعد أن فرغ من طليحة الأسدى الذى يقول فيه : « ... ... جد فى أمر الله ولا تنين ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحا فاقتله » (٣)

٤ — إن خالداً لما حاوره وراده سمع مالك بالصلاة والتوى بالزكاة فقال خالد أماعلمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى فقال مالك : قد كان صاحبكم يقول ذلك . قال خالد : أوما تراه لك صاحباً والله لقد هممت أن أضرب عنقك ثم تجاولا فى الكلام فقال له خالد : إنى قاتلك فقال له : أو بذلك أمرك صاحبك قال وهذه بعد تلك . وقد فهم خالد أن ذلك منه إنكار للنبوة . وهذا العذر الأخير ذكرته معظم كتب

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٠

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٣

التاريخ الموثوق بها بل هو مجتمع عليه كما قال ابن سلام في طبقاته [١]

وربما قيل : إن كل واحد من هذه المعاذير لايعدو عن أن يكون شبهة والشبهة لا تجيز القتل فى شرعة الاسلام . فنقول : لو سلمنا أن كل واحد منها شبهة لكنها شبهة قوية - ولا سيما فى مثل موقف مالك المتردد - تجعل لخالد عذراً فى قتله . على أنه إن لم يصلح كل واحد من هذه المعاذير بانفراده مبرراً للقتل عند كثير من الباحثين فانها مجتمعة متضامة مراعا فيها صدورها من رجل مرتد لم يكن عنده من الاخلاص لدينه والوفاء له مايجعله مستمسكا به متفانياً فيه مدافعاً عنه ، بله أن يرتد عنه ويناوئه تصلح عذراً عند كثير منهم إن لم يكن عند عامتهم

هذا وإن أبا بكر قد حكم الحكم الذى نستطيع فى غير ما تحرج أن نجزم بصحته وصوابه حين رد على عمر بقوله : « تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد » [٢] إذ يبعد أن يحكم من غير تثبت واقتناع . وإذا نحن علمنا أنه رضى عنه بل وولاه توا قتال مسيلمة سهل علينا أن نعرف أن خالداً اعتذر لدى الخليفة بعذر مقبول وأنه لم يقتل مالكا عن قصد وعمد . ولو لم يكن لخالد عذر مقبول فلا أقل من أن يعزله عن الامارة إن لم يقتص منه

والنتيجة إذن أن له عذرا وأنه كما قال أبو بكر : تأول فأخطأ

بقيت مسألة أخرى لها اتصال بقتل مالك تلك هى زواج خالد بامرأة

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٣ ، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤٩ ، الاصابة ج ٦ ص ٣٦ المختصر لأبى الفدا ج ١ ص ١٥٨

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢ ، المختصر لأبى الفدا ج ١ ص ١٥٨

مالك بعد أن قتله وقد شنع الناس بها على خالد وإذا نحن جارينا هذا الفريق فى أن هذا الأمر جرم وأنه كبيرة فذلك لأن السيئة إذا بدت من دهماء الناس لا يعبأ بها، ولا يشعر الناس بحدوثها وهى هى تصدر من العظيم فتبدو بارزة ظاهرة كأنها النقطة السوداء فى الثوب الناصع البياض، وهكذا «حسنات الأبرار سيئات المقربين»

وهذه الحادثة يحوطها أيضا شىء من اللبس والغموض؛ فلم يكشف لنا التاريخ شيئا قاطعاً فى أمرها؛ فبينما يذكر بعض المؤرخين أن خالدا اشتراها من الفىء ثم تزوجها يقول لنا البعض الآخر: إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوجها [1]. ولو كنا نجزم بشىء فى أمر مالك لانجلى الموقف وسهل الحكم. وإذا نحن سلكنا مسلك من يقول: إن مالكا قتل كافرا وإن خالدا اشترى زوجته من الفىء لكان أمر زواجه بها لا شىء فيه. والمسألة لا تبدو مقنعة بقناع من الغموض إلا على أساس اسلام مالك ومهما يكن الأمر فلم يكن من الحسن زواجه بها فى وقت القتال لأن ذلك كانت تعيبه العرب؛ ولذا فانا نرى أبا بكر يعنفه على هذا الزواج ثم يأمره بطلاقها لكنا لا نعرف بالضبط متى كان طلاقها ومن المؤكد أنها كانت معه فى واقعة اليمامة وأن بعض جنود مسيلمة تمكنوا فى جولة من دخول فسطاط خالد وبه أم تميم. وهذا يفيدنا أن طلاقها كان بعد هذه الموقعة.

هذا ولا يفوتنا أن نقول: إن بعض المؤرخين يذكر أن امرأة مالك هى السبب فى قتله لجمالها وفرط حسنها فمال إليها خالد ووقعت فى نفسه

(١) المختصر لأبى الفداء ج ١ ص ١٥٧، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٠، الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢

ويستدل بما روى عن مالك من أنه قال لها : لم يقتلني غيرك . وإنا نربأ بخالد — وهو الصحابى الجليل — أو أى صحابى آخر ليس فى منزلته أن يقتل امرأ لأمر دنيوى بل شهوى . ورد خالد على مالك — حين سمع منه مقالته التى قالها لامرأته كاف لدحض هذا القول . إذ قال له : « بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام »[1]

ولعل خالدا — وقد قتل زوجها — رأى أن يجبر كسرها ، وأن يخفف عنها مصيبتها ؛ فتزوجها جبرا لها مما أصابها وتطييبا لخاطرها حتى تستعيض عن زوجها الشاعر الفارس، المطاع بالقائد الماهر العظيم

(٣) مسيلمة الكذاب

كان بنو حنيفة قد وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وفيهم مسيلمة وحين قدموا المدينة خلفوه فى رحالهم يحفظ لهم ظهرهم ، ثم ذهبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا وأعطاهم ما أعطاهم وذكروا له مسيلمة فأعطاه كواحد منهم وقال : « أما انه ليس بشركم مكانا يحفظ ضيعة أصحابه » ولما رجعوا إلى ديارهم ادعى مسيلمة النبوة وقال للوفد : ألم يقل لكم أما إنه ليس بشركم مكانا . ما ذلك إلا لأنه يعلم أنى قد أشركت معه ، وصار يسجع لهم السجاعات وأحل لهم كثيراً من المفاسد كالخمر والزنا ؛ فاتبعته بنو حنيفة ، وظاهرته على أمره . وأرسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يقول له : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك فانى قد

(١) المختصر لأبى الفداء ج ١ ص ١٥٧ ، وراجع الاصابة ج ٦ ص ٣٧

أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون ، فكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (١)

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم استشرى شره وعظم أمره وكان وقود فتنته نهار الرجال بن عنفوه (٢) — الذى كان قد هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ القرآن وفقه فى الدين — وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعثه معلماً لأهل اليمامة ، وليشغب على مسيلمة ، وليشدد من أمر المسلمين ، ولكنه بدلا من أن يقوم بما ندب له أيد مسيلمة فى ادعائه النبوة ، وشهد له بأنه سمع محمداً يقول : « إن مسيلمة قد أشرك معه » ؛ فصدقه أهل اليمامة ، واستجابوا له ؛ فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة . وكان مسيلمة يجله وينتهى عند أمره .

ولما عقد أبو بكر الألوية لحروب الردة عقد لعكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة لقتال مسيلمة وأردفه بشرحبيل بن حسنة وأراد عكرمة أن ينفرد بفخرها فتعجل ولم ينتظر شرحبيل وواقع بنى حنيفة فنكبوه وحين بلغ أبو بكر خبر هزيمته كتب إلى شرحبيل أن يتمهل ريثما يأتيه المدد مع خالد

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٦٧

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٤

ولكنه بادر خالداً بقتال مسيلمة فنكب كسابقه فعنفه خالد ولامه حين قدم عليه [١]

ولما رضى ابو بكر عن خالد وقبل عذره من قتل مالك وجهه إلى اليمامة لقتال مسيلمة وأوعب معه المهاجرون والأنصار وعلى الأنصار ثابت ابن قيس بن شماس وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب وعلى كل قبيلة رجل ؛ فتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح وانتظر البعث الذى ضرب بالمدينة » [٢]

لما قدم البعث على خالد نهض حتى أتى اليمامة ثم أمده أبو بكر بسليط ليكون ردءاً له من أن يأتيه أحد من خلفه . ولما بلغ مسيلمة دنو خالد منه خرج فى أربعين ألف مقاتل فعسكر بعقرباء [٣] ثم التقى الجمعان وعلى مقدمة المسلمين خالد بن الوليد المخزومى وفيها شرحبيل وعلى المجنبتين زيد وأبو حذيفة وجعل مسيلمة على مجنبتيه محكم اليمامة [٤]

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤ - وكان الواجب عليه أن يتعظ بعكرمة وأن ينتظر خالدا إجابة لأمر الخليفة إن لم يكن الواجب الحربى يحتم عليه ذلك ، ولكن إذا أراد الله أمراً أصابه »

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤

(٣) منزل من أرض اليمامة فى طريق النباج قريب من قرقرى وهو من أعمال العرض . . . نزل بها مسيلمة لأنها فى طرف اليمامة ودون الأموال وجعل ريف اليمامة وراء ظهره . . . » ياقوت ج ٦ ص ١٩٤

(٤) ورماه عبد الرحمن بن أبى بكر بسهم فقتله - الطبرى ج ٣ ص ٢٤٨ ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٧

والرجال بن عنفوة ، وهو أول من لقى المسلمين[1]

دارت رحى الحرب واشتد القتال، وصبر الفريقان، وتراموا على الموت ونزل بالناس مالم يروا مثله قط ؛ وغدا النصر لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين ، وأسوسهم للحرب

رأى خالد هذه الحال . وأدرك أن استمرارها فى غير مصلحته وخشى أن ينهزم أخلاط العرب فيوهنوا أهل النجدة من المهاجرين والأنصار ويختل نظام الجيش وتكون الهزيمه ؛ فأداه رأيه وحسن سياسته وممارسته الحروب إلى أن يميز الناس فقال : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين نؤتى » . فلما امتازوا قال بعضهم لبعض : اليوم يستحى من الفرار ، فما رؤى يوم كان أعظم نكاية من ذلك اليوم .

لم يكتف خالد بهذا التدبير الموفق حين رأى أن بنى حنيفة لا يبالون بمن يقتل منهم وعرف أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، فدعاه للمبارزة فأجابه فعرض عليه أموراً مما يشتهيها ؛ فأعرض بوجهه متظاهراً بأنه يستشير شيطانه ، فركبه خالد وصاح فى الناس : دونكم فلا تقيلوهم ، فركبوهم فكانت الهزيمة ، ونادى محكم اليمامة : يابنى حنيفة الحديقه الحديقة فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها

لم يشأ المسلمون أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، وفى بنى حنيفة بقية تصلح للقتال ، ولا سيما أن رأس الفتنة مازال حياً ، فقال البراء بن مالك يامعشر المسلمين ألقونى عليهم فاحتمل حتى أشرف على جدار الحديقة

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٨ وقتله زيد بن الخطاب ـ ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٥ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٩٤

وقاتل على الباب حتى فتحه للمسلمين فدخلوا عليهم حديقتهم، واقتتلوا قتالا شديداً، فقتل مسيلمة [١] وولت بنو حنيفة، وأخذهم المسلمون بسيوفهم من كل جانب، وقتل منهم نحو من أحد وعشرين ألفاً: سبعة آلاف بعقوباء، ومثلها فى الحديقة، وفى الطلب نحو من ذلك [٢]

كان خالد قد أسر مجاعة بن مرارة الحنفى وهو معرس [٣] فى سرية يطلب ثأرا له فى بنى عامر، فقتل أصحابه واستحياه كرهينة لشرفه فى بنى حنيفة إذ رأى أصحابه يجودون بأنفسهم دونه وأدرك من كلامهم أن فى استبقائه مصلحة للمسلمين سواءاً كانت لهم أم عليهم. وحين انتهت الموقعة وأدال الله للمسلمين قال مجاعة لخالد: هلم إلى الصلح على ما ورائى فصالحه على كل شىء إلا الرجال، فقال مجاعة أنطلق فأشاورهم، فلما ذهب إليهم لم يجد فى الحصون إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية، فألبسهم الحديد وأمرهم أن يشرفوا من الحصون حتى يراهم المسلمون فتتم الخدعة. ثم رجع إلى خالد وقال له: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت وقد أشرف لك بعضهم نقضاً على، وهم منى براء

رأى خالد الرجال — فيما يرى — على الحصون عليهم الحديد، فالحصون — فى نظر العين مسودة — وقد نهكت المسلمين الحرب، وطال اللقاء؛ وأحبوا أن يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ما كان كائناً لو

(١) اشترك فى قتله وحشى (مولى جبير بن مطعم وقاتل حمزة عم النبى ﷺ) ورجل من الأنصار — الطبرى ج ٣ ص ٢٤٨، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٧، فتوح البلدان للبلاذرى ص ٩٥، ٩٦

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٥٢،

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٦

كان فيها رجال وقتال، وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون [1] فصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي وبذلك انتهى أمر بنى حنيفة، وكان قتل هذا العدد الكبير من المهاجرين والأنصار وأهل السابقة وحفاظ القرآن مدعاة لأن يجمع أبو بكر رضى الله تعالى عنه القرآن خوفا من الضياع بموت حفاظه.

بعد انتهاء الصلح جاء كتاب من أبى بكر يأمر خالدا بقتل كل محتلم، ولكن القضية كانت قد انتهت بينهم، فوفى لهم خالد بما صالحهم عليه راجعت بنو حنيفة الاسلام، وأرسل خالد وفداً منهم إلى أبى بكر، فلما قدم الوفد عليه قال لهم: ويحكم ماهذا الذى استنزل منكم ما استنزل؟ قالوا يا خليفة رسول الله قد كان الذى بلغك مما أصابنا كان امرأ لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه، ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فذكروا له شيئاً منها فقال: سبحان الله! والله ما خرج هذا من إل ولا فاجر فأين يذهب بكم.

أما وقد انتهى أمر بنى حنيفة بمراجعتها الاسلام، فانه يحسن بنا أن نبحث عن سبب ما كان لمسيلمة من فضل قوة وثبات لم يتح لغيره من المتنبئة حتى كان أكثرهم ثباتاً، وأشدهم مراساً، فمن هذه الأسباب:

١ — شهادة نهار الرجال بانه سمع محمدا يقول: إن مسيلمة قد أشرك معه مما جعل أهل اليمامة يصدقونه ويستجيبون له، فكان منهم من يقاتل على زعم أنه تحت لواء نبى

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٥٢

٢ — كانوا يقاتلون عن بلادهم وأحسابهم يعلم ذلك من قول شرحبيل بن مسيلمة الكذاب : « اليوم يوم الغيرة ! قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

٣ — القوم يقاتلون عن بلاد هم أهلها ، وأعلم بشعابها ، واخبر بارضها .

٤ — ازدادوا نشاطاً بعد أن نكبوا عكرمة ، وازدادوا قوة على قوة حينما خذلوا جيش شرحبيل ، فأصبحت لهم بذلك جرأة وضراوة على جيوش المسلمين وسرت فيهم روح لم توجد فى غيرهم من جنود المتنبئين مما أدى إلى أن يقفوا فى وجه خالد — وهو ماهو — وكادوا أن يهزموه لولا لطف الله بالمسلمين

وإذا كان مسيلمة قد نكب جيشين من جيوش المسلمين ، وأصبح لجنده ضراوة على قتالهم ، وغدوا لا يتهيبونهم ، والروح المعنوية فيهم فى أحسن درجاتها ، وهم فى باديتهم ، وأعلم بشعابها وثناياها فضلا عن أن عددهم عظيم يكفى للقضاء على أكبر جيش للمسلمين فى ذلك الوقت ، فما هو السر إذن فى انكساره ؟ أوماهى العوامل التى ساعدت المسلمين على النصر ؟

من هذه العوامل : —

١ — أمر خالد الناس بأن يمتازوا ، ليتبين أهل العزم ، حقا لقد كانت فكرة موفقة ، فقد تبين أهل العزائم ، واستحيا أهل الشرف من الهزيمة

٢ — وقوف خالد بين الصفوف يطلب المبارزة وهو كالأسد الهصور ، لا يخرج إليه أحد إلا صرعه ، فحين رأى المسلمون ذلك تذامروا وترامو على الموت

٣ — لما برز مسيلمة لخالد وعرض عليه خالد بعض الأمور تظاهر مسيلمة باستشارة شيطانه، فلم يترك خالد هذه الفرصة تضيع منه — وهو القائد الماهر ويعلم أن مسيلمة هو قلب الجيش — فركبه وساعفه المسلمون، فانهزم مسيلمة وتابعه جنده، فكانت الهزيمة، وليس فى ذلك ما يعاب على خالد لأن أحدهما لم يأخذ من صاحبه أماناً، فالحالة بينهما خداع ومغالبة

٤ — كان يؤازر خالدا كثير من أهل النجدة والغناء الذين باعوا أنفسهم فى طاعة الله، وطلبوا ماعنده أمثال حذيفة الذى كان يذمر الناس بقوله: « يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال ». وزيد بن الخطاب الذى كان يقول: « غضوا أبصاركم، وعضوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا فى عدوكم وامضوا قدماً »؛ فصادفت مهارة خالد وسياسته الحربية نفوساً دعاها فلبت سراعاً

٥ — كان أبو بكر قد أمد خالداً بسليط ليكون ردءاً له لئلا يؤتى من خلفه؛ فكان المسلمون يقاتلون وهم آمنون على ظهورهم، وجهدهم منصرف لمواجهة عدوهم

٦ — كان بعض من ناصر مسيلمة إنما ناصره للعصبية فقط؛ وهو يعتقد كذبه أو على الأقل يشك فى أمره وإنى أرجح أن جانباً كبيراً من جنده كان يساور نفوسهم الشك فى أمره، والشك فى مثل هذه الأحوال كاف لزلزلة قلوبهم، وفتور عزائمهم

هذا إلى الأسباب العامة التى كانت تتوافر فى كل جيش من جيوش المسلمين بل فى كل فرد من أفرادهم هى التى سهلت لخالد سبل النصر والظفر

أقام خالد بعد أن انتهى من أمر بنى حنيفة بواد من أودية اليمامة يقال له الوبر حتى جاءه أمر أبى بكر بالتوجه إلى العراق لفتح بلاد الفرس

فتوحه فى العراق

(١) الأبلة (٢) المذار (٣) الولجة (٤) اليس وامغيشيا (٥) المقر (٦) الحيرة (٧) الانبار (٨) عين التمر (٩) دومة الجندل (١٠) الحصيد والخنافس (١١) المصيخ (١٢) الثنى والزميل (١٣) الفراض

الأبلة

فى أواخر السنة الحادية عشرة بعد ماهدأت الحال فى معظم الجزيرة ، وقد راجع أغلب العرب المرتدين الاسلام بدأ أفراد من المسلمين يغيرون على أطراف العراق من ناحيتى الحيرة [1] والأبلة فاذا طلبوا أمعنوا فى الصحراء وتوغلوا فيها ؛ فيامنون من الطلب ، وأصبحت لهم بذلك ضراوة وجرأة على الاغارة على أطراف البلاد الخاضعة للفرس [2]

أرسل أحد اولئك وهو المثنى بن حارثة [3] إلى أبى بكر يعلمه ضراوته بفارس ويسأله أن يمده بجيش لغزو الفرس وحين وصل كتابه إلى أبى بكر كان خالد قد فرغ من أمر بنى حنيفة ، ومقيما فى وادى الوبر ؛ فكانت الفرصة سانحة أمام الخليفة لندب فاقئ عين الردة ، ومنكس أعلام

(١) الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة — معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧٦ والأنبار مدينة على الفرات فى غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ — معجم البلدان ج ١ ص ٣٤١

(٢) راجع الطبرى ج ٤ ص ٢ ، الأخبار الطوال ص ١١٧ ، فتوح البلدان ص ٢٥٠

(٣) وقيل إن المثنى قدم المدينة على أبى بكر فولاه على من قبله — راجع الطبرى ج ٤ ص ٣ والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٥٠

الفتنة لفتح السواد ، والبدء فى إزالة امبراطورية الأكاسرة

فى المحرم [١] من اثنتى عشرة أرسل يأمره بغزو فارس ، وأن يبدأ منها بثغر الأبلة ، كما أمر عياض بن غنم أن يغزوها من الشمال وأن يبدا بالمصيخ [٢] وأمرهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ، وألا يستعينا بمرتد ، وأن يسيرا بمن يحب ، ولا يستكرها أحدا ؛ فانفض عنهما كثير ممن معهما فاستمدا أبا بكر فأمد عياضا بعبد غوث الحميرى ، وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو ؛ فقيل له : أتمد رجلا قد ارفض عنه جنوده برجل فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا [٣]

وقبل أن يسير خالد إلى العراق كتب إلى هرمز — صاحب ثغر الأبلة — كتاب إنذار يقول فيه : أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك ؛ فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة [٤]

سار خالد فى عشرة آلاف وانضم إليه المثنى [٥] وأصحابه فى ثمانية

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٦١

(٢) هى بين حوران والقلت — معجم البلدان ج ٨ ص ٧٩

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٤ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٢

(٤) الطبرى ج ٤ صفحة ٥

(٥) قال الطبرى : « فلما قدم الكتاب على خالد بتأمير العراق كتب إلى حرملة وسلمى والمثنى ومذعورا باللحاق به وأمرهم أن يواعدوا جنودهم الأبلة وذلك أن أبا بكر أمر خالدا فى كتابه إذا دخل العراق أن يبدأ بفرج أهل السند والهند وهو يومئذ الأبلة ليوم قدسماه ثم حشر من بينه وبين العراق فحشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه فقدم فى عشرة آلاف على ثمانية آلاف ممن كان مع الأمراء الأربعة يعنى بالأمراء الأربعة المثنى ومذعورا وسلمة وحرملة فلقى هرمز فى ثمانية عشر ألفا اهـ ج ٤ ص ٥

آلاف وحين قارب العدو جعل جيشه ثلاث فرق [1] ولم يحملهم على طريق واحد : فرقة مع المثنى وهى المقدمة، وتلتها فرقة عليها عدى بن حاتم وخرج خالد بعدهما وواعدهما الحفير ليجتمعوا به ، ويصدموا عدوهم

سمع هرمز بمسير خالد فكتب إلى أردشير « ملك الفرس » بالخبر وتعجل فى سرعان أصحابه يريد الكواظم [2] فعلم أن المسلمين تواعدوا الحفير [3] فسبقهم إليه، وجعل على مقدمته الأخوين : قباذ وأنوشجان « وهما من أولاد أردشير الأكبر » وتعبى هرمز وأصحابه ، واقترنوا بالسلاسل لئلا يفروا ولما بلغ خالدا أنهم يمموا الحفير عدل عنها إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها ، ونزل على الماء ، واختار المكان الملائم لجيشه ، وجاء خالد فنزل على غير ماء ؛ فقال له أصحابه فى ذلك فقال : « حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ؛ فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين » [4]

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص٢٦٢

(٢) الكواظم : جو على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب . وقد أكثر الشعراء من مدحها ؛ فمن ذلك :

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة يسعى على قصرات المرخ والعشر

معجم البلدان ج ٧ ص ٢٠٨

(٣) الحفير : ماء لباهلة بينه وبين البصرة أربعة أميال ـ معجم البلدان ج ٣ ص٢٠٤

(٤) بعض الرواة يذكر أن أول بلد قصده خالد : بانقيا وباروسما واليس والبعض يذكر أن خالدا ابتدأ بالأبلة وهو ما اخترناه لأن الأخبار فى ذلك أكثر ولأنه الموافق لكتاب أبى بكر لخالد بالبداءة بثغر الهند . ونصه : « أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهى الأبلة . . . . . . » الطبرى ج ٤ ص ٢ وراجع أيضا صحيفة ٧ من هذا الجزء . وهو مايجب أن يكون من الوجهة الحربية حتى لايتركوا وراءهم =

لاقى المسلمون أعداءهم ، وخرج هرمز فدعا خالداً للمبارزة واتفق مع أصحابه على الغدر به ، فبرز إليه خالد وتضاربا ؛ فاحتضنه خالد ولم يشغله حمل أصحاب هرمز عليه عن قتله ، وخف القعقاع بن عمرو التميمى فحمل عليهم فى جماعة من المسلمين : فأزاحوهم ، وشدوا عليهم فهزموهم ؛ ومنح الله المسلمين أكتافهم إلى الليل

نادى خالد بالرحيل ، وسار بالناس واتبعته الأثقال حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة (والبصرة لم تبن إذ ذاك) فبعث المثنى بن حارثة فى آثار القوم ، وبعث معقل بن مقرن المزنى إلى الأبلة فجمع الأموال والسبايا

أرسل خالد إلى أبى بكر بالفتح والخمس ، ونفله أبو بكر قلنسوة هرمز وهى مفصصة بالجوهر وقيمتها مائة الف لأنه قد تم شرفه(١)

المذار « الثنى »(٢)

١ وصل كتاب هرمز إلى أردشير بخبر خالد ، فأمده بقارن بن

= عورة وقد أوصاه أبو بكر بذلك حين ندبه هو وعياض بن غنم لفتح العراق بقوله : « إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس ، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم .... » ولو ابتدأ خالد بيانقيا لخلف هرمز خلفه وقد أطبق المؤرخون على أنه مضرب المثل فى الخبث وشر جار للعرب ، ولرأينا له أثرا فى إعمال السيف فى ظهور المسلمين وربما كانت شبهة القائلين بالرأى الأول هى أن الأبلة فتحت زمن عمر على يد عتبة بن غزوان ولكن تلك الشبهة يمكن حملها على أنها فتحت فى زمن عمر رضى الله عنه الفتح الدائم ويؤيد رأينا أيضا البلاذرى ، يراجع ص ٢٥٠ وما بعدها

(١) كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم ؛ فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف ، فكان هرمز ممن تم شرفه ، فكانت قيمتها مائة ألف فنفلها أبو بكر خالداً ، الطبرى ج ٤ ص ٦

(٢) المذار فى ميسان بين واسط والبصرة وهى قصبة ميسان بينها وبين البصرة مقدار =

قريانس وفصل قارن من المدائن حتى إذا انتهى إلى المذار لقيه فلال جيش هرمز فتذامروا وقالوا : « إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً ...... » فأجمعوا أمرهم وعسكروا بالمذار وكان قباذ وأنوشجان قد نجيا فيمن نجا من جيش هرمز ، فاستعملهما قارن على مجنبتيه

وصل خبر اجتماعهم إلى خالد ؛ فخرج حتى التقى بهم وهو على تعبئة فاقتتلوا على حنق وحفيظة ودعا قارن للمبارزة فاستبق إليه خالد ومعقل[1] ابن الأعشى ، فسبقه معقل إليه فصرعه[2] وانهزم الفرس وقتلت منهم يومئذ مقتلة عظيمة قدرت بثلاثين ألفا . ولولا أنهم ضموا السفن إليهم ، والمياه منعت المسلمين من طلبهم لأفنوهم عن آخرهم . وقد غنم المسلمون منهم مغانم كثيرة حتى زاد سهم الفارس على ثلاثين ألفاً . واخذوا الجزية من الفلاحين ، وصاروا ذمة لهم . وأقام خالد بالمذار وقسم الفيء ونفل من الأخماس أهل البلاء وبعث ببقيتها إلى أبى بكر مع سعيد بن النعمان ، وتبجبح المسلمون وصارت كل واقعة أنكى على الفرس من التى قبلها .

= أربعة أيام . . . وبها قبر عبد الله بن على بن أبى طالب . . . وأهلها كلهم شيعة غلاة طغام أشبه شيء بالأنعام ؛ معجم البلدان ج ٧ ص ٤٣٣ والثنى بكسر أوله وسكون ثانيه وياء مخففة . والثنى من كل نهر أو جبل منعطفه ويقال الثنى اسم لكل نهر . ويوم الثنى لخالد على الفرس قرب البصرة مشهور . قال القعقاع بن عمرو :

فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا   وبالثنى قرنى قارن بالجوارف

معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥

(١) هو أبيض الركبان معقل بن الأعشى بن النباش . وقتل عاصم بن عمرو الأنوشجان ، وقتل عدى بن حاتم قباذ — الطبرى ج ٤ ص ٧

(٢) كان شرف قارن قد انتهى ولم يقاتل المسلمون بعده أحدا ممن انتهى شرفه فى الأعاجم — الطبرى ج ٤ ص ٧

الولجة[١]

وصل نبأ نكبة الفرس فى المذار إلى أردشير ، فبعث الأندرزغر على رأس جيش عظيم ، وأردفه بجيش آخر عليه بهمن جاذويه وفصل الاندرزغر من المدائن[٢] حتى انتهى إلى كسكر ومنها إلى الولجة . وخرج بهمن جاذويه سالكا وسط السواد وحشر من بين الحيرة وكسكر من العرب والدهاقين واجتمع هؤلاء وأولئك بالولجة وتتام جمعهم وأعجب الاندرزغر ما هو فيه من كثرة ؛ فأجمع السير إلى خالد

بلغ خالداً ـ وهو بالثنى ـ تجمع الفرس ونزولهم الولجة فخلف سويد ابن مقرن على من وراءه ، وليحمى ظهره ، ويحتفظ بما فتح ، وأوصى من خلف بالحذر والحيطة وسار هو قاصداً الأندرزغر ومن اجتمع عليه بالولجة وجعل جيشه فرقاً ثلاثاً : تقدم هو باحداها يلقى بها عدوه والثنتين جعلهما كمينا له فى ناحيتين وعليهما بسر بن أبى رهم وسعيد بن مرة

التقى الجمعان فى صفر واقتتلوا قتالا شديدا حتى نفد الصبر واستبطا خالد كمينه وهما على ذلك إذا بالكمين يكتنف الفرس من ناحيتين فانهزموا

---

(١) الولجة بأرض كسكر مما يلى البر ...... وفيها يقول القعقاع بن عمرو :

ولم أر قوما مثل قوم رأيتهم … على ولجات البر أحمى وأنجبا
وأقتل للرواس فى كل مجمع … إذا ضعضع الدهر الجموع وكبكبا

معجم البلدان ج ٨ ص ٤٣٣

(٢) المدائن مسكن الملوك من الاكاسرة الساسانية وغيرهم ـ معجم البلدان ج ٧ ص ٤١٣

(٣) كسكر بالفتح ثم السكون وكاف أخرى وراء معناه عامل الزرع . كورة واسعة وقصبتها اليوم واسط القصبة التى بين الكوفة والبصرة ـ معجم البلدان ج ٧ ص ٢٥١

وولوا الأدبار ، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ومضى الأندرزغر فى هزيمته حتى مات عطشاً ، ولم يتعرض خالد للفلاحين بسوء ودعاهم إلى الجزاء والذمة فأجابوا وتراجعوا

وأصيب فى هذه الموقعة كثير من نصارى العرب من بكر بن وائل فيهم ابن لجابر بن بجير وابن لعبد الأسود العجلى ، فغضب لهم نصارى قومهم ، وكاتبوا الفرس وواطؤوهم على حرب المسلمين فكان ذلك سبباً فى واقعة اليس

اليس [1]

فى هذه الموقعة انضم نصارى العرب إلى الأعاجم وصاروا عوناً للفرس على المسلمين وكان عليهم عبد الأسود العجلى وعلى الفرس جابان وكان قد أمره بهمن جاذويه ألا ينازل العرب إلا أن يعجلوه وأن يكفكف جنده حتى يلقى الملك فيحدث به عهدا ثم يلحق به

بلغ خالداً تجمع نصارى العرب من بنى عجل ، وتيم وضبيعة وعرب الضاحية فنهد لهم وكل همه متجه لمواقعتهم ولا علم له بجابان وانضمام الفرس لجموع العرب

أقبل خالد وهو على تعبئة ، وقد أعد القوم طعامهم فأظهروا عدم الاكتراث بخالد والتهاون بأمره ، وتداعوا إلى الطعام ، وتوافوا إليه بيد أن خالدا لم يدعهم يهنأون بطعامهم بل أجهضهم عنه واقتتلوا أشد

---

(١) أليس بوزن فليس والسين مهملة . . . . . . الموضع الذى كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس فى أول أرض العراق من ناحية البادية ــ معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨

القتال وكان على مجنبتى جابان عبد الأسود والأبجر وقد زاد فى كلب الأعداء وشدتهم ما يتوقعونه من لحاق بهمن جاذويه بهم فى مدد كبير وحربهم المسلمون ، فكشفوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة قدرت بسبعين ألفاً جلهم من أمغيشيا، وأمعن خالد فى قتلهم حتى اختلط دمهم بالنهر (١) ، وخالفهم المسلمون على طعامهم ونفلهموه خالد ، وبعث إلى أبى بكر بالفتح والأخماس وبقدر الفىء وأهل البلاء مع أحد بنى عجل واسمه « جندل » (٢)

ومن طريف ما يذكر أن المسلمين حينما قعدوا لعشائهم جعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول : ما هذه الرقاع البيض فيجيبه مازحاً من قد عرفها قائلا : « هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون نعم ، فيقولون هو هذا ، فسمى الرقاق ، وكانت العرب تسميه القرى وكانت هذه الوقائع التى تقدمت فى صفر من سنة ١٢ ما عدا الأبلة فانها كانت فى المحرم .

أمغيشيا (٣)

بعد أن فرغ خالد من أليس نهض حتى أتى أمغيشيا وقد جلا عنها

---

(١) كان خالد قد نذر إن منحه الله أكتافهم ألا يستبقى منهم أحدا قدر عليه حتى يجرى نهرهم بدمهم ، فلما تمكن منهم وكل بهم من يضرب أعناقهم فى النهر ، ولما لم تجر دماؤهم أشار عليه القعقاع بن عمرو وأشباه له بأن يرسل الماء على الدماء برا بيمينه فجرى دما عبيطا ، فسمى نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم ـــ الطبرى ج ٤ ص ١١

(٢) كان هذا العجلى دليلا صارما ولما قدم على أبى بكر وأخبره بما صنع المسلمون أمر له بجارية من ذلك السبى ـــ الطبرى ج ٤ ص ١١

(٣) أمغيشيا بفتح أوله وسكون ثانيه والغين المعجمة مكسورة وياء ساكنة والشين =

أهلها وأعجلوا عما فيها وتفرقوا فى السواد ، فأمر بهدمها وهدم كل شىء كان فى حيزها (وكانت مصرا كالحيرة وكانت أليس من مسالحها وعندها ينتهى فرات بادقلى) وأصابوا فيها مالم يصيبوا مثله منذ وقعة ذات السلاسل ، فقد بلغ سهم الفارس ١٥٠٠ درهم سوى أنفال أهل البلاء ولما وصلت الأخماس والفتح لأبى بكر وبلغه ما صنع خالد والمسلمون قال : « يامعشر قريش . . . عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد » [١]

وهذه القولة من أبى بكر من أحسن المدح لخالد ، فهى تبين لنا الكثير من نواحى عظمته وتكشف فى جلاء ووضوح عن تقدير أبى بكر له واعتقاده فيه أنه وحيد متفرد

وكان الاستيلاء على أمغيشيا توطئة لفتح الحيرة

الحيرة [٢]

بلغ الأراذبة مرزبان الحيرة ماصنع خالد فعلم أنه غير متروك فاستعد

= معجمة وياء وألف . . . قال أبو مقرن الأسود بن قطبة

لقينا يوم أليس وأمغى ويوم المقر آساد النهار
فلم أر مثلها فضلات حرب أشد على الجحاجحة الكبار
قتلنا منهم سبعين ألفا بقية حربهم نخب الاسار
سوى من ليس يحصى من قتيل ومن قد غال جولان الغبار

معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٦

(١) الطبرى ج ٤ ص ١١

(٢) الحيرة بالكسر ثم بالسكون وراء مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة . . وبالحيرة : الخورنق بقرب منها مما يلى الشرق على نحو ميل ، والسدير فى وسط البرية التى بينها وبين الشام كانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية من زمن نصر . . . ويقال =

وتهيأ للحرب ، وقدم ابنه أمامه ، وخرج على أثره وعسكر خارج الحيرة
وأمر ابنه بسد الفرات ، وتفجير الأنهار التى تاخذ منه

خرج خالد من أمغيشيا ، وحمل الرجل فى السفن مع الأنفال والأثقال
فلم يفجأ المسلمين إلا السفن جوانح ، فارتاعوا لذلك فأخبرهم الملاحون
بأن الفرس قد فجروا الأنهار وسدوا الفرات ، فسلك الماء غير طريقه ،
فتعجل خالد فى جريدة من الخيل نحو ابن الأزاذبة وفجىء خيلا من خيله
على فم العتيق وهم آمنون من الغارة فى تلك الساعة ، فأنامهم بالمقر [1]
ثم سار من فوره وسبق الأخبار حتى لقى ابن الأزاذبة وجنده على فم
فرات بادقلى فاقتتلوا ، فأوقع بهم خالد وفجر الفرات ، وسد الأنهار
فسلك المـاء سبيله .

قصد خالد الحيرة ، وسار حتى نزل الخورنق فعبر الأزاذبة الفرات
هارباً من غير قتال لما دهمه من مصاب ابنه وموت أردشير . ولما تلاحقت
جموع المسلمين بالخورنق خرج بهم خالد حتى عسكر بين العزيين والقصر
الأبيض (وهو موضع عسكر الأزاذبة) وأهل الحيرة متحصنون فى

= لها : الحيرة الروحاء . قال عاصم بن عمرو :

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ورجلا فوق أثباج الركاب
حضرنا فى نواحيها قصورا مشرفة كأضراس الكلاب

معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧٦

(١) المقر بالفتح ثم السكون . . . موضع قرب فرات بادقلا من ناحية البر من جهة الحيرة كانت به وقعة للمسلمين وأميرهم خالد . . . قال عاصم بن عمرو :

ألم ترنا غداة المقر فئنا بأنهار وساكنها جهارا
قتلناهم بها ثم انكفأنا إلى فم الفرات بما استجارا

معجم البلدان ج ٨ ص ١٢٤

قصورهم فاجال عليهم الخيل فى عرصاتهم [١] ووكل بكل قصر رجلا يحاصر من فيه ويقاتلهم ، وعهد إلى أولئك القواد أن يدعوهم فان لم يقبلوا أجلوهم يوماً ثم يناجزونهم ففعلوا واختار القوم المنابذة ، وكان أول الأمراء بدءاً للقتال ضرار بن الأزور [٢] فأنه حين رآهم عمدوا الرمى المسلمين بالخزف أمر بأن يرشقوهم بالنبل وتابعه الأمراء على مثل ذلك ، فافتتحوا الدور والديرات ، وأكثروا القتل : فنادى القسيسون والرهبان يا أهل القصور مايقتلنا غيركم » . ونادى أهل القصور أن قد قبلنا واحدة من ثلاث : فكفوا عنا ، وبلغونا خالداً فنزل نقباء الحيرة إلى أمراء المسلمين : فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم .

وكان أول الرؤساء طلباً للصلح عمرو بن عبد المسيح وتبعه بقية الرؤساء فأرسلهم الأمراء إلى خالد ومع كل واحد منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن ، فخلا خالد بأهل كل حصن على حدة ولامهم . ومما قال لهم : « ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب أو عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل » [٣] وقال لهم اختاروا واحدة من ثلاث : الدخول

---

(١) العرصات جمع عرصة بوزن ضربة وهى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء — مختار الصحاح

(٢) وكان محاصرا للقصر الأبيض وفيه اياس بن قبيصة الطائى وكان ضرار بن الخطاب محاصرا قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى . وضرار بن مقرن المزنى محاصرا قصر بنى مازن وفيه ابن أكال . والمثنى محاصرا قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح — الطبرى ج ٤ ص ١٢

(٣) تلك سياسة رشيدة تدل على الكياسة والمهارة وتشعرنا بأن خالدا سياسى ماهر يتأتى للأمور كما هو قائد بطل مجرب

فى الاسلام أو الجزية أو المنابذة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة ، فاختاروا الجزية وصالحوه على ١٩٠ ألف وأهدوا له الهدايا

أرسل خالد بالفتح والهدايا إلى ابى بكر فقبلها على أن تكون من الجزاء وكتب إلى خالد : أن احسب لهم هديتهم من الجزاء وخذ بقية ما عليهم فقو بها أصحابك ، وكتب لهم خالد كتاب صلح هذا نصه : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمرا ابن عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم فقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها وعلى المنعة فان لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة ، وكتب فى شهر ربيع الأول من سنة ١٢

ومن طريف ما يحكى أن رجل اسمه شويل كان قد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين بفتح الحيرة فسأله كرامة بنت عبد المسيح فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هى لك إذا فتحت عنوة فلما فتح خالد الحيرة وطلب أهلها الصلح جاء شويل هذا إلى خالد يطلب الوفاء

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٤ — وقال القعقاع بن عمرو فى أيام الحيرة :

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة ... وأخرى بأثباج النجاف الكوانف

فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا ... وبالثنى قرنى قارن بالجوارف

ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على الحيرة الروحاء إحدى المصارف

الطبرى ج ٤ ص ١٥

بما وعده إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له جماعة بان ذلك كان فجعل خالد فى صلحهم تسليم كرامة فشق ذلك على قومها ، وأعظموا الخطر فقالت لاتخطروه ولكن اصبروا ماتخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة فانما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم فدفعوها الى خالد فدفعها خالد إليه فقالت ما أربك إلى عجوز كما ترى : فادنى قال لا إلا على حكمى ، قالت فلك حكمك مرسلا فقال : لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها فرجعت إلى أهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه فقال : ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فقال خالد أردت أمرا وأراد الله غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك كاذبا كنت أو صادقا[1]

ولما صالح خالد أهل الحيرة جاء صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف حتى دخل على خالد فصالحه على بانقيا وباروسما[2] وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف دينار سوى خرزة كسرى وكتب لهم كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وبسما

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٦

(٢) وذكر ياقوت فى معجمه أنهم قاتلوا خالدا ليلة حتى الصباح ، فلما رأوا أنه لاطاقة لهم بحربه طلبوا الصلح ؛ فصالحهم وقال فى ذلك ضرار بن الآزور :

أرقت ببانقيا ومن يلق مثل ما لقيت ببانقيا من الحرب يأرق

وبانقيا بكسر النون ناحية من نواحى الكوفة ـ معجم البلدان ج ٢ ص ٥٠ وباروسما الواو والسين ساكنتان : ناحيتان من سواد بغداد ـ معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤

جميعا على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة وإنك قد نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معى من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم . شهد هشام بن الوليد والقعقاع ابن عمرو وجرير بن عبد الله الحميرى وحنظلة بن الربيع . وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر » [١]

كان الدهاقين يتربصون بخالد وينظرون ما يصنع أهل الحيرة فلما استقام ما بينهم وبين خالد أتته الدهاقين فصالحوه على ما بين الفلاليج [٢] إلى هرمزجرد على ألفى ألف درهم إلا ما كان لآل كسرى ومن لف لفهم وأبى الدخول فى الصلح فانه للمسلمين ولا يشمله الصلح . وهاك نص كتاب صلحهم : [٣].

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاد بن بهيش وصلوبا بن نسطونا إن لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط على ألفى ألف تقبل فى كل سنة عن كل ذى يد سوى ما على بانقيا وبسما وإنكم قد أرضيتمونى والمسلمين وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٦

(٢) الفلاليج بالفتح وفلاليج السواد قراها إحداها فلوجة - معجم البلدان ج ٦ ص ٣٩١ ، وهرمزجرد ناحية كانت بأطراف العراق - معجم البلدان ج ٨ ص ٤٦٠

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٧

شهد هشام بن الوليد والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله الحميرى وبشير بن عبيد الله بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع . وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر »[1]

فتح خالد جانباً كبيراً من العراق ، وغلب الفرس على خير شق السواد وجعل الحيرة مقراً للقيادة العليا ، ومركزا للأعمال الحربية ، ومعقلا لجيوش المسلمين وآن له أن ينظر فيما فتحه نظر تنظيم وتدبير ، ويرتب أمور البلاد التى غلب عليها فيوهن عزم الفرس ويقضى على أملهم فى إعادة شىء مما فقدوه ؛ فبث مسالحه وعماله لجباية الخراج ، وحماية الثغور . وبهذه المناسبة نرى من الحسن أن نذكر كلمة عن عمال خالد وأمرائه :

عمال خالد وأمراؤه :

كان عمال الخراج فى زمنه : عبد الله بن وثيمة النصرى على الفلاليج وجرير بن عبد الله على بانقيا وبسما وبشير بن الخصاصية على النهرين وسويد بن مقرن المزنى على تستر وأط بن أبى أط على روذمستان[2]

وأما أمراء الثغور فكانوا : ضرار بن الآزور . وضرار بن الخطاب . والمثنى بن حارثة وضرار بن مقرن . والقعقاع بن عمرو وبسر بن أبى رهم وعتيبة بن النهاس فنزلوا على السيب[3] فى عرض سلطانه

(١) يظهر أن تاريخ هذا الكتاب والذى قبله بشهر صفر ليس على ما ينبغى لأن كتابتهما كانت بعد فتح الحيرة وهى فتحت فى شهر ربيع الأول ويبدو لنا أن تحديد الشهر من وضع الرواة وليس من صلب العقد لأن التاريخ لم يكن اصطلح عليه

(٢) وقد جبى الخراج إلى خالد فى خمسين ليلة ـ الطبرى ج ٤ ص ١٨

(٣) السيب بكسر أوله وسكون ثانيه وأصله مجرى الماء كالنهر وهو كورة من سواد الكوفة . والسيب أيضاً نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة ـ معجم البلدان ج ٥ ص ١٩٠

اراد خالد أن يتقدم إلى الفرس وأن يعذرهم من نفسه بعد ماصدمهم مرارا وعرفوا حدته ويمن نقيبته لعل منهم من يثوب إليه رشده ويعاوده عقله فيعطى بيده فيأمن ويأمن قومه ، ثم أراد أن يمر عيشهم ويحل عزائمهم فبعث إليهم بكتابين هما أشد من الصواعق وأمر على أنفسهم من كل ما لاقوه منه: أحدهما للخاصة والآخر للعامة . وقال لمرة الحيرى حين بعثه لملوك فارس : اذهب إليهم فلعل الله أن يمر عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا . وهذا نص كتاب الخاصة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس . أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

وقال لهزقيل حين وجه به إلى المرازبة : اللهم أزهق روحهم . وهذا نص كتابهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس أما بعد فأسلوا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر »[1]

وفى هذا الوقت الذى كان يمخر فيه المسلمون فيما دون دجلة ، كان اهل فارس بموت أردشير مختلفين فى الملك مجتمعين على قتال خالد متساندين وكانوا بذلك سنة والمسلمون يمخرون مادون دجلة وليس لأهل فارس

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٨

فيما بين الحيرة ودجلة أمر وليس لأحد منهم ذمة إلا الذين كاتبوه واكتتبوا منه وسائر أهل السواد جلاء محصنون ومحاربون [١]

ولم يكن لأهل فارس هم إلا المدافعة عن بهرسير [٢] فلما أن جاءتهم كتب خالد أحبوا أن يفرغوا من تنازعهم واختلافهم وأن يجمعوا كلمتهم على رجل يختارونه ؛ فولوا عليهم الفرخزاد بن البندوان (ولم يكن من بيت الملك) إلى أن يجدوا من آل كسرى من يجتمعون عليه

ولما استقام لخالد أمره واطمأن على الثغور استخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو وسار لاغاثة عياض بن غنم الذى بعثه أبو بكر لفتح العراق من أعلاه وعلى مقدمته الأقرع بن حابس فسلك الفلوجة [٣] حتى نزل بكربلاء [٤] وعلى مسلمتها عاصم بن عمرو فأقام بها أياماً ثم نادى بالرحيل حتى انتهى إلى الأنبار .

الأنبار [٥]

لما بلغ أهل الأنبار نبأ خالد تحصنوا وامتنعوا وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من الحصن ووافاهم خالد على مقدمة الجيش فأطاف بالخندق

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٨

(٢) بالفتح ثم الضم وفتح الراء وكسر السين المهملة وياء ساكنة وراء . من نواحى سواد بغداد قرب المدائن ـ معجم البلدان ج ٢ ص ٣١٤

(٣) الفلوجة الأرض المصلحة للزرع ـ معجم البلدان ج ٦ ص ٣٩٨

(٤) كربلاء موضع قتل الحسين بن على رضى الله عنهما وهى فى طرف البرية قريبا من الكوفة ـ معجم البلدان ج ٧ ص ٢٢٩

(٥) الأنبار مدينة على الفرات فى غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ ـ معجم البلدان ج ١ ص ٣٤١

وتواً أنشب القتال — لأنه كان لا يصبر عن الحرب إذا رآها أو سمع بها — وقال لرماته : « إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا تحروا سواها » فأصابوا فيهم ألف عين ، فتصايح القوم : ذهبت عيون أهل الأنبار فراسل شيراز صاحب ساباط — وكان أعقل أعجمى يومئذ وأسوده وأقنعه فى الناس العرب والعجم — خالداً فى الصلح على أمر لم يرضه وعمد خالد إلى الابل العجاف (١) فى جيشه فنحرها ورمى بها فى أضيق مكان فى الخندق فأفعمه ثم اقتحمه على جسر من تلك الرذايا وصار معهم داخل الخندق فأرزوا (٢) إلى حصنهم فطلب شيراز الصلح على ما أراد خالد ، على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جريدة خيل ليس معهم من الأموال والمتاع شيء ، فوفى له خالد وانتهى بذلك أمر الأنبار. وجاء من حولها كذلك فصالحوه

وقيادة خالد لمقدمة الجيش وطوافه بنفسه حول الخندق لتعرف مواطن الضعف فيه ثم إنشابه للقتال تواً ولونه لا يصبر عن الحرب إذا رآها أو سمع بها ثم فراسته فى تعرف قدرة عدوه على الحرب وخبرته بها فيتحرى ناحية الضعف فى عدوه فيأتيه منها ويحاربه بنوع السلاح الذى لا يحسنه وهو بعد ذلك لا يفوته أن يعمد إلى الحيلة للنكاية بعدوه كل هذا يكشف لنا عن كثير من نواحى تلك المهارة الحربية التى امتاز بها ولما استقام لخالد أمر الأنبار استخلف عليها الزبرقان بن بدر وتوجه إلى :—

(١) العجاف جمع عجفاء وهى الهزيلة ـ مختار الصحاح . والرذى كفنى من أثقله المرض والضعف من كل شيء وهى بهاء جمع رذايا ـ القاموس المحيط

(٢) أرزى إليه التجأ واستند ـ القاموس المحيط

عين التمر[1]

وكان بها يومئذ مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من العجم ، وعقة بن أبي عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لافهم وحين سمعوا بمسير خالد إليهم قال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً قال صدقت لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم » فخدعه وغرر به وورطه ليتقى به

عز ذلك على من معه من العجم فقالوا له : كيف تقول ما قلت لهذا الكاب ، وكان العجم يحقرون العرب . فقال لهم دعونى فانى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم : إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفل حدكم فاتقيته بهم فان كانت لهم على خالد فهى لكم وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم يضعفون ، فحمدوا له رأيه

نزل عقة لخالد على الطريق وصار كالخفير لمهران الذى اعتصم بالحصن وبينه وبين عقة مقدار غدوة أو روحة وقدم خالد على تعبئة ووكل بنفسه حوامى ثم حمل على عقة وهو يعدل صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيرا وانهزم جنده وأتبعهم المسلمون وأمعنوا فى أسرهم

بلغ الخبر مهران فترك الحصن وهرب فى جنده من غير قتال والتجأ فلال عقة إلى الحصن فاقتحموه واعتصموا به ونزل خالد على الحصن

(١) عين التمر بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة . . . وهى على طرف البرية افتتحها المسلمون فى أيام أبى بكر على يد خالد بن الوليد سنة ١٢ - معجم البلدان ج ٦ ص ٢٥٣

وحاصره وعقة أسير معه وكان من فى الحصن يرجون أن يكون خالد كغيره من مغيرة العرب لايلبث أن يتركهم متى ظفر بالغنائم والأموال فلما رأوه غير تاركهم طلبوا الأمان فأبى إلا على حكمه فلبوا فدفعهم إلى المسلمين وضرب عنق عقة وطرحه على الجسر ليؤيسهم من الحياة، ثم انثنى عليهم فضرب أعناقهم جميعا واستلم الحصن وغنم كل مافيه ووجد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الانجيل فقال ما أنتم قالوا رهن فقسمهم فى أهل البلاء وكان منهم من أعقب رجالا عظماء كان لهم شأن يذكر فى دولة الاسلام: منهم نصير أبو موسى بن نصير، وسيرين أبو محمد بن سيرين، وحمران مولى عثمان

أرسل خالد الوليد بن عقبة بالفتح والأخماس إلى أبى بكر فوجهه أبو بكر مددا لعياض بن غنم ؛ فقدم عليه وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه وقد أخذوا عليه الطريق فقال له : الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف ابعث إلى خالد واستمده ففعل وقدم رسول عياض على خالد مستغيثا عقب فراغه من عين التمر ؛ فعجل خالد إلى عياض بكتابه المشهور : من خالد إلى عياض إياك أريد

لبث قليلا تأتك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب

كتائب يتبعها كتائب

استخلف خالد على عين التمر : عويم بن الكاهل الأسلمى وخرج فى تعبئته التى دخل بها العين يريد دومة الجندل :

دومة الجندل [1]

ولما بلغ أهل دومة سير خالد إليهم استنفروا أشياعهم ، من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم ومن قبل قد أتاهم وديعة فى كلب وبهراء ومسانده ابن وبرة بن رومانس وأتاهم ابن الحدرجان فى الضجاعم وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ » فأشجوا عياضا وشجوا به وكان عليهم رئيسان : أكيدر بن عبد الملك ، والجودى بن ربيعة فلما دنا منهم خالد اختلفوا فقال أكيدر : أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرا منه ولا أحد فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال : لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته [2]

علم خالد بخروج أكيدر فبعث إليه عاصم بن عمرو فعارضه وأتى به خالداً فضرب عنقه جزاء غدره وخيانته لأنه كان قد عاهد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل فغدر

مضى خالد حتى نزل على أهل دومة وعليهم الجودى بن ربيعة ووديعة

---

(١) دومة الجندل بضم أوله وفتحه وقد أنكر ابن دريد الفتح . . . وهى على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . . . وقال أبو عبيد السكونى : دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلى طىء . . . وأهل كتب الفتوح مجمعون على أن خالد بن الوليد غزا دومة أيام أبى بكر عند كونه بالعراق سنة ١٢ وقتل أكيدر لأنه كان قد نقض وارتد ـ معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٦، ١٠٧

(٢) رأى أكيدر هذا رأى صائب مبنى على خبرة سابقة ، فقد كانت له مع خالد موقعة قبل ذلك حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك فقتل أخاه وأسره وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه ورده إلى بلده .

الكلبى وابن رومانس الكلبى وابن الأيهم وابن الحدرجان وكان موقف خالد بحيث جعل دومة بينه وبين عياض بن غنم وكان الذين أمدوا أهل دومة من نصارى العرب محيطين بالحصن لأنه لم يتسع لهم

لم يخف على القوم ماحل بهم ؛ فرتبوا أنفسهم ، فنهض الجودى بوديعة لخالد وابن الحدرجان وابن الأيهم لعياض فأمكن الله المسلمين من الفريقين فأسر خالد الجودى والأقرع وديعة والتجأ بقية الناس إلى الحصن فلم يحملهم وأوصده من فيه دونهم ، فظلوا تحت السيف حرداء وأجار عاصم بن عمرو ومن معه من تميم حلفاءهم من كلب [1]

وأعمل خالد السيف فى الذين التجأوا إلى الحصن حتى أفناهم وسد بهم بابه وضرب عنق الجودى والأسرى ما عدا أسارى كلب لأمان عاصم وبنى تميم لهم ثم اقتلع باب الحصن وقتل من فيه

أمر خالد الأقرع بن حابس بالرجوع إلى الأنبار وأقام هو بدومة فكانت إقامته مدعاة لطمع الأعاجم وظنهم به الظنون وكذلك ظنها عرب الجزيرة فرصة — وهم لم ينسوا بعد مصرع عقة — فكاتبوا الأعاجم ليكونوا معهم على خالد غضباً لعقة ؛ فخرج زرمهر من بغداد ومعه روزبه يريدان الأنبار واتعدا حصيدا والخنافس ؛ فوصل خبرهم الزبرقان بن بدر — وهو على الأنبار — فاستمد القعقاع خليفة خالد على الحيرة فأمده بأعبد بن فدكى السعدى وأمره بالحصيد وبعروة بن الجعد البارقى وأمره بالخنافس وقال لهما : إن رأيتما مقدماً فاقدما فخرجا ومنعاهما وحالا بينهما

(١) قال عاصم بن عمرو : « حلفاؤكم كلب آسروهم وأجيروهم فانكم لا تقدرون لهم على مثلها ففعلوا » الطبرى ج ٤ ص ٢٣

وبين الريف فتربصا بالمسلمين اجتماع من كاتبهما من ربيعة ثم يصادمونهم فلما رجع خالد إلى الحيرة وبلغه الذى كان عجل بارسال القعقاع وأبى ليلى الى روزبة وزرمهر فسبقاهما إلى عين التمر

وصل خالداً كتاب من امرىء القيس الكلبى بأن الهذيل بن عمران قد عسكر بالمصيخ وربيعة بن بشر قد عسكر بالثنى وبالبشر غضباً لعقة وأنهما يريدان زرمهر وروزبة فاستخلف عياض بن غنم على الحيرة ونهد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس فسلك طريق القعقاع وأبى ليلى إلى الخنافس حتى قدم عليهما بعين التمر، فبعث القعقاع إلى الحصيد وجعله أميراً على الناس وأبا ليلى إلى الخنافس وأمرهما أن يزجوهم ويدفعوهم كى يجتمعوا هم ومن تاشب إليهم فيصدمهم المسلمون صدمة واحدة ويفرغوا منهم. ولكن يظهر أنهم فطنوا لنية المسلمين بهم ؛ فلم يجتمعوا ولم يمكنوهم من أنفسهم

رأى القعقاع بن عمرو أن رزمهر وروزبة لم يتحركا فسار يريد الحصيد

الحصيد [1]

وكان روزبة رئيس من به من العرب والعجم فلما علم بقصد القعقاع إليه استمد رزمهر فامده بنفسه واستخلف على عسكره المهبوذان والتقى

(١) الحصيد بالفتح ثم بالكسر وياء ساكنة ودال مهملة : موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة . . . قال القعقاع بن عمرو :

ألا أبلغا أسماء أن حليلها قضى وطرا من روزمهر الأعاجم
غداة صبحنا فى حصيد جموعهم بهندية تغرى فراخ الجماجم

معجم البلدان ج ٣ ص ٢٨٨

الجمعان فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة من بينهم رزمهر وروزبة [١]
وغنموا منهم مغانم كثيرة والتجأ فلال الحصيد إلى :

الخنافس

فسار إليهم أبو ليلى بمن معه ومن انضم إليه فلما أحس به المهبوذان
هرب هو وجنده ومن التجأ إليه وأرزوا إلى المصيخ وبه الهذيل بن
عمران فاستولى المسلمون على الخنافس بغير قتال وبعثوا إلى خالد بالخبر

المصيخ [٢]

انتهى خبر الحصيد والخنافس إلى خالد فواعد قواده القعقاع بن عمرو
وأبا ليلى وأعبد وعروة ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيخ فتوافوا إليها
فى موعدهم وبيتوا الهذيل ومن أوى إليه من ثلاثة أوجه فأناموهم وامتلأ
الفضاء برممهم كأنهم غنم مصرعة وأفلت الهذيل فى نفر قليل من أصحابه
أصاب جرير بن عبد الله وهو فى المعركة يوم المصيخ رجلين كانا
قد أسلما ومعهما كتاب من ابى بكر باسلامهما وهما : عبد العزى بن

---

(١) رزمهر قتله القعقاع وروزبه قتله عصمة بن عبدالله الضبى ـ الطبرى ج ٤ ص ٢٤

(٢) المصيخ . قال الطبرى هى بين حوران والقلت وذكره فى بعض رواياته
وتابعه ابن الأثير بضاد وفى آخره حاء وهو غلط كما يعلم من معجم البلدان إذ يقول :
المصيخ بضم الميم وفتح الصاد المهملة وياء مشددة وخاء معجمة يقال له مصيخ بنى البرشاء
وهو بين حوران والقلت وكانت به وقعة هائلة لخالد على بنى تغلب . فقال التغلبى :
*يا ليلة ما ليلة المصيخ . . . * وقال القعقاع بن عمرو :

سائل بنا يوم المصيخ تغلبا وهل عالم شيئا وآخر جاهل
طرقناهم فيها طروقا فأصبحوا أحاديث فى أفناء تلك القبائل

معجم البلدان ج ٨ ص ٧٩

أبى رهم ولبيد بن جرير ولما بلغ أبا بكر قول عبد العزى ليلة الفارة :

اقول إذا طرق الصباح بغارة — سبحانك اللهم رب محمد
سبحان ربى لا إله غيره — رب البلاد ورب من يتورد

وداهما وأوصى بأولادهما . وكان عمر يعتد على خالد بقتلهما وقتل مالك ابن نويرة فيقول أبو بكر « كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب فى ديارهم »

وفى الحق إنه كان للرجلين متسع من الأرض يأمنان فيه وليس بهما من ضرورة تضطرهما إلى المقام فى مستنقع الموت وفى وصف أعداء دينهم والمشاقين لأهل الاسلام . ومن ظن أنه يصنع صنيعهما ولا يكون موطنا نفسه على أن يكون طعاماً للسيوف فقد ظن عجزا وليس لعمر حق فى الاعتداد بهما على خالد [١]

الثنى والزميل [٢]

فرغ خالد من امر المصيخ فأمر القعقاع وأبا ليلى ان يرتحلا امامه وواعدهما ليلة ليغيروا على ربيعة بن بجير التغلبى وقد نزل الثنى والبشر ورتب الاغارة عليهما من نواح ثلاث كما فعل باهل المصيخ ثم خرج واجتمع باصحابه فبيته ومن اجتمع له وإليه وجرد فيهم السيف فلم يفلت منهم مخبر

---

(١) تاريخ الخلفاء لأستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار ص ٨٧

(٢) الثنى بالفتح ثم الكسر وياء مشددة بلفظ الثنى من الدواب . . . وهو علم لموضع بالجزيرة قرب الشرقى شرقى الرصافة . . . قال أبو مقرر :

طرقنا بالثنى بنى بجير — بياتا قبل تصدية الديوك
فلم نترك بها أرما وعجما — مع النضر المؤزر بالسهوك

معجم البلدان ج ٣ ص ٢٦

وبعث بالخمس مع النعمان بن عوف الشيبانى [١]

ولما انتهى خالد من الثنى قصد الزميل وفيه عتاب بن فلان فى عسكر ضخم وقد سبق إليه الخبر عن ربيعة وأوى اليه الهذيل حين نجا من المصيخ فبيتهم بمثلها غارة شعواء من ثلاث جهات فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها وقسم الفىء فى الناس وبعث بالأخماس إلى أبى بكر مع الصباح ابن فلان المزنى

عطف خالد من البشر إلى الرضاب [٢] وبها هلال بن عقة فارفض عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد منهم واضطر هلال لأن يغادرها فلم يلق المسلمون بها كيدا

الفراض [٣]

بسط خالد سلطانه على سواد العراق وأبلى فى عرب الجزيرة ونال منهم ثم قصد الفراض (وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة) حتى يحفظ ظهره ويأمن من أن يكون وراءه عورة حتى إذا قدر له أن يجتاز السواد إلى فارس كان آمنا مطمئنا على مافتحه [٤]

فلما اجتمع المسلمون بالفراض اغتاظت الروم واهتاجت واستعانت بمن يليها من مسالح الفرس فلبوا سراعا لأنهم حانقون على خالد

---

(١) اشترى على كرم الله وجهه من السبايا بنت ربيعة بن بجير التغلبى فولدت له عمرا ورقية ـ الطبرى ج ٤ ص ٢٥

(٢) الرضاب موضع الرصافة قبل بناء هشام إياها ـ معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٩

(٣) الفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات ـ معجم البلدان ج ٦ ص ٣٥٠

(٤) تلك سياسة حكيمة وهى توافق إرشاد أبى بكر لخالد وعياض حينما بعثهما لفتح العراق . راجع الطبرى ج ٤ ص ٥

والمسلمين الذين أذلوهم وكسروا شوكتهم كما استمدوا العرب من تغلب وإياد والنمر فأمدوهم وهم لم ينسوا بعد مصارع رؤسائهم وأشرافهم فاجتمعت على المسلمين فى تلك الموقعة جيوش الروم والفرس والعرب ثم ناهدوهم حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا : إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم : فلم ير خالد أن يزج بجيش المسلمين فى تلك المخاطرة التى قدلا تؤمن فأجابهم : أن اعبروا إلينا فقالوا : ابتعدوا حتى نعبر فأبى خالد وقال : بل اعبروا أسفل منا فعبروا أسفل منهم فلما تتاموا قالت الروم : امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أين يجىء[1] ، فامتازوا ونشبت المعركة فاقتتلوا قتالا شديدا طويلا وحقت الهزيمة على جيوس المؤتلفين فقال خالد لأصحابه : ألحوا عليهم ولا ترفهوا عنهم فقتلوا منهم فى المعركة وفى الطلب مائة ألف[2] . وكانت هذه الواقعة آخر حروب خالد فى العراق

أقام خالد على الفراض عشرة أيام بعد الموقعة ثم أذن بالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش وجعل شجرة بن الأغر ساقة له وأظهر هو أنه سائر فى الساقة بيد أنه ترك الجيش ومضى إلى الحج

(١) يشبه هذا ما صنعه خالد فى حربه لمسيلمة الكذاب حيث أمر بأن يمتاز الناس فكان لعمله هذا أثر محمود فى النصر ، راجع تفصيل ذلك فى حربه لمسيلمة .

(٢) وفى هذه الموقعة يقول القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع روم　　وفرس غمها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا　　وبيتنا بجمع بنى رزام
فما فتئت جنود السلم حتى　　رأينا القوم كالغنم السوام

معجم البلدان ج ٦ ص ٣٥١

حج خالد

فخرج متكتما فى عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة على السمت فتأتى له من ذلك مالم يتأت لدليل ولا ريبال ، فقد جاز طريقا من طرق الجزيرة لم ير أعجب ولا أصعب منه ، فكانت غيبته عن الجند يسيرة فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معا ، ولا يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم الجند بحجه حتى رأوه وأصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين

علم أبو بكر بحجة خالد وتركه للجند وهو خبير بأثر ذلك فى نفوس جنده وجند أعدائه ، فأكبر ذلك واعتده إعجاباً منه بنفسه وبما أتيح له من الظفر واغتراراً بمن يجاوره من عدوه واستضعافا لشأنهم [1] فكتب إليه كتابا قاربه فيه وباعده وهنأه بحجه وعاتبه. وتصادف أنه فى ذلك الحين أرسل أمراء المسلمين الذين وجهوا لفتح الشام إلى أبى بكر يستمدونه فرأى أن يصيب غرضين بحجر فيظهر عتبه على خالد فى صورة محسة كما يرسل نجدة ومددا للمسلمين ويرمى الروم بالأسد الذى رمى به فارس فينسيهم به وساوس الشيطان فيقوض عرشهم كما زلزل عرش الأكاسرة من قبل فكتب إليه مع عبد الرحمن بن جميل الجمحى [2] :

« أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فأنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنأك أبا سليمان النية والحظوة

(١) تاريخ الاسلام لأستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٩١
(٢) الأخبار الطوال ص ١١٢

فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتذل وإياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولى الجزاء »[1]

والآن بعد أن انتهينا من فتوح العراق وقبل أن يسير خالد إلى الشام يحسن بنا أن نلقى نظرة على تلك الفتوح لنتبين مدى أثره فيها وما كان لها من عائدة مادية وأدبية لجيوش المسلمين

أثر خالد فى فتوح العراق وفائدة ذلك للمسلمين

كان العرب ينظرون إلى الفرس نظر إجلال وتهيب مطمح نظر الواحد منهم أن يقف بباب كسرى وأن يؤذن له ليسجد بين يدى « شاهنشاه » ولقد بلغ من احتقار الفرس للعرب أنهم حتى بعد أن أوقع بهم خالد فى عدة وقائع لم يعنوا بالعرب ولم يكترثوا بهم ويظهر ذلك مما مر بنا فى موقعة اليس فقد هيأوا طعامهم ولم يأبهوا بجيوش العرب أمامهم .

أتاهم خالد فأراهم أن تلك الأمة بعد ما أراد الله بها من الخير ما اراد بارسال نبيه واتباع دينه استعدت لتأخذ بدورها وأن تديل لنفسها وانه يجب أن يذعن الفرس طوعاً أو كرهاً لارادتها وأنه قد آن للفلاحين والمستضعفين أن يعرفوا أنهم من جنس البشر وأن لهم حقوقاً وعليهم واجبات شأنهم فى ذلك شأن أولئك الذين كانوا يظنون فى أنفسهم أو

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦ ، ٤٠ . والناظر لكتاب أبى بكر هذا يرى فيه من الحكمة وبعد النظر ماينم عن سداد رأى الخليفة ومعرفته بالرجال وأن تأديبه لقواده تأديب حازم حكيم لايشوبه إلا الاخلاص وحب المصلحة كما أنه اشتمل على وصف لخالد هو والحقيقة صنوان .

يظن لهم غيرهم أنهم — ولو من ناحية الالتزامات للمجتمع على الأقل — طبقة فوق المستوى العادى لسواد الناس فعرفهم خالد بأن الناس من آدم وآدم من تراب

ولقد كان إرسال خالد لفتح العراق بدء ظهور الدولة الاسلامية فى مصاف الدول العظمى كما كان إيذاناً بتقلص سلطان الأكاسرة فزواله فيما بعد لا جرم فقد ظهرت تلك الأمة وأتيح لها أن تخلف ملوك الأكاسرة على رقعة فسيحة من أراضيها فاقتطعت تحت قيادة خالد حوض نهر الفرات من شمال الأبلة إلى الفراض وغلبت الفرس على خير شق السواد وتبجبحت فى ريف العراق

ظن الفرس فى بادىء الأمر أن غارة العرب عليهم ربما كانت تحت تأثير عوامل اقتصادية ومعيشية وأنهم سرعان عند ماتقع أيديهم على شىء من الغنيمة والسلب مايرجعون إلى باديتهم ويعودون من حيث أتوا ولكن تتابع الغزوات وتوالى الفتوح نبههم إلى خطئهم وجعلهم يفتحون أعينهم ويخرجون منها القذى ليروا تلك الأمة الناهضة . وحق على دولة الفرس وقد أتت على شيخوختها أن تسلم زمامها أو تفنيها أمة العرب يقودها خالد بن الوليد

كان خالد فى فتوحه حازما حكيما إذا فتح بلدا لايجوزها إلى غيرها حتى يجعل عليها أميراً لحمايتها وإقامة القسط فيها وآخر يجبى خراجها وحتى يحفظ ظهره ولا يترك وراءه عورة ومن ثم يتقدم لغيرها مطمئنا على مافتحه ، وإذا تم له الفتح أمن الفلاحين وشملهم بعطفه ورعايته ومنعهم ممن يريدهم بسوء فكانوا لذلك يرحبون بقدومه ويسرون له ولا يمانعونه

ويحاربونه إلا مكرهين، فهم يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين أذلوهم واستعبدوهم ولم يجدوا منهم إلا غلظة عليهم وإعناتا لهم، وبنسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته وقسوته على السادة والمحاربين فانه كان لا يصبر عن الحرب إذا رآها ولا يدع الجيوش متواقفة ينظر بعضها إلى بعض وتركد نار الحماس من نفوسهم بل سرعان ما يظهر بين الصفوف طالبا رئيس القوم فيهتصره، فيقع الرعب فى قلوب من وراءه وقل أن يطول أمد الحرب بعد ذلك، فاذا تمكن منهم أثخن فى قتلهم ولم تجد الرأفة بهم إلى قلبه سبيلا. فكان عمله فى الحالتين مدعاة لابتهاج المستضعفين وتنغيصا ونكدا على المحاربين وسببا فى فشلهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم

كان الواجب على مرازبة فارس ورؤسائها بعد ما عرفوا خالدا فى موقعتين أو ثلاث أن يعتبروا ويتعظوا — والعاقل من اتعظ بغيره — ولا ينازلوه وقد تبين لهم حدة سيفه ولا سيما وأنه يجعل لهم نوعا من الاختيار يجعلهم بمنجاة من الموت. أفما كان فى الناس رجل رشيد يحثهم على المسالمة وبذل مايريده يحقن على الناس هذا الدم الممار؟ إن الابتعاد عن خالد نهاية الحزم. وليس الانحراف عن طريقه أو إعطائه مايريد ضعفا أو جبنا بل إن ملاقاته والوقوف فى وجهه تهلكة وتغرير

على أن القوم الذين كانوا يجمعون له ويرصدونه أو ينهدون إليه كان يكون لهم شبه عذر لو أن الذى يقع فى يده محاربا يجد منفذاً إلى النجاة أو طريقا إلى السلامة فيكون القوم قد أقدموا على طمع فى الفوز أو أمل فى النجاة إن خانهم الظفر فلم يخنهم عفو المنتصر (١)

(١) تاريخ الاسلام لأستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٩٠

ويظهر انهم فعلوا ذلك لما هو عالق بنفوسهم من العزة والكبرياء والتهاون بالعرب واحتقارهم مما جعلهم يتمادون فى منازلة خالد ومقاتلته واستعظاما لأن يكونوا تحت سلطان العرب ورحمتهم

وهذا ليسطر التاريخ لخالد صفحات من المجد ما زال لها فى نفوس المسلمين أثرا أى أثر. على أن ما تقدم ليس كل ما استفاده المسلمون من فتوح خالد فانه فضلا عن تلك الأموال والمغانم التى أخذوها — والتى بيناها فى مواضعها — فان هناك أمر له خطره وقيمته؛ ذلك ان جنود المسلمين الذين فتحوا العراق تحت إمرة خالد قد ضروا وجرؤا على منازلة الفرس وأصبحوا لا يتهيبونهم ولا يخشون بأسهم؛ فكان ذلك تمهيداً للفتوح التى جاءت بعد، والتى قضت على دولة الأكاسرة

وفضلا عن ذلك فان جنود المسلمين قد اعتادوا رؤية الجيوش المنظمة ذات العدة والعدد وخبروا أساليب الحروب معهم فتارة ينازلونهم وهم فى حصونهم وأخرى يفصل بينهم نهر وآونة يصافحونهم بالسيوف ومرة يقضون عليهم بياتا وهم نائمون كل هذه الأحوال المتغايرة فى ملاقاة الأعداء وطرق خالد فى معالجتها وما كان يبتكره من أساليب لمدافعتها قد أفادتهم وبصرتهم بالحروب وفنون القتال وأوجدت منهم جنودا مدربين وقوادا مبرزين يخوضون غمار الحروب على نور من مواقع خالد ويهزمون جحافل الجيوش على قبس من أساليبه

أقام خالد فى العراق سنة وشهرين من المحرم سنة اثنتى عشرة إلى صفر من سنة ١٣ كان له فيها من الوقائع زهاء خمس عشرة موقعة وفى جميعها يصادمه عدوه بأضعاف جيشه ومع ذلك فقد نال من عدوه وأثخن فى

جنده وكان فى كل وقائعه ظافرا منتصرا لم تهزم له راية ، ولم ينثن سيفه عن ضريبته ، وفعل فى تلك المدة القصيرة وفى سنته هذه مالم يفعله أكبر قائد فى مثل عدد جنده وفوق عدوه فى عدده وعدده حتى لقد كان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها وحدة سيفه تعمل عملها فى كل قوم أجمع السير إليهم وكان ظهوره بين الصفوف بمثابة مدد وسكينة لجيوش المسلمين كما كان خورا ورعبا وتخلخلا واضطرابا فى صفوف المخالفين

ويظهر لنا عظيم ما قام به خالد فى سنته وما كان لهذه الفتوح من اثر فى نفوس جنده ماقاله ابن الهيثم (١) البكائى عن ابيه : « كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون : ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل — وهى أولى وقائع خالد فى العراق — ويسمون مابينها وبين الفراض مايذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل » (٢)

فتوحه فى الشام

كان البدء فى فتح الشام متأخراً عن العراق ، فان أول لواء عقده أبو بكر لحرب الشام كان فى أول سنة ثلاث عشرة لخالد بن سعيد ثم عزله (٣) — بتأثير عمر — قبل أن يسيره وجعله ردءا للناس بتيماء (٤) ثم

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٧

(٢) وهذه الرواية ترشح أيضا رأينا من أن خالدا ابتدأ فى حرب العراق بذات السلاسل

(٣) وولى مكانه يزيد بن أبى سفيان فهو أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام وخرجوا فى سبعة آلاف — الطبرى ج ٤ ص ٢٨

(٤) تيماء : بالفتح والمد بليد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق

اهتم أبو بكر بالشام ، واعتزم الجد فى أمر الروم ، فاستنفر الناس وجند الجنود وعقد الألوية لأربعة من كبار القواد وهم : يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص [١] وعين لكل واحد منهم طريقه والجهة التى يغزوها ويليها بعد الفتح : فجعل ليزيد دمشق ولشرحبيل الأردن ولأبى عبيدة حمص ولعمرو بن العاص فلسطين [٢]

فصل الأمراء وساروا حتى وصلوا الشام فنزل يزيد البلقاء وشرحبيل الأردن وأبو عبيدة الجابية وعمرو العربة . ولما علم الروم بنزول الأمراء كاتبوا هرقل وهو بالقدس فخرج عنها حتى نزل « حمصا » فأعد الجنود وعبى العساكر وأراد أن يشغل كل قائد عن أصحابه ويضعفه عمن يكون بإزائه لكثرة جنده وفضول رجاله فأرسل إلى كل قائد أضعاف ما معه من الجند فهابهم المسلمون ، ورأوا التريث حزماً ، وراسلوا عمرا وأبا بكر أن ما الرأى ؟ فأجابهم عمرو : « ان الرأى لمثلنا الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد

= حاج الشام ودمشق والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودى مشرف عليها فلذا كان يقال لها تيماء اليهودى ــ معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤٢

(١) وهم على هذا الترتيب فى خروجهم للشام ــ الطبرى ج ٤ ص ٣٩ وهؤلاء القواد قرشيون ماعدا شرحبيل فانه كندى أو أزدى وهو شرحبيل ابن عبد الله بن المطاع ابن عمرو من كندة ويقال من الأزد ، وحسنة أمه راجع الطبرى ج ٤ ص ٣٩ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ١١٤

(٢) والناظر فى هذا التعيين وتخصيص كل بجهة يتأمر عليها ليدرك مقدار وثوق المسلمين بنصر الله لهم واعتزازهم بمعونته حتى إن خليفتهم يعين الولاة قبل أن يفصلوا من بلادهم وقبل أن يلاقوا عدوهم

يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لكل طائفة منا »[١] فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ووافاهم كتاب أبى بكر بمثل مشورة عمرو ، بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه »[٢]

بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده وبطارقته « أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع العطن ، وواسع المطرد ، ضيق المهرب » ولم يخف على هرقل أن جيش المسلمين فيه حدهم وجدهم وأنهم قد جمعوا فيه كل ما أمكنهم وفى طليعتهم أهل القوة والغناء وأن المعركة التى ستدور بين جيشه وجيوش المسلمين معركة فاصلة إن كانت له لم يفلح العرب بعدها ولم يجرؤا على غزو بلاده مرة أخرى وإن كانت عليه فسلام على سوريا ولذا فانه قد اهتم بهذا الجيش وعين له الأمراء والقواد وبينهم القسيسون والرهبان يحرضون ويشجعون ونزلوا الواقوصة[٣] وهى على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقاً لهم وهو لهب لايدرك وأراد قواد الروم أن يستفيق عسكرهم ويأنسوا بالمسلمين حين يروا قلتهم وكثرة جموع

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣١

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣١ ورأى عمرو وأبى بكر كلاهما يقوى ماسنختاره بعد من أن اليرموك سابقة على أجنادين

(٣) الواقوصة : واد بالشام فى أرض حوران نزله المسلمون أيام أبى بكر على اليرموك لغزو الروم — معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٩

قومهم فترجع إليهم أفئدتهم وتسكن نفوسهم ولما نزلوا منزلهم هذا انتقل المسلمون عن مجمعهم فنزلوا بحذائهم وعلى طريقهم وليس لهم طريق إلا عليهم فقال عمرو : « أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير » فأقاموا بإزائهم وعلى منفذهم صفراً وشهرى ربيع من سنة ١٣ لا يقدرون من الروم على شىء ولا يخلصون إليهم : الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكلما خرجوا خرجة نال المسلمون منهم [١]

كان المسلمون فى مبدإ أمرهم (فى صفر) عند مارأوا تلك الجموع الكثيفة استمدوا أبا بكر وأعلموه الشان فقال حين بلغه ذلك : « خالد لها » . « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » [٢] فبعث إليه واستحثه فى السير وكتب إليه الكتاب [٣] الذى قدمنا (عقيب حجه ورجوعه إلى الحيرة) لأغاثة المسلمين بالشام وأن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فى نصف الجيش ويسير هو فى النصف الثانى [٤] فاذا فتح الله على المسلمين الشام رجع إلى عمله بالعراق . وحين تهيأ للسير استأثر بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى المثنى إلا أن يكون الأمر على ما كتب أبو بكر فلم يزل به خالداً حتى أرضاه من أهل النجدة

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣١

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٠ وهذه القولة من أبى بكر شهادة كبرى لها قيمتها

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٦ ، ٤٠

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٤٠ ، ٤٢

والقناعة ممن لم يكن له صحبة [١] ، ولقد كان إرسال خالد إلى الشام توفيقاً من الله لأبى بكر لأنه كان صاحب اليوم الذى حصلت فيه الصدمة الأولى وتتابعت الفتوح بعده [٢]

سار خالد من الحيرة حتى إذا انتهى إلى قراقر [٣] أراد التفويز [٤] منها إلى سوى لأنه إن دار مع الطريق المألوفة وضرب حول المفازة استقبل الروم فيضطر لمبارزتهم فيحبسه ذلك عن غياث المسلمين [٥] فالتمس الأدلاء فدل على رافع بن عميرة الطائى فقال له فى ذلك فقال : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغرور ، إنها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها فقال له ويحك إنه والله إن لى بد من ذلك إنه قد أتتنى من الأمير عزمة بذلك فمر بأمرك قال : استكثروا من الماء من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل فانها المهالك إلا ما دفع الله ابغنى عشرين جزوراً عظاما سمانا مسان فأتاه بهن فعمد إليهن رافع فظمأهن حتى إذا أجهدهن عطشا أوردهن فشربن حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٢

(٢) تاريخ الاسلام لاستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٩٥

(٣) قراقر : ماء لكلب ـ الطبرى ج ٤ ص ٤٤ . وقال ياقوت فى معجمه : واد لكلب بالسماوة من ناحية العراق ج ٧ ص ٤٤ ـ وسوى : ماء لبهراء على الجانب الآخر للمفازة مما يلى الشام ـ الطبرى ج ٤ ص ٤١ ـ وقال ياقوت : سوى بضم أوله والقصر ... ماء لبهراء من ناحية السماوة ـ ج ٥ ص ١٥٧

(٤) يقال فوز الرجل بابله إذا ركب بها المفازة . قال فى المختار : المفازة واحدة المفاوز ... من فوز تفويزا أى هلك وقال الأصمعى سميت بذلك تفاؤلا بالسلامة والفوز

(٥) الطبرى ج ٤ ص ٤٠

لئلا يجترن ثم أخلى أدبارهن ثم قال لخالد سر فسار خالد معه مغذا بالخيول والأثقال فكلما نزل منزلا اقتط أربعا من تلك الشرف فأخذ مافى أكراشها فسقاه الخيل ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء فلما خشى خالد على أصحابه فى آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة — وهو أرمد - ويحك يا رافع ماعندك قال أدركت الرى إن شاء الله فلما دنا من العلمين قال للناس انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل قالوا مانراها قال إنا لله وإنا اليه راجعون هلكتم والله إذن وهلكت لاأبالكم انظروا فطلبوا فوجدوها قد قطعت، وبقيت منها بقية فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع ثم قال احفروا فى أصلها فحفروا فاستخرجوا عينا فشربوا حتى روى الناس فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل . وفى ذلك يقول شاعر المسلمين :

لله عينا رافع أنى اهتدى　　فوز من قراقر إلى سوى
خمسا إذا ماسارها الجيش بكى　　ماسارها قبلك من إنس يرى (١)

انتهى خالد إلى سوى فطلع على قوم يشربون الخمر وبين أيديهم جفنة وحرقوص مغنيهم يقول :

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر　　لعل منايانا قريب وما ندرى
أظن خيول المسلمين وخالدا　　سيطرقكم قبل الصباح من البشر

فما هو إلا أن فرغ من قوله حتى دهمهم خالد قبيل الصبح وهم لا يظنون أن أحدا يأتيهم من هذه المفازة (٢) فى مثل ذلك الوقت وشد رجل على

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤١ ، ٤٥ ، الأغانى ج ١ ص ١٤٢ ، عيون الأخبار ج ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٢) الأغانى ج ١ ص ١٤٣

مغنيهم فضرب عنقه فاذا رأسه فى الجفنة ونال المسلمون منهم وأصابوا من أموالهم. ثم أتى أرك (١) فصالحوه فجازها إلى تدمر (٢) فتحصن منه أهلها ثم صالحوه فأتى القريتين (٣) وقاتل أهلها وظفر بهم وغنم منهم ثم قصد حوارين (٤) فقاتل أهلها وهزمهم وسبى منهم ثم أتى قصم (٥) فصالحه بنو مشجعة من قضاعة ثم سار حتى وصل ثنية العقاب (٦) ناشراً راية سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب. ثم أتى مرج راهط (٧) فأغار على غسان وهم فى فصحهم فقتل منهم وسبى وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة فنالت منهم ثم سار حتى وصل بصرى (٨) فقاتل

(١) أرك بفتحتين وضم ابن دريد همزته: مدينة صغيرة فى طرف برية حلب قرب تدمر وهى ذات نخل وزيتون ... وهى من فتوح خالد بن الوليد فى اجتيازه من العراق إلى الشام — معجم البلدان ج ١ ص ١٩٥

(٢) تدمر بالفتح ثم السكون وضم الميم: مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام — معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٩

(٣) القريتان: اسم لقرية كبيرة من أعمال حمص فى طريق البرية — معجم البلدان ج ٧ ص ٧٠

(٤) حوارين بالضم وتشديد الواو ويختلف فى الراء فمنهم من يكسرها ومنهم من يفتحها وياء ساكنة ونون: من قرى حلب — معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٨

(٥) موضع بالبادية قرب الشام من نواحى العراق مر به خالد بن الوليد رضى الله عنه لما سار من العراق إلى الشام فصالحه بنو مشجعة بن التيم بن النمر — معجم البلدان ج ٧ ص ١١٣

(٦) ثنية العقاب بالضم: ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص — معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤

(٧) مرج راهط: موضع فى الغوطة من دمشق فى شرقيه — معجم البلدان ج ٤ ص ٢١٧، ج ٨ ص ١٦

(٨) بصرى من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران — معجم البلدان ج ٢ ص

من بها ثم صالحوه فكانت بصرى أول مدينة بالشام فتحت صلحا على يد خالد وجند العراق وبعث بالأخماس إلى ابى بكر ثم سار فطلع على المسلمين فى ربيع الآخر وصادف أن جاء باهان مددا لجيوش الروم ومعه القسيسون والرهبان يذمرون الروم ويحرضونهم على القتال فاستبشر المسلمون بخالد وفرح الروم بباهانهم

وقبل البدء فى حروب الشام نرى أن نحدد مركز خالد من حيث القيادة العليا لجيوش الشام وهل كان أميرا على أمراء الجيوش جميعا أم كان أميراً على جنده الذين جاء بهم من العراق فقط مثله مثل غيره من أمراء الأجناد الذين أرسلوا لقتال الروم .

هل كان خالد قائدا عاما لجنود الشام ؟

اختلفت رواية المؤرخين فى مركز خالد بالنسبة للقيادة العامة فذكر الطبرى فى بعض رواياته أن أبا بكر ولاه القيادة العليا لجيوش الشام ومن ذلك قوله : فوجه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين

= ٢٠٨ وبعض الرواة يذكر أن خالدا وجد بها أباعبيدة وشرحبيل ويزيد ففتحوها معا ثم ساروا منها إلى فلسطين مددا لعمرو بن العاص ونحن نختار أن خالدا وحده فى جند العراق هو الذى تولى فتحها لما هو مشهور من ان خالدا هبط على جند المسلمين باليرموك وكما يعلم من كتب أبى بكر وغيرها وفى ذلك يقول شاعر جند العراق :

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع لغسان أنفا فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

معجم البلدان ج ٨ ص ٥٠٥

بالشام ضمهم إليه (١) وقوله فى موضع آخر : وكان بالشام ابو عبيدة وشرحبيل ويزيد وعمرو كل رجل منهم على جند وعليهم خالد بن الوليد (٢) ويقول المقدسى : ثم بعثه إلى الشام وأمره على جميع من بها من المسلمين

على أن الأخذ بهذه الروايات لايستقيم ويترجح القول الذى يرى أنه أمير على جند العراق فقط لأمور منها :

١ — أن خالداً إنما جاء مدداً لأمراء الشام ومعيناً لهم لا أميرا عليهم

٢ — ذكر الطبرى أنه حينما اجتمع الأمراء وتساندوا لقتال الروم كان كل أمير يصلى بجنده اتباعاً لأمر أبى بكر وربما صلى البعض خلف البعض فلما جاء خالد نزل بناحية وصلى بجنده على حدة ولو كان أميراً على الأمراء لصلى بهم وبجندهم

٣ — خطابه المشهور للأمراء بأن يتناوبوا الامارة وأن يدعوه يتأمر عليهم فى غده معناه أنه لم يكن أميراً عاماً وإلا فلا معنى لخطابه ومشورته بتناوب الامارة وطلبه أن يكون أميراً عليهم

٤ — ما قاله البلاذرى من أنه لما قدم خالد بن الوليد على المسلمين بصرى اجتمعوا عليها وأمروا خالداً فى حربها . وهو صريح فى انه لم يكن رئيساً على الأمراء من قبل أبى بكر ولكن الأمراء هم الذين أمروه عليهم لعرفانهم بمقدرته وخبرته بالحروب .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٩

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥١

موقعة اليرموك (١)

كان المسلمون يقاتلون الروم وهم على تساند كل أمير يلى قتال من وجه إليه وهى خطة فى مثل عدد جيش المسلمين لاتنيلهم من عدوهم نيلا فقد كان كل أمير لا يقرن بمن باذائه وأعد له ، فجموع الروم كانت متكاثفة عظيمة بلغت أربعين ومائتى ألف على ماروواه الطبرى بينما جموع المسلمين كانت تبلغ ٣٦ ألفا والمكثر من المؤرخين يقول إنها ٤٦ ألفا ومهما يكن أمر الاختلاف فى عدد الجمعين فان جنود المسلمين كانوا فى قلة بالنسبة للروم

جاء خالد فوجد أمراء المسلمين يقاتلون الروم على تساند يصلى كل أمير بجنده على حدة فعسكر هو أيضا على حدة وصلى بجنده ووجد المسلمين متضايقين والروم نشاط بمدد باهان ولما أن جاءهم خالد نازلوهم فنالوا منهم وألجأوهم إلى خنادقهم فلزموها عامة شهر والقسيسون والرهبان يحضونهم ويذمرونهم وينعون لهم النصرانية حتى أحمسوهم فخرجوا بعد الشهر فى جمادى الآخرة فى تعبئة لم ير الراؤون مثلها قط ولكن إلى حتوفهم وإلى القتال الذى لم يكن بعده مايشبهه

(١) اليرموك : واد بناحية الشام فى طريق الغور يصب فى نهر الأردن ثم يمضى إلى البحيرة المنتنة — معجم البلدان ج ٨ ص ٥٠٥ . وهو نهر معقد وهبته الطبيعة أسرارا وألغازا ينبع من مرتفعات حوران ويصب فى الأردن جنوبى بحيرة طبرية بأميال قليلة وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بالأردن يكون فى الطرف الشمالى فتحه على شكل نصف دائرة تحيط بسهل متسع صالح لمعسكر جيش كبير . وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة وعند مضيق هذه الفتحة عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التى فى الداخل . وهذه البقعة تسمى الواقوصة ذات الشهرة العظيمة فى الوقائع الأسلامية — الأمير على ص ٣٧

أحس المسلمون بخروجهم فارادوا الخروج متساندين فلم يرق ذلك فى نظر خالد ورأى أن تلك خطة أجدى على الروم من أمدادهم وأشد على المسلمين من عدوهم ؛ إذ كيف يقاتلون قوما مجتمعين على رأى وفى نظام وتعبئة وهم على تساند لأن فى ذلك من الوهن واختلاف الرأى وتجزىء قوة المسلمين بتعدد الأمراء ما يطيل أمد القتال ولا ينيلهم من عدوهم خصوصا وأنه أدرك مافيه الروم من نظام ومقدار تحمسهم وتحرقهم لقتال المسلمين وأن مافيه المسلمون أمر يقتضى الحزم والتدبر واجتماع الكلمة والقبض على أزمة الجيش كله وترتيبه ترتيبا مغايرا لما ألفه العرب يتكافأ مع النظام الذى تهيأ لهم فيه عدوهم فقام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة على تساند وانتشار فان ذلك لا يحل ولا ينبغى وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته . قالوا هات فما الرأى ؟ قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم فالله الله فقد افرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا فان هؤلاء

قد تهيأوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاور الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعونى إليكم اليوم ، فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه [١]

عبى خالد الجيش تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك : فجعله ٣٨ كردوسا [٢] وقال : إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبئة تعبئة اكثر فى راى العين من الكراديس فجعل القلب ١٨ كردوسا وعليه أبو عبيدة وفيه عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان . وجعل على كل كردوس رجلا يأتمر بأمر من فوقه رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان رؤساء الكراديس من أهل النجدة والفناء أمثال القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة وعبد الرحمن بن . سيف الله [٣] إلى أمثالهم ممن عرف بالشجاعة والاقدام

لم يكف هذا النظام البديع خالدا بل جعل للجيش طليعة [٤] وعليها قباث بن أشيم وقاضيا وهو أبو الدرداء وقارئا وهو المقداد (كان يقرأ

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٣

(٢) وقد فصل الطبرى فى صفحتى ٣٣ ، ٤٤ من ج ٤ رؤساء هذه الكراديس تفصيلا واضحا والكردوس القطعة من الجيش وكان الكردوس يزيد قليلا عن الألف

(٣) وكان عمره إذ ذاك ثمانى عشرة سنة ــ الطبرى ج ٤ ص ٣٣

(٤) والناظر إلى هذا الترتيب يرى أنه لا يبعد كثيرا عما عليه حال الجيوش فى زماننا إذا تغاضينا عن أنواع الأسلحة التى استحدثت

عليهم سورة الجهاد «الأنفال» كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم من بعد بدر عند لقاء العدو) وصاحب أقباض وهو عبد الله بن مسعود وواعظا وهو أبو سفيان فكان يسير فى الجيش ويقف على الكراديس فيقول : الله الله إنكم زادة العرب وأنصار الاسلام وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك. فأنت ترى أن خالدا لما تولى إمرة الجيش لم يدع أمرا يزيد فى قوة المسلمين ويوقظ فيهم الحماس ويذمرهم ويلهبهم للقاء عدوهم كما أنه من الناحية الأخرى يوقع الرعب فى قلوب أعدائه ويحلل عزائمهم إلا فكر فيه وفعله فى ذلك اليوم

أمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال وكان عليهما القعقاع وعكرمة فخرجا فى حماس وأنشبا القتال والقعقاع يرتجز :

يا ليتنى ألقاك فى الطراد قبل اعترام الجحفل الوراد
وأنت فى حلبتك الوراد

وعكرمة يجاوبه بقوله :

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على مكرمة أحامى (1)

التحم الناس وتطارد الفرسان وخرست الألسن وصمت الآذان الا عن قعقعة السيوف وزئير الفرسان. ثم خرج قائد القلب من جيش الروم وهو «جرجه» حتى كان بين الصفين ونادى ليخرج إلى خالد فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه فواقفه بين الصفين حتى اختلفت

(1) الطبرى ج ٤ ص ٣٤ — وكانت هذه الأراجيز تفعل فعلها فى النفوس فتثير حماسهم وتهيج كامن وجدانهم فكأنها الموسيقى فى استثارة النفوس وتشجيع القلوب

أعناق دابتيهما وقد أمن أحدهما صاحبه فقال جرجه : ياخالد أصدقنى ولا تكذبنى فان الحر لايكذب ولا تخادعنى فان الكريم لايخادع المسترسل بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفا [1] من السماء فأعطاكه فلاتسله على قوم الاهزمتهم قال : لا . قال فيم سميت سيف الله قال إن الله عزوجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين قال صدقتنى ثم أعاد عليه جرجه ياخالد أخبرنى إلى ماتدعونى قال إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله والاقرار بما جاء به من عند الله قال فمن لم يجبكم قال فالجزية ونمنعهم قال فان لم يعطها قال نؤذنه بحرب ثم نقاتله قال فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم قال منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا ثم أعاد عليه جرجه: هل لمن دخل فيكم اليوم ياخالد مثل مالكم من الأجر والذخر قال نعم وأفضل قال وكيف يساويكم وقد سبقتموه قال : إنا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا صلى الله عليه وسلم وهو حى بين أظهرنا تاتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا

---

(١) لعل بعض القوم أشاعوا فى بلاد الشام أن خالدا فى يده سيف نزل من السماء يهزم به أعداءه ، أعطاه له رسول الله وأخذوا ذلك مما اشتهر به بين المسلمين أنه سيف الله ويظهر أن ذلك القائد — ويسميه الطبرى جرجه بن توذر ولعله جورج ابن تيودور — كان يعرف العربية لأنه كلم خالدا بدون ترجمان « تاريخ الاسلام لأستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٩٩

الآيات وحق لمن رأى مارأينا وسمع ماسمعنا ان يسلم ويبايع وإنكم أنتم لم تروا مارأينا ولم تسمعوا ماسمعنا من العجائب والحجج فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا قال جرجه بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ولم تألفنى قال بالله لقد صدقتك ومابى اليك ولا إلى أحد منكم وحشة وإن الله لولى ماسالت عنه فقال صدقتنى وقلب الترس ومال مع خالد وقال علمنى الاسلام فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ثم صلى ركعتين

ولما مال ذلك القائد مع خالد ظن الروم أنها من قائدهم حملة فحملوا فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية وعليهم عكرمة والحارث بن هشام وركب خالد ومعه جرجه - والروم خلال المسلمين - فتنادى الناس فثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم وحرب المسلمون وظهرت العزائم من أهل العزم وزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف فضرب فيهم خالد وجرجه من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ثم أصيب جرجه ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما وصلى الناس الأولى والعصر إيماء [1] وتضعضع الروم ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت تشتد بهم فى الصحراء وأفرج لها المسلمون ولم يحرجوها فذهبت وتفرقت فى البلاد وتركوا رجلهم فى مصافهم فأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه

(١) ثم أخر الناس الصلاة حتى صلوا بعد الفتح الطبرى ج ٤ ص ٣٥

عليهم فعمدوا إلى الواقوصة فهو وافيها. وقد تهافت فيها - على ماذكره الطبرى - ١٢٠ ألفا سوى من قتل فى المعركة وقد استمر القتال النهار كله ومعظم الليل ولم يطلع الصبح الا وخالد فى رواق رئيس جند الروم .

وكانت هذه الموقعة أول فتح أتى عمر بعد وفاة أبى بكر بعشرين ليلة[١]

عظم على قواد الروم ورؤسائهم أن يروا هزيمتهم بأعينهم ففضلوا أن يريحوا أنفسهم من عار الهزيمة والذل فتجللوا برانسهم ينتظرون الموت وقالوا : لانحب أن نرى يوم السوء اذ لم نستطع أن نرى يوم السرور واذ لم نستطع أن نمنع النصرانية فأصيبوا فى تذملهم[٢]

كان لكثير من شجعان المسلمين وفرسانهم أثر يذكر فى تحمس المسلمين وإقدامهم وصبرهم وثباتهم ؛ فهذا عكرمة كان يقول : قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ! ثم ينادى : من يبايع على الموت ؛ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الآزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعا جراحا وقتلوا إلا من برأ[٣] وأتى خالد بعد ما أصبحوا بعكرمة جريحا فوضع رأسه على فخذه ، وبولده : عمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول : كلا زعم ابن الحنتمه

(١) ومع أنها فتحت فى زمن عمر فقد ذكرناها ضمن فتوح خالد فى زمن أبى بكر لأنها تهيأت فى عهده

(٢) وهذه العادة لم تزل إلى اليوم فى بعض القبائل العربية إذا هزم الجيش عمد الرؤساء إلى التذمل وانتظروا الموت ليريحوا أنفسهم من عار الهزيمة — تاريخ الخلفاء لأستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٦

أنا لا نستشهد [١]

وكما كان للشجعان والفرسان نصيب يذكر فى هذا اليوم كان أيضا للنساء نصيب غير منذور ؛ فكن يقمن بسقى الماء ومداواة الجرحى واستنهاض الهمم وإثارة الحماس فى قلوب الرجال بل وقاتلن فى جولة فادين ماعليهن وفعلن مافى مكنتهن [٢]

استشهد من المسلمين فى هذه الموقعة نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من أهل النجدة والغناء وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شهد اليرموك منهم ألف بينهم نحو مائة ممن شهد بدرا [٣]

فى أثناء الموقعة جاء البريد يحمل وفاة أبى بكر وعزل خالد عن الامارة وتولية أبى عبيدة وحين رأى الناس رسول عمر سألوه عما وراءه فأخبرهم بالسلامة والامداد وأسر إلى خالد بالخبر وبما قاله للجند فحمد له رأيه واستحسنه وأخذ الكتاب منه فوضعه فى كنانته ولم يدعه والناس فيما هم فيه لئلا تهن قوتهم حتى إذا ماانتهت الموقعة سلم الكتاب لأبى عبيدة وسلم عليه بالامارة .

انتهى خبر الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميرا وخلفه فيها كما كان أمر على دمشق وودع سوريا الوداع الأخير بقوله : سلام عليك ياسوريا سلاما لا لقاء

---

(١) يريد بابن الحنتمة عمر بن الخطاب

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٦

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٤ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٨١

بعده . وقد أكثر الشعراء القول فى هذه الموقعة . فمن ذلك قول القعقاع ابن عمرو :

ألم ترنا على اليرموك فزنا   كما فزنا بايام العراق

قتلنا الروم حتى ما تساوى   على اليرموك مفروق الوراق

فضضنا جمعهم لما استحالوا   على الواقوصة البتر الرقاق

غداة تهافتوا فيها فصاروا   إلى أمر تعضل بالذواق [1]

كانت هذه الموقعة من المواقع الفاصلة فى تاريخ الشرق وبعبارة أدق بين المسلمين والروم فقد تقلص سلطان القياصرة عن رقعة فسيحة وظهر سلطان الاسلام وتتابعت بعدها فتوح المسلمين فى بلاد بنى الأصفر

إن ما حصل فى تلك الموقعة يصلح تطبيقا عمليا على فنون القتال وقيادة الجيوش وهو درس جليل لمن يريد أن يمهر فى فن التعبئة وملاقاة الأعداء : ذلك إن خالدا جاء إلى الشام والمسلمون يقاتلون عدوهم على تساند فى حين أنه يرجع إلى رأى واحد وهو فوق ذلك لديه من العدد والعدد أضعاف ماعند المسلمين وفى نظام وتعبئة لا قبل لجيوش المسلمين بها ماداموا على حالهم من التساند وهنا ظهرت تلك المواهب وذلك الاستعداد الفطرى للحروب يساعفه تلك المهارة والخبرة الحربية التى استفادها خالد من بيئته وطول ممارسته لملاقاة الأعداء فنادى فى المسلمين وخطبهم وبين لهم خطا قتالهم على تساند وأن حال المسلمين فى مثل موقفهم لا يصلحها إلا توحيد القيادة ورجع الأمر لرئيس واحد يصدر الجيش كله عن رأيه وكان ما أراد وأمن على رأيه قواد المسلمين فتسلم إمرة الجيش وعباه تعبئة

(١) معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٩

خالدية لاعهد للعرب بها فكان صاحب اليوم المشهود

ولقد عرف الضابط العظيم المرحوم سليم بك الجزائرى[١] (مدرس فن السوقيات فى مدرسة أركان الحرب فى الاستانة بعد سنة ١٩٠٨) لخالد فضله فى الحروب وخبرته بأساليبها فكان دائما يقرر القاعدة فى فن تعبئة الجيوش ويضرب لذلك المثل بفعل خالد بن الوليد فى إحدى وقائعه ثم بغيره من قواد أوربا ذوى المهارة الحربية

وما اشبه حال المسلمين فى تساندهم بحال جيوش الحلفاء فى الحرب العظمى كل دولة لها قائدها يصدر أمره لجنده تبعا لرأيه فلما عضتهم الحرب ونال منهم الألمان ابتدأوا يفكرون فى إنقاذ موقفهم وأخيراً تأسوا بخالد ووحدوا قيادتهم ونسوا أنفسهم فى سبيل غايتهم فكان النصر فى جانبهم

على أن هناك فرق بين الحالتين فخالد اضطلع بهذا الأمر وحده والحلفاء لم يستطيعوا ذلك إلا بعد أن عقدوا المجالس العسكرية واجتمع رجال حربهم مرات عدة ودامت المفاوضة بينهم فى ذلك أكثر من سنتين[٢] وخالد لم يترب فى مدرسة للحربية والحلفاء تخرج رجالهم من أرقى مدارس الحربية فى العالم وخالد رأى هذا الرأى منذ ثلاثة عشر قرنا مضت والحلفاء عرفوا ذلك بعد مضى هذا الوقت الطويل ولولا ان الحلفاء

---

(١) سليم بك الجزائرى: ضابط عظيم من أبناء مهاجرى الجزائر الذين نزلوا الشام مع الأمير عبد القادر الجزائرى المجاهد الشهير وقد تعين مدرساً لفن السوقيات بمدرسة أركان حرب الدولة العثمانية وكان من ضحايا جمال باشا السفاح المشهور فى أيام الحرب العظمى ــ اهـ عن استاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار

(٢) صحيفة الجهاد العدد ١٤٦

كانوا مختلفى الأغراض والغايات وخالد والمسلمون من أمة واحدة وغايتهم واحدة لقلنا إن المستوى الفكرى الحربى لخالد والمسلمين - ولو فى هذه الموقعة على الأقل - أرقى وأسبق للمستوى الفكرى الحربى للحلفاء

نظر رجل يومئذ إلى الروم فقال ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد : « ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا فى العدد » [1]

ولعمرى إن الانسان ليحار فى وصف هذه النفس الكبيرة وثقتها بالنصر حتى فى أشد الأهوال وأحرج المواقف . ماهذا اليقين وماهذه القوة النفسية ؟ قائد يرى أنه لا يقرن لعدوه فى عدده ويبصر نظامه وبديع ترتيبه وتعبئته ثم يستهين به إلى هذا الحد ويقول : إنما تكثر الجنود بالنصر اللهم إن هذا نور الايمان وهدى الاسلام يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام

لم يشأ خالد وقد خرج إليه قائد من قواد الروم يسأله عن سبب تسميه بسيف الله أن يعمى عليه الأمر أو يخدعه ويكذب عليه - وكان فى مكنته ذلك - أبت نفسه إلا أن يصارحه ويعلمه بالواقع ولم يفته أن يحبب إليه الاسلام ويدعوه إليه — رغم ماهو فيه من شدة — فكان ذلك سببا فى إسلام الرجل وهدايته وهكذا يضرب لنا خالد مثلا أعلى من أمثلة الصراحة والحق والدعوة إلى الدين

---

(١) الأشقر اسم فرسه وكان قد حفى فى مسيره وتفويزه من قراقر إلى سوى - راجع الطبرى ج ٤ ص ٣٤

وإذا أردت أكثر من هذا فاستمع إلى درس التضحية والجهاد ففى الوقت الذى ينتظر الناس له فيه أعظم المثوبة والجزاء وأسمى مراتب التقدير والرضى فاجأه أمر الخليفة بالعزل — والمعركة فى أشدها — فما غضب ولا حقد ولكنه بقى على وفائه من النجدة والاقدام والجد فى الجهاد والبأس فى مناضلة العدو، لم تضعف حميته ولم تخمد جذوة إخلاصه لدينه بل ظل « جنديا فى نفس قائد، وقائدا فى صورة جندى » يقود الجيش ويمده برأيه وتدبيره ويفعل الأعاجيب فى قتال الروم وهو يعلم أنه معزول ونتيجة الحرب قد ألقيت على عاتق سواه حتى هزم عدوه وظفر به

لو كان هذا العزل لقائد من قوادزماننا لخبثت نفسه وفسدت سريرته وعمل على أن يخذل من يخلفه وربما تربص الدوائر بتلك الأمة التى لم تعرف له حقه

تلك نفس لا تعد فى الصفوف المألوفة من نفوس البشر تلك هى نفس خالد بن الوليد الذى لم يكن فى يوم من الايام الا قائدا يعزله عمر بن الخطاب ويصبح جندياً مجرداً من صفاة الرياسة والامارة فما ونى ولا وهن ولا خان ولا ضعف ولم يلتفت لحبه لأبى بكر ولا لبغضه لعمر ولكنه التفت لدينه وإمامه فقال : الحمد لله الذى قضى على أبى بكر الموت وكان أحب إلى من عمر والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلى من أبى بكر ثم ألزمنى حبه (١)

والذين يذكرون ماصنع مستر «تشرشل» حين عزل من وزارة البحرية أيام الحرب الكبرى وأنه ذهب إلى ميدان القتال جندياً فرداً يعرفون

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٧

اليوم أنه إنما كان يتمثل بخالد وأن هذه العظمة الخلقية التى تظهر فى أفراد الأمم العظيمة كانت للاسلام قبل الانجليز بأربعة عشر قرناً ، وهى هى سر نجاح أولئك ونجاح هؤلاء ونجاح من يوهبها من الأمم [١]

اللهم إن نفساً تحمل هذا الاخلاص لدينها وتبقى على ما عرف عنها من بأس وقوة لهى النفس المؤمنة التى تطلب رضوان الله وكفى وسواء عليها أن تجاهد فى الله تحت لواء غير لوائها أو تغزو ولها السلطان ، تلك هى النفس المطمئنة الراضية المرضية التى يقول الله فيها « فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

وبانتهاء هذه الموقعة تنتهى الأعمال الجليلة والفتوحات العظيمة التى تمت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه على يد خالد وكان فى جميعها موفقاً مسدداً موضع ثقة الخليفة، ونفتتح عصراً جديداً يبتدىء بتولية عمر وعزل خالد عن الامارة ويظهر فيه خالد بمظهر الجندى الكريم الذى وهب نفسه وحياته لدينه وأمته .

(١) افتتاحية صحيفة الاهرام العدد ١٦٦٨٠ - مقال لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد سليمان القاضى بالمحكمة العليا الشرعية

الباب الرابع

أعمال خالد وفتوحه

زمن عمر رضى الله عنه

(١) فتح دمشق (٢) فحل (٣) مرج الروم (٤) حمص (٥) الحاضر (٦) قنسرين (٧) الخلاف بينه وبين عمر وما آل إليه (٨) الناحية الدينية له (٩) صفته واخلاقه (١٠) بيته (١١) وفاته

دمشق [١]

انتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم وتهافتهم فى الواقوصة وبعزل خالد وتامير أبى عبيدة. وحين انتهى أبو عبيدة من أمر اليرموك فقسم الأنفال وبعث بالأخماس والوفود إلى المدينة استخلف على اليرموك بشير بن كعب الحميرى حتى لا يغتال بردة ولا تقطع الروم [٢] عليه موارده وسار حتى نزل بالصفر وهو يريد اتباع القالة فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وأن مدداً من حمص أتى أهل دمشق فكتب إلى عمر يستطلع رأيه فى البداءة بأى الناحيتين : فحل أو دمشق. وأقام بالصفر

---

(١) دمشق بكسر أوله وفتح ثانيه : هكذا رواه الجمهور والكسر لغة فيه وشين معجمة وآخره قاف. البلد المشهورة قصبة الشام ـ معجم البلدان ج ٤ ص ٧٢

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٦

ينتظر رأى عمر فأتاه جوابه يقول فيه : «أما بعد فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم . . . . . »

صدع أبو عبيدة بالأمر وأرسل إلى فحل عشرة قواد عليهم عمارة ابن مخش وبعث ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءاً كذلك سرح علقمة بن حكيم ومسروقا حتى كانا بين دمشق وفلسطين وبذلك أمن أبو عبيدة من وصول المدد إلى دمشق فسار بمن معه حتى حاصروا دمشق ونزلوا على أبوابها : فنزل عمرو بن العاص بباب « الفراديس » ونزل شرحبيل بباب « توما » وقيس بن هبيرة بباب « الفرج » وأبو عبيدة بباب « الجابية » ونزل خالد بالباب الشرقى . وشدد المسلمون الحصار عليها واستمروا على ذلك نحوا من سبعين ليلة وهم يحاولون فتحها بالزحوف والترامى والمجانيق وأهلها معتصمون بها يرجون الغياث ويأملون فى نجدة هرقل فلما يئسوا من الغياث وأيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم سقط فى أيديهم وأبلسوا فى أمرهم وزادفى وهنهم أنهم كانوا يظنون قفول المسلمين إذا نزل البرد ولكن خاب ظنهم وانقطع رجاؤهم

كان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يبيت إلا على تعبئة ولا يخفى عليه من أمر عدوه شىء عيونه ذاكية وهو معنى بما يليه فبلغه أنه ولد لبطريقهم مولود وأنه صنع طعاما ودعى القوم يأكلون ويشربون وهم غافلون عن مواقفهم وكان قد اتخذ أوهاقا وأحبالا كهيئة السلاليم فلما أمسى ذلك اليوم انتهز هذه الفرصة ونهض فيمن معه من جنده الذين قدم بهم من العراق وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى فى أمثالهم

وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا للباب فلما انتهى إلى الباب الذى يليه فيمن معه من أصحابه رموا بالحبال الشرف - وكان على ظهورهم القرب التى قطعوا بها الخندق - فما أن ثبت لهم وهقان حتى تسلق فيهما القعقاع ومذعور ولم يدعا أحبولة إلا أثبتناها - وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخلا - وتوافوا لذلك حتى إذا استووا على السور حدر خالد عامة اصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمى المرتقى لمن يرتقى وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهد المسلمون ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فقتلهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين وأعملوا السيف فى المقاتلة حتى لم يبق مما يلى باب خالد مقاتل والتجا من أفات إلى أهل الأبواب التى تلى غيره

كان المسلمون قد دعوا أهل دمشق إلى المشاطرة فابوا وأبعدوا فلما استحر فيهم سيف خالد عرضوا ما رفضوا وبذلوا الصلح فأجابهم المسلمون وقبلوا منهم وفتح الروم الأبواب للمسلمين وقالوا لهم : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحاً وتسكينا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحا . وكان صلحهم على المقاسمة الدينار والعقار وعلى كل رأس دينار واقتسم المسلمون أسلابهم فكان أصحاب خالد فيها كاصحاب بقية القواد

وجعلوا على كل جريب أرض جريبا إلا ما كان للملوك ومن صوب إليهم فوقف فيأ [١]

غزوة فحل [٢]

انتهى المسلمون من أمر دمشق وتبعاً لرأى الخليفة وما يوجبه الحزم قصدوا فحل إذ من الخرق أن يتجهوا إلى حمص أو غيرها من بلاد الروم ووراءهم تلك القوة العظيمة التى قال عنها المؤرخون : إنها ثمانون ألفا [٣] خصوصا وأن من بفحل جنة الروم وإليهم ينظرون وأن الشام بعدهم سلم

خلف أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان على دمشق وسار يريد فحل وأمير الناس شرحبيل بن حسنة ـ إذ هو صاحب السلطان فى تلك المنطقة من قبل أبى بكر ـ وهو ممن سبقت له حروب تحت إمرة خالد وقد خبره وعرف له مقدرته الحربية ولذا فانا نراه قد جعله على مقدمته [٤] حين قصدوا فحل وهذا من غير شك تكريم لخالد ـــ وهو رئيسه القديم وأستاذه فى الحروب ـــ وعرفان لفضله عليه

كان الروم قد بثقوا عليهم المياه حينما وجه أبو عبيدة القواد إليهم

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٨ ـ وهذه الموقعة تعد من ضمن المواقع التى يتجلى فيها نبوغ خالد وفوقه فى الحروب وخدعها

(٢) بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره لام اسم موضع بالشام . . . . وكان يوم فحل يسمى أيضا يوم بيسان ـ معجم البلدان ج٦ ص ٣٤٠

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٥٩

(٤) وجعل أبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه وعلى الخيل ضرار بن الأزور وعلى الرجل عياض

وهم فى مرج الصفر فأردغت الأرض ثم وحلت واغتم المسلمون لذلك فى بادىء الأمر ولكن تبين أن ذلك فى مصلحتهم إذ قد حبسوا عن المسلمين بها ثمانين ألف فارس [1] «وعلى نفسها جنت براقش» وبعد حصار دام طويلا ظنوا بالمسلمين غرة فهجموا عليهم واقتتلوا أشد قتال ليلتهم ويومهم إلى الليل فلما جن الليل عليهم حاروا وانهزموا وهم حيارى وضلوا الطريق وأسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل وركبهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا الشريد. وانصرف أبو عبيدة بخالد يريد حمص

وقعة مرج الروم وأثر خالد فيها

لما وصل إلى هرقل خبر هزيمة جنده فى دمشق والأردن وأن نية المسلمين اتجهت لقصد حمص أرسل إلى المسلمين جيشاً تحت قيادة توذر البطريق وأردفه بآخر مثله وعليه شنس الرومى مدداً له ورداءً لأهل حمص

التقى المسلمون بالجيش فى مرج الروم غربى دمشق فكان أبو عبيدة بازاء شنس وخالد بأزاء توذراً وأصبح المسلمون وأمامهم شنس والأرض خلو من توذر [2]

أتى خالد الخبر بأن توذراً فيمن معه قد سار نحو دمشق فأجمع رأيه ورأى أبى عبيدة على أن يتبعه فاقتفى أثره وقد ظن ذلك الغر أنه سوف لا يلقى إلا حامية دمشق وأنه سيقتص للروم ويكيد للمسلمين ويضع يده على

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٧ - فكان أهل فحل أول محصور بالشام ثم من بعدهم أهل دمشق

(٢) يظهر أن تلك مكيدة دبرت بين قائدى الروم للنيل من المسلمين

دمشق ولم يدر أن خالدا من ورائه وفى أثره وأنه يتحرق لملاقاته فما ان نشبت المعركة بينه وبين يزيد بن أبى سفيان ـ الذى خرج لملاقاته حين بلغه مسيره إليه ـ حتى لحقه خالد وطلع عليهم من خلفهم فأخذتهم رماح يزيد من أمامهم وسيوف خالد من خلفهم فلم يفلت منهم إلا الشريد وقتل خالد توذراً وفى ذلك يقول :

نحن قتلنا توذراً وشوذرا وقبله ماقد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأ كيدرا

وقسم فىء هذه الموقعة بين أصحاب خالد ويزيد وانصرف خالد راجعاً إلى أبى عبيدة وكانت هذه الموقعة فى السنة الخامسة عشرة للهجرة [١]

حمص [٢]

بلغ هرقل ما صنع المسلمون بجنده فسار عن حمص وأمر عامله عليها بالتحصن وأن لاينازل المسلمين إلا فى كل يوم بارد رجاء أن يهلكهم البرد

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعلبك وقدم إليها السمط بن الأسود الكندى وأرسل خالدا إلى البقاع فسار إليها خالد وافتتحها وسار أبو عبيدة حتى نزل على حمص وجاء بعده خالد فنزل عليها ـ بعد أن فتح البقاع ـ

(١) راجع الطبرى ج ٤ ص ١٥٣

(٢) بالكسر ثم بالسكون والصاد مهملة بلد مشهور قديم كبير مسور . . . وهى بين دمشق وحلب فى نصف الطريق . . . وبها دار خالد بن الوليد وقبره وقبر زوجته وقبر ابنه عبدالرحمن وعند قبر خالد قبر عياض بن غنم ـ معجم البلدان ج ٣ ص ٣٤٠

وحاصرها المسلمون وشددوا عليها الحصار فلما ذهب الشتاء وانقطع الرجاء طلبوا الصلح فصالحهم المسلمون

الحاضر

بعد أن فتحت حمص أرسل أبو عبيدة خالدا إلى قنسرين فلما نزل الحاضر التقى بجيش للروم عليه ميناس ـ وهو أعظمهم بعد هرقل ـ فقاتلهم قتالا شديدا وقتل ميناس وتساقط الروم عليه حتى هلكوا عن آخرهم.

أرسل أهل الحاضر إلى خالد يعتذرون إليه بأنهم حشروا كرها ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم

قنسرين[1]

لما انتهى خالد من الحاضر سار حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم: « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا[2] » فنظروا فى أمرهم وذكروا ما لقى أهل حمص وغيرها من البلدان فطلبوا الصلح على مثل صلح حمص فأبى إلا على خراب المدينة وكان ما أراد فأخربها

كان هرقل قد ترك حمص إلى الرها فلما أباد خالد الروم بالحاضر وأخرب قنسرين يئس من بقاء الشام فى يده فودع سوريا وداع الحزين بقوله: « عليك السلام ياسورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبدا »

---

(١) بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم ثم سين مهملة . . . وهو كورة بالشام منها حلب بينهما مرحلة من جهة حمص ـ معجم البلدان ج ٧ ص ١٦٩

(٢) ثقة هائلة بنصر الله وهى تكشف لنا عن نفس خالد العبقرية

وكانت وقعة خالد بالروم فى الحاضر وقنسرين مدعاة لأن يغير عمر رأيه فيه ويرضى عنه . قال الطبرى: فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه [١] وقال فيه قولته المشهورة : « أمر خالد نفسه يرحم الله ابا بكر هو كان أعلم بالرجال منى » وهذا رجوع صريح من عمر عن رايه فى خالد وشهادة تعتبر بحق أكبر مدح له لصدورها من عمر

مرعش [٢]

بعد أن فتحت قنسرين سار خالد إلى مرعش ففتحها وأجلى أهلها وأخربها وفتح حصن الحدث [٣]

الآن وقد انتهينا من فتوح خالد وأعماله لا يفوتنا أن نعرض بكلمة عما يردده بعض المغرضين الذين فى أعينهم قذى، وران على قلوبهم كراهة الاسلام وأهله من أن انتصار خالد على دولتى الفرس والروم واقتطاعه جانباً كبيرا من أرضيهما فى ذلك الوقت الوجيز لم يكن لثقة المسلمين باحدى الحسنيين ولا بتأييد الله لهم لاظهار دينه ولا لكفاية قوادهم ودربة جنودهم وتالف قلوبهم وإنما كان لأمر عارض تصادف وجوده والعرب فى بدء نهضتها ذلك هو ما كانت فيه الدولتان من اختلاف واضطراب فى الداخل . وهو كلام يبدو صحيحا لكن لمن ينظر فى بعض من حقائق التاريخ ويأبى إلا أن يغمض عينيه عن بعض ؛ لأنا رأينا كلتا الدولتين

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٥٥ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٤

(٢) مرعش بالفتح ثم السكون والعين مهملة مفتوحة وشين معجمة مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم — معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥

(٣) تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٦٠

تحشد لجموع المسلمين جيوشاً جرارة متصلة المدد وهما فوق ذلك لهما عهد بتسيير الجيوش وتعبئتها ولقد رأينا فى بعض المواقع أنهم لما يأبهوا بالعرب ولم يشكوا فى القضاء عليهم وكانوا يعتقدون أن العرب إذا مادارت رحى الحرب انكفأوا راجعين إلى باديتهم ليتواروا فيها

هذه هى الحقيقة التاريخية التى لا مرية فيها وحسب الناظر أن ينظر إلى موقعة اليرموك والأعداد التى حشدها الروم لملاقاة المسلمين والتعبئة التى خرجوا فيها والتى لم ير الراؤون مثلها قط فانه لايختلجه شك فى صحتها ولكن بعض المرضى بكراهة المسلمين الذين يعز عليهم أن يكون فيهم أمثال خالد لما لم يروا بدا من الاعتراف بغلبة المسلمين وانتصاراتهم المتوالية وزلزلة الدولتين على أيديهم فى ذلك الوقت الوجيز ذهبوا يتلمسون المعاذير ويتبردون بكؤوس الباطل وهى معاذير كما ترى أوهى من باطلهم ولابد للحق أن يعلو ولو كره المبطلون

هذا ولا يفوتنا أن نقول إن هذه الوقائع التى حصلت بين المسلمين والروم فى بلاد الشام قد اتفق المؤرخون على حدوثها ولكنهم اختلفوا فى ترتيبها وأزمان حدوثها

ترتيب الوقائع وازمان حدوثها[1]

وسنذكر فيما يلى رواية بعض المؤرخين فى ترتيبها وما اخترناه نحن مع بيان وجه الاختيار :

ذكر البلاذرى[2] أن خالدا اجتمع مع المسلمين فى بصرى وأنهم

(١) هذا الفصل وإن كان أنسب وله قيمته فى تاريخ الفتوح إلا أنا قد رأينا أن الفائدة من اثباته تبرر ذكره فى تاريخ خالد

(٢) ص ١١٩ ومابعدها

أمروه فى حربها ثم ذكر موقعة أجنادين وأنها كانت فى جمادى الأولى أو جمادى الآخرة من سنة ١٣ وأن ممن قتل بها عكرمة بن أبى جهل وهبار ابن سفيان وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد بن العاصى وأخيه أبان وجندب ابن عمرو الدوسى الخ ثم ذكر بعدها موقعة سماها الياقوصة انتصر فيها المسلمون وأتاهم فى هذه الموقعة نعى أبى بكر وبعدها كانت فحل «٢٨ القعدة سنة ١٣» ثم مرج الصفر «محرم سنة ١٤» وأن دمشق كانت فى رجب سنة ١٤ ثم بعدها حمص، وأن اليرموك كانت فى رجب سنة ١٥

واليعقوبى [1] يقول: وافاهم «يعنى خالدا» فافتتحوا بصرى وفحل وأجنادين من فلسطين . . . وكانت أجنادين يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣، ثم مرج الصفر ثم دمشق فى رجب سنة ١٤ ثم فحل ثم حمص وتراجع أبو عبيدة فعسكر بالمسلمين على اليرموك لما بلغه ما جمع هرقل وكانت وقعة اليرموك سنة ١٥ وبعدها رجع أبو عبيدة الى حمص

ورتبها الطبرى فيما عدا روايته عن ابن اسحاق على الوجه الذى ذكرنا. وسنبدى ملاحظاتنا على هذا الترتيب مبينين وجه اختيارنا للطريق الذى سلكناه

١ — ذكر البلاذرى وقعة فحل قبل دمشق وهذا يتنافى مع كتاب عمر الذى يأمر فيه أبا عبيدة بأن يبدأ بدمشق لأن فيها قوة الروم «وقد تقدم نص الكتاب»

واليعقوبى اضطرب فذكرها مرة قبل أجنادين ومرة بعد دمشق ولم نر من وافق اليعقوبى على هذا الرأى

(١) ج ٢ ص ١٦٠

والطبرى ذكرها بعد دمشق وهو يوافق رأى اليعقوبى فى أحد موضعيه كما يوافق كتاب عمر لابى عبيدة وهو الأوفق من الوجهة الحربية لأن فى ذلك قصد القوة الكبرى للعدو [1]

٢ — ذكر البلاذرى موقعتين سمى إحداهما الياقوصة وقال إنها التى جاء المسلمون فيها نعى أبى بكر وسمى الثانية اليرموك وقد رجعنا لمعجم البلدان وكتب التاريخ التى بين أيدينا فلم نجد فرقا بينهما فالياقوصة ضفة اليرموك ولم نر من المؤرخين من ذكر أن هذا المكان قد حصل فيه موقعتان. على أنا قد رأينا كلاما لبعض المؤرخين المحدثين يتضمن أن اليرموك يطلق على مكانين فان صح ذلك فلا مانع من أن يكون هناك موقعتان فى كل مكان موقعة ولكنه كلام يعوزه الاثبات

٣ — ذكر البلاذرى واليعقوبى والطبرى فى روايته عن ابن اسحاق وقعة اجنادين قبل دمشق وأنها كانت فى جمادى الأولى أو الآخرة سنة ١٣ وأن اليرموك كانت سنة ١٥

والطبرى فيما عدا روايته السابقة قد عكس فذكر اليرموك سنة ١٣ واجنادين سنة ١٥، وقبل الحكم برجحان إحدى الروايتين نقرر:

١ — إن القتلى الذين ذكرهم البلاذرى فى اجنادين هم بعينهم الذين ذكرهم الطبرى فى اليرموك وأن السبب الحامل لاجتماع المسلمين باليرموك على رأى البلاذرى واليعقوبى هو بعينه الحامل على اجتماعهم فى اجنادين على رأى الطبرى

---

(١) وكذلك فعل الألمان فى الحرب العظمى إذ وجهوا قواتهم الرئيسية إلى الميدان الغربى ووضعوا فى الميدان الشرقى قوة بسيطة تقف فقط فى وجه العدو

ب — إن المؤرخين اتفقوا على حدوث هاتين الموقعتين إحداهما قبل فتح دمشق والأخرى بعدها

ج — إن اليرموك واجنادين مكانين مختلفين: فاليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الأردن ، واجنادين من الرملة من كورة جبرين

ويمكن تلخيص الخلاف بين المؤرخين فى أى الواقعتين كانت قبل دمشق ونحن نميل إلى أن اليرموك كانت قبل دمشق وان اجنادين بعدها وذلك : —

١ — لأن كتاب أبى بكر لخالد الذى يأمره فيه بالمسير إلى الشام لاغاثة المسلمين صريح فى ذلك « أن سرحتى تأتى جموع المسلمين باليرموك . . . . . . »

٢ — صرح بذلك ياقوت فى معجمه ج ٨ ص ٥٠٤

٣ — الأبيات التى قالها القعقاع بن عمرو حين سار جيش العراق لنجدة المسلمين بالشام تصرح بذلك وأنهم اجتمعوا مع المسلمين باليرموك ومنها : —

وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

٤ — الطبرى فيما عدا روايته عن ابن اسحق ذكر أن اليرموك قبل دمشق

٥ — ضعف الطبرى [1] رواية الواقدى التى تقول: بأن اليرموك

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٩

سنة ١٥ إذ يقول ما نصه : « وزعم - يعنى الواقدى - أن وقعة اليرموك كانت فى سنة خمسة عشر

على أن روايته عن ابن اسحاق التى تقول بأن اجنادين سنة ١٣ ودمشق سنة ١٤ واليرموك سنة ١٥ يرتد آخرها بالمنافاة على أولها فقد صرح فى أولها بأن عزل خالد كان والمسلمون على دمشق سنة ١٤ وفى نهايتها يقول : ولم يزل عمر عليه - يعنى خالداً - ساخطاً ولأمره كارهاً فى زمان أبى بكر كله لوقعته بابن نويرة وما كان يعمل به فى حربه فلما استخلف عمر كان أول ما تكلم به عزله . وهذا صريح فى أن العزل كان فى بدء خلافة عمر يعنى فى منتصف سنة ١٣ مع أنه فى صدر روايته يقول : إن عزله كان وهم على دمشق سنه ١٤

٦ - ويقول ابن برهان الدين [٢] : « فان الصديق رضى الله تعالى عنه توفى وهم فى الاستعداد للقتال باليرموك »

٧ - إن اليرموك من أقليم الأردن وأجنادين من فلسطين والمسلمون بعد فتح دمشق كانت أقدامهم قد ثبتت فى إقليم الأردن بأكمله بينما كان إقليم فلسطين لا يزال الكثير من مدنه كبيت المقدس وغيره تحت حكم الرومان وفيه كثير من جنودهم ولما يفتحه المسلمون بعد ، فالمعقول إذن أن جيوش الروم حينما سار بها هرقل يريد المسلمين تجتمع فى بلد خاضع لها وبين أقوام ينصرونها ليكون ذلك أسلم عاقبة وأضمن للنصر ولا يعقل أن يخاطر الروم بجيوشهم فيقصدوا المسلمين بالأردن ، وعلى هذا فالموقعة فى فلسطين لا الأردن وبعبارة أخرى فى أجنادين لا فى اليرموك

(١) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦٣

ولهذا فقد اخترنا أن اليرموك قبل دمشق وأن الموقعة التى بعدها هى أجنادين . ولايبعد أن يكون قد حدث بأجنادين موقعتان : إحداهما قبل اليرموك والثانية بعد دمشق فى سنة ١٥ ويكون البلاذرى واليعقوبى قد ذكرا الأولى ولم يلتفتا للثانية رغم أنها كانت من المواقع الهامة وهى التى كان لعمرو بن العاص فيها القدح المعلى وفيها يقول عمر : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب . ويرشح هذا أن الطبرى فى بعض رواياته ذكر أجنادين قبل اليرموك ثم عقد لها فصلا خاصاً وذكرها ثانية بعد دمشق

هذا ولعل اختلاف روايات المؤرخين واضطرابهم فى ترتيب الحوادث مرده تتابع الغزوات والوقائع فى سنى ١٣ و ١٤ و ١٥ وربما كانت واقعتان فى وقت واحد فيذكر أحد الرواة إحدى الواقعتين قبل الأخرى ويعكس راو آخر ثم يأتى من يروى عن كل منهما فيرتبهما ترتيباً زمنياً مختلفاً وربما انتقضت بلد فأعاد المسلمون فتحها فيذكر راو الفتح الأول ويعتمد آخر الفتح الثانى فلا بدع إذن أن ينشأ الاختلاف والاضطراب .

النفور بين عمر وخالد ، ما آل إليه

أسبابه ، العزل ومتى كان . أثر العزل فى نفس عمر ، أثره فى نفس خالد . اثره فى نفوس الامراء . اثره فى نفوس الجند ، ما آل اليه الخلاف بينهما

أسبابه :

وقبل الكلام على الأسباب التى أدت إلى هذا النفور والأحوال التى زادته ورشحته نرى أن نلم إلمامة خفيفة بأخلاق كل منهما وفى ضوء ذلك نسير لتعرف أسباب هذا البغض

فمن أخص أوصاف عمر : —

١ — حب الحق للحق وتحت كل العوامل والمؤثرات ولا يعدل ذلك عنده أى شىء مهما جل

٢ — مصلحة المسلمين عنده فى المقام الأول ، ورضى العامة عنده هو المهم وسواء لديه أرضى عماله أم سخطوا

٣ — الشدة على عماله ومراقبتهم مراقبة شديدة دقيقة حتى إنه كان لا يخفى عليه شىء من أمورهم

٤ — يرى أنه لا يحق للعمال التصرف فى شىء إلا بأمره ولا سيما ما كان خاصاً بالأمور المالية فقد أثر عنه أنه كان يقول : « أنا تاجر المسلمين »

٥ — كان رجلا متقشفا ويعجبه من عماله أن يكونوا على مثاله ومن رأيه أن تظل الأمة العربية على تقشفها وبداوتها ولا يرغب فى أن تنغمس فى نعيم الدنيا حتى لا تركن إلى الراحة فالخمول [1]

(١) وفى الحق لو استمرت الأمة الاسلامية على هذه الخطة التى كان يريدها لها عمر لما نالها الضعف والوهن

ومن أخص أوصاف خالد : —

١ — حب الحق للحق إلا أنه ربما تساهل فى ساعات الحرب فى بعض أمور صغيرة إذا رأى مصلحة المسلمين فى ذلك وهو تساهل الحكيم الذى أيدته الشريعة الاسلامية حين رأت ألا تقام الحدود فى الحرب

٢ — يرى أن العمال والأمراء يحسن أن يكون لهم بعض الحرية والاختيار ، وبالتالى ليس أمر الخليفة واستطلاع رأيه أمراً لازماً فى كل الأحوال فلا مانع عنده أن يعمل الأمير برأيه فى بعض الأمور التى ربما فاتت فرصتها انتظارا لأمر الخليفة

٣ — لا بأس عنده من التنعم والرفاهة ما دام ذلك فى حدود الدين[١]

٤ — كان رجل حرب وهذا يستلزم أن يكون فى طباعه شىء من الشدة والقسوة والنصر على الأعداء عنده الغاية تبرر أى وسيلة كانت

من هذا التمهيد المجمل يمكن أن نقول إن الرجلين وإن اتفقا فى حب الحق وتقديم مصلحة المسلمين لكن لكل منهما وجهة تغاير وجهة الآخر ومبررات تبرر رأيه وفى طباع كل منهما نوع من الشدة فالمعقول إذن أن يصطدما تبعاً لأخلاقهما واختلاف وجهتى نظريهما فى بعض الأمور

ولم يظهر لوجهتى نظريهما أثر فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لم تكن فى زمنه عليه السلام شخصية كائنة ما كانت تطمع فى أن يكون لها رأى يقرن برأيه صلى الله عليه وسلم وإنما غاية أحدهم أن يسأل عما لا يعرف

فلما جاء زمن أبى بكر ابتدأ أجلاء الصحابة وأهل السابقة والفقه منهم

(١) فقد أثر عنه دخول الحمام وإجازة الأشعث بعشرة آلاف

يدلون برأيهم فيما يجد من أمور وكان عمر فى زمن أبى بكر كالوزير له يستشيره وكثيراً ما يعمل برأيه . ومن هذا الوقت ابتدأ دور البغض والخلاف بين عمر وخالد يظهر فى صورة محسة عندما تعرض مناسبة لذلك بيد أنه لم يتمكن من عزله زمن أبى بكر لأنه كان سهلا ليناً عنده مرونة لا يقيد من عماله ويرى أن يتغاضى عن بعض الشىء من خطئهم فى سبيل المصلحة العامة التى تعود على المسلمين من أعمالهم وفى الحق أن أبا بكر كان فى حاجة لسيف خالد (لأنه الذى فقأ عين الردة وزلزل عروش الأكاسرة والقياصرة ومهد السبيل للفتوح العظيمة التى تمت بعد) وليس من السياسة فى شىء عزله فى زمن ابى بكر بل ولا فى زمن عمر . ومن رأينا أن عمر رضى الله عنه كان متحاملا على خالد . وقد اعترف عمر بسداد نظر أبى بكر فى خالد إذ يقول : «رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى»

ولما تولى عمر بادر بعزله وسنذكر فيما يلى بعض ما قاله المؤرخون فى أصل العدواة بينهما مما كان له أثر كبير فى عزله

أصل العداوة بين عمر وخالد :

ذكر ابن عساكر [1] وابن برهان الدين أن السبب فى هذا البغض هو تصارعهما وهما غلامان وكسر خالد ساق عمر وأن البغض مازال بينهما حتى تولى عمر فعزله . ونحن مع اعترافنا بحصول هذا الصراع لو سلمنا بأن له أثرا ولو ضئيلا فى نفسيهما وهما غلامان فلا نسلم ببقاء هذا الأثر عند انتهاء زمن الغلومة ولو سلمنا جدلا أن هذا الأثر لازمهما بعد الكبر

(١) ابن عساكر ص ٧١٠ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٦

فلا نسلم بحال ببقاء ذلك بعد إسلامها ولا يمكن أن يعقل هذا رجل رشيد عرف الاسلام وأثره في نفوس الصحابة ، وإذا كانت ثارات الجاهلية وما كانت تحمله نفوس العرب من حب الثأر والانتقام امحى أثره بالاسلام أفلا يمحى أثر صراع بين اثنين ؟ بيد أنه كان بينهما وهما غلامان ورغم أنهما قريبان . وإذا كان الرجل بعد الاسلام يلقى قاتل أبيه أو أخيه ولا يحمل له غلا فى نفسه أفيجمل بعمر أن يحمل غلا لابن خاله خالد بعد اسلامهما لصراع كان بينهما وهما غلامان . اللهم إنا لانعقل ذلك . على أن قول عمر فى خالد حين عزله عن قنسرين فقدم عليه المدينة ونصه: « ... ياخالد والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب . . . » يدل بصراحة على أن عمر لايحمل فى نفسه حقدا لخالد وهو إليه حبيب « الطبرى ج ٤ ص ٢٠٥ »

ولكن الأسباب الحقيقية التى يؤيدها الواقع وينطق بها التاريخ وتنطبق على خلق الرجلين هى : —

١ — قتل خالد مالك بن نويرة وتزوجه بامرأته الأمر الذى ادى إلى أن يطلب عمر من أبى بكر أن يقيده أو يعزله وما كان فى نفسه قبل ذلك منذ أوقع ببنى جذيمة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم يضاف الى ذلك قتله للرجلين اللذين كانا يحملان كتابا من أبى بكر باسلامهما وذلك فى موقعة المصيخ [1]

٢ — كان فيه تقدم على رأى أبى بكر فلما تولى عمر لم يعجبه ذلك منه [2]

(١) راجع الطبرى ج ٤ ص ٥٦ . والاصابة ج ١ ص ٩٩

(٢) راجع ابن عساكر ص ٧١٣ ، الاصابة ج ١ ص ٩٩

٣ — كان لا يرفع حسابا لأبى بكر ويفعل أشياء لا يراها وكان يغفر له ذلك وعمر على خلاف هذا

٤ — افتتان الناس به واستماتتهم تحت لوائه وحبهم للقتال تحت رايته فخاف عمر أن يوكل الناس إليه فعزله ليعلموا أن الله ينصر دينه سواء أكان القائد خالدا أم سواه. وقد صرح بذلك عمر وكتب إلى الأمصار: «إنى لم أعزل خالدا عن سخط ولا عن خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا ويبتلوا به فأحببت ان يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة» [١]

متى كان العزل؟

اختلف المؤرخون فى عزله متى كان؟ فالبعض [٢] يقول: ان عزله كان والمسلمون على حصار دمشق، وفريق يرى أن عزله حصل فى أثناء موقعة اليرموك [٣]

فمن قال بانه عزل والمسلمون على حصار دمشق يتعلل بأن خالدا كان امير القتال وأن كتاب الصلح مذيل بامضائه وهو دليل كما ترى لا يكفى لأن إمرة القتال وإمضاء الكتاب ربما كانا لكفاءته فى القتال ومرانه على كتابة العهود وفضلا عن ذلك فان فى هذا الفريق من يقول: إن المسلمين حاصروا دمشق قبل وفاة أبى بكر بأربعة أيام وهو رأى غريب ومنه من يروى العزل بصيغة تشعر بالضعف كالبلاذرى حيث يقول: «وقوم

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٦

(٢) رواية الطبرى عن ابن اسحاق ج ٤ ص ٥٥، البلاذرى ص ١٢١

(٣) وعلى هذا الرأى معظم روايات الطبرى وهو ماذكره ابن الأثير

يقولون إن ولاية أبى عبيدة الشام أتته والناس محاصرون دمشق فكتمها خالداً » ومنهم من آخر روايته يتنافى مع اولها ، فبينما يقول إن عزل خالد كان والمسلمون على دمشق سنة ١٤ نراه فى نهاية روايته يصرح بأن أول مابدأ به عمر هو عزل خالد . وعلى هذا لم يسلم لهذا الفريق رأى صحيح . على أن كل دليل يؤيد الرأى الذى نختاره ينقص هذا الرأى

والفريق الذى قال إنه عزل والمسلمون على اليرموك هو الفريق الذى نرى رأيه ونؤيده وطريقنا فى تأييده أمران : —

ا — نصوص تاريخية منها : —

١ — ماذكره الطبرى فى عدة روايات[1] ومن ذلك قوله : « وكانوا بالياقوصة . . . . . . فأخبروا أباعبيدة بوفاة أبى بكر وولايته حرب الشام وضم عمر الأمراء إليه وعزل خالد ابن الوليد »

٢ — وقول ابن الأثير فى أثناء كلامه عن اليرموك : « وإنما جاء (يعنى البريد) بموت أبى بكر وتأمير أبى عبيدة »[2]

٣ — وقول معجم البلدان فى صدد كلامه عن اليرموك : « وجاء البريد يومئذ بموت أبى بكر وخلافة عمر وتأمير أبى عبيدة على الشام كله وعزل خالد »[3]

٤ — ما قاله صاحب السيرة الحلبية من أن الصديق رضى الله عنه توفى وهم فى الاستعداد للقتال باليرموك . . . ولما ولى سيدنا عمر أرسل

(١) راجع الطبرى ج ص ٥٥ ، ٤٦ ، ٣٨

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٣

(٣) ج ٨ ص ٥٠٤

البريد بعزل خالد وتولية أبى عبيدة بن الجراح على العسكر [١]

ب – أدلة تاريخية تعتمد على شيء من التدبر ، منها : –

١ – كان أول ما بدأ به عمر عزل خالد وتولية أبى عبيدة مكانه وقد روى البداءة بالعزل جمهرة [٢] المؤرخين مما لا يدع مجالا للشك وإذا كان العزل أول ما بدأ به عمر وكانت اليرموك – كما تقدم – هى فاتحة الوقائع فى زمن عمر ، فاذن يكون العزل الذى هو أول الأعمال فى أول الوقائع اعنى اليرموك

٢ – ذكر اليعقوبى [٣] أن عمر كتب لأبى عبيدة بخبر وفاة أبى بكر مع يرفأ مولاه . وكتب بعقده وولايته الشام مكان خالد بن الوليد مع شداد بن أوس وصير خالدا موضع أبى عبيدة ، وقد ذكر أن الموقعة التى تهيأت زمن أبى بكر وتمت فى عهد عمر هى اليرموك فعلى هـذا يكون العزل باليرموك

٣ – قول ابن الأثير : « وكان أول كتاب كتبه إلى أبى عبيدة بتوليته جند خالد وبعزل خالد . . . وأول ما تكلم به عزل خالد وقال : لا يلى لى عملا أبدا » [٤]

٤ – كتاب أبى بكر لخالد الذى يأمره فيه بالمسير إلى الشام لاغاثة المسلمين باليرموك : أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك [٥] . . .

(١) ج ٣ ص ١٦٣

(٢) يراجع الطبرى ج ٤ ص ٥٤ و ٥٦ واليعقوبى ج ٢ ص ١٥٨ وابن الأثير ج ٢ ص ٢٩٣

(٣) ج ٢ ص ١٥٨

(٤) ج ٢ ص ٢٩٣

(٥) الطبرى ج ٤ ص ٣٦ ، ٤٠ ، ابن عساكر ص ٧٠٧

صريح فى أن سير خالد لاغاثة المسلمين باليرموك . واليرموك فاتحة عهد عمر والعزل أول مابدأ به فالعزل إذن فى اليرموك

ويبدو لنا أن عمر عزل خالدا أكثر من مرة وهـذا العزل الذى حصل والمسلمون على اليرموك عزل عن القيادة وجعل خالد خاضعا لأبى عبيدة الذى عين قائدا عاما لجيوش المسلمين وأميرا للأمراء الذين بالشام . ولما فتحت قنسرين عين خالد عليها تحت يدى أبى عبيدة ثم عزله منها عمر . وبيان ذلك :

أنه حينما زار عمر بلاد الشام ورجع أدرب خالد وعياض بن غنم من الجابية وأصابا أموالا عظيمة ، ولما قفل خالد وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجعه رجال ... فكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالدا بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف وكان عمر لايخفى عليه شىء فى عمله، كتب إليه من العراق بخروج من خرج ومن الشأم بجائزة من أجيز فيها فدعا البريد وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها فان زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال واضمم إليك عمله

نفذ أبو عبيدة أمر الخليفة فى خالد ولكنه لم يصرح له بالعزل فبقى خالد لايدرى أمعزول أم غير معزول ، ولما لم يقدم المدينة على عمر ظن الذى قد كان فكتب إليه بالاقبال فأتى خالد أبا عبيدة فقال له فى ذلك فقال له : « إنى والله ما كنت لأروعك ماوجدت لذلك بدا وقد علمت أن ذلك يروعك فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم

وتحمل ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال : لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله إنك فى أمرى غير مجمل ياعمر ، فقال عمر : من أين هذا الثرى؟ قال من الأنفال والسهمان مازاد على الستين ألفا فلك ، فقوم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفا فأدخلها بيت المال ثم قال : ياخالد والله إنك على لكريم وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء [1] وكتب عمر إلى الأمصار : إنى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به .. وعند قدوم خالد قال عمر متمثلا :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله يصنع [2]

وقد رجع خالد إلى حمص وجعلها مقامه واعتزل فيها مرابطا بها حتى توفى [3]

أثر العزل فى نفس عمر

مهما يكن السبب الذى من أجله عزل عمر خالدا فان عمر كان يرى أنه فعل مايوافق دينه ويرضى ربه وما هو الأوفق لمصلحة المسلمين ويرى أن عزله إياه وقسوته عليه ومشاطرته ماله صلاح له وتهذيب لطبائعه وتقويم

أثر العزا فى نفس خالد

أما خالد فان العزل لم يغير من عزمه ولم يوهن من قوته وحرصه على نصرة الدين وإذلال الشرك وأهله ، وإعزاز الاسلام وجنده وإذا

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٥ وابن عساكر ص ٧١٠
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٦
(٣) ابن عساكر ص ٧١٢ و ٧١٤

كانت نفسه لم تخبث ولم تحمل حقدا ولا غلا لعمر ولا منعه العزل من أن يطعن فى نحور الأعداء ويترامى على الموت فى اللحظة التى بلغه فيها العزل فانه بعد أن هدأت نفسه وخف وقع العزل عليه فقد أدلى بالتضحية والتفانى والرضى عن عمر . ولا أدل على ذلك من حروبه التى شهدها بعد العزل وهو جندى وتحت إمرة غيره والتى فعل فيها الأعاجيب مما أدى إلى اعتراف عمر له بالتفوق الحربى والتأهل للأمارة بقوله : «أمر خالد نفسه . . . » الذى يعتبر أحسن مدح لخالد

أثر العزل فى نفوس الأمراء

لم يكن عزل خالد بالذى يحط من قدره أو يحقر من شأنه فى نفوس الأمراء والقواد بل ما زال بعد العزل كما كان قبله غير مجهول القدر ولا خامل الذكر معظما موقراً من كل الأمراء، إذا جد الجد وتوافقت الجنود ورخصت الأرواح ظهر خالد وهرع إليه الأمراء ليستطلعوا رأيه وليأخذوا عنه أحزم الخطط للنيل من العدو ولئن تخطاه مركز الامارة والتولية من الخليفة ومظهر ذلك فى الظاهر فلم يفته أثرها والغرض منها فى الواقع

اثر العزل فى نفوس الجند

أما الجند فكانوا أحرص على القتال تحت لوائه وسواء منهم من قاتل تحت رايته بالأمس ومن لم يقاتل يتسابقون على طاعته ويستميتون للقتال بين يديه ويحرصون على أن يكونوا فى كردوسه يعرفون يمن نقيبته وحسن تدبيره وأصالة رأيه ومهارته فى القيادة والتعبئة والوصول بهم إلى النصر

أثر العزل فى نفوس كبار الصحابة

مما لاشك فيه أن أجلاء الصحابة وكبراءهم كانوا يودون ان لو كان قد بقى خالد أميراً ويرغبون فى أن يكون خالد متمتعا برضاء الخليفة كما كان فى زمن أبى بكر فهم يعرفون خالدا وعزماته وسياسته فى الحرب والكثير منهم عجمة جاهلية وإسلاما وبودهم لو يظل سيف الله شاهراً سيف الامارة مسدداً سهم القيادة فى صدور الأعداء

ما آل اليه البغض بينهما

انتهى هذا البغض الشديد بينهما بمحبة وإخلاص من كليهما ورضاء كل عن الآخر واعتراف كل منهما بأن الحق فى جانب صاحبه . وهذا يشعرنا بأن البغض بينهما لم يكن لغرض دنيوى أو شخصى وإنما هو بغض للدين ولمصلحة المسلمين ، فقد ندم عمر على ما صنع مع خالد وقال فيه حين مات ولم يوجد له إلا فرسه وسلاحه وغلامه : « رحم الله أبا سليمان إن كنا لنظنه على غير هذا [١] » ويتجلى لنا ذلك حين قدم خالد المدينة على عمر وشكاه للمسلمين فقال : « يا خالد والله إنك علىّ لكريم وإنك إلىّ لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء [٢] »

يا له من اعتراف وترضية تصدر من خليفة المسلمين لكبير قواد المسلمين فلم يكفه أنه عليه كريم وإليه حبيب بل يعده بأنه لن يعاتبه بعد اليوم على شىء

وإذا أردت أكثر من هذا فانظر إليه حين طعن وعرف أنه سيموت

(١) ابن عساكر ص ٧١٤ و ٧١٦

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٥

وقد قيل له لو عهدت يا أمير المؤمنين فقال : « . . . ولو أدركت خالد ابن الوليد ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى من استخلفت على أمة محمد لقلت سمعت عبدك وخليلك يقول : لخالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين [1] » . عمر فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة يتمنى أن لو كان خالد حيا ليوليه الخلافة ويرى أنه بذلك يدافع عن نفسه إذا ما سأله مولاه عمن خلف على أمة محمد . وعمر هو الذى قال متمثلا حين قدم عليه خالد :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله يصنع

لله انت ياعمر حين تقول وقد ذكر خالد وموته : « قد ثلم فى الاسلام ثلمة لا ترتق » . وأنت أنت الذى حزنت وأكثرت من الترحم عليه حين مات وقلت فيه : « كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة » . وأنت الذى تتمنى أن لو مد الله فى عمره فتقول : ليته بقى ما بقى [2] بالحمى حجر وأخيراً تقول وقد دخل عليك هشام بن البحترى فى ناس من بنى مخزوم فطلبت منه أن ينشدك من شعره فى خالد فلما أنشدك رأيت أن هذا الشاعر رغم إجادته لم يوفه حقه ، فقلت له :

«قصرت فى الثناء على أبى سليمان رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله وتمثلت بقول أخى بنى تميم .

فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

فما عيش من قد عاش بعدى بنافعى ولا موت من قد مات يوماً بمخلد

---

(١) ابن عساكر ص ٦٩٧

(٢) ابن عساكر ص ٧١٤

ثم قلت : رحم الله أبا سليمان ما عند الله خير له مما كان فيه ولقد مات فقيداً وعاش حميداً ولكن رأيت الدهر ليس بقابل » (١)

وكما ندم عمر على صنيعه مع خالد واعترف بفضله كذلك اعترف خالد بأن صنيع عمر معه وتحامله عليه وتشدده فى محاسبته ما كان يريد به عمر إلا وجه الله ومصلحة المسلمين ؛ فيحدثنا خالد عن نفسه حين دخل عليه أبو الدرداء عائداً له وهو فى مرضه : والله ياأبا الدرداء لئن مات عمر لترن أموراً تنكرها . وقال أبو الدرداء: وأنا والله أرى ذلك قال خالد : قد كنت وجدت عليه فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل مافعل كنت وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلى من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة (٢) ومن شهد بدراً وكان يغلظ على وكانت غلظته على غيرى نحواً من غلظته على وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لايبالى قريباً ولا لوم لائم فى غير الله فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه وكان يكثر على عنده وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت فى حرب ومكابدة وكنت شاهداً وكان غائباً فكنت أعطى على ذلك فخالفه ذلك من أمرى (٣) ولقد شرح لنا خالد فى كلامه هذا تصويبه لرأى عمر والسر الذى جعله يرضى عنه بل وزاد فى رضاه حتى إنه اعتذر عنه واعترف بانه ليس هو الرجل الذى يحابى قريباً لقرابته ولا يخشى لوم

(١) ابن عساكر ص ٧١٦

(٢) وقد شاطر عمر سعد بن أبى وقاص وأبا موسى الأشعرى وأبا هريرة وعمرو ابن العاص مالهم — العقد الفريد ج ١ ص ١٦٠١٥ المطبعة الأزهرية

(٣) ابن عساكر ص ٧١٢

لأئمة فى غير الله وأنه « نعم العون هو على الاسلام »[١]

وليس أدل على رضاه وعرفانه بأنه رجل الحق والعدل من أنه حينما فارق الدنيا جعل خاتمة علاقته به أن جعل وصيته إليه بعد موته : « وقد جعلت وصيتى وتركتى وإنفاذ عهدى إلى عمر بن الخطاب »[٢]

ولعمرى ان رضاء كل من الرجلين عن الآخر وتقدير كل منهما صاحبه لمن المثل العليا لحب الحق والانصاف والعدالة فهكذا يكون أهل الاسلام وهكذا تكون أخلاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضى الله تعالى عن عمر وخالد وجزاهما عن الاسلام خير الجزاء

وإذ انتهينا من أعماله وفتوحه والكلام عليه من الناحية الحربية فيحسن أن نقول كلمة عنه من الناحية الدينية

٧ - الناحية الدينية

كان خالد منذ إسلامه حريصاً على أن يعز الاسلام وأن يذل الشرك وهب نفسه وماله فى سبيل الله وفى إعزاز الدين ونصرة المسلمين كذلك كان يحرص على تعلم الدين وتعرف الحلال والحرام ، فقد روى لنا ابن عباس عن خالد : أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ميمونة فأتى بضب محنوذ فأهوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأكل منه فقالوا يارسول الله هو ضب فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقلت أحرام هو ؟ قال لا ولكنه لم يكن بأرض قومى

(١) ابن عساكر ص ٧١٢

(٢) ابن عساكر ص ٧١٢ ، الاستيعاب ج ١ ص ١٥٧ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٠٤ ، الاصابة ج ١ ص ١٠٠

فأجدني أعافه قال خالد فاجتززته فأكلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر »[١]

لكن مع ذلك عاقه تأخره فى إسلامه ثم اشتغاله بالحروب والجهاد عن التفرغ للنظر والبحث فى الدين والتبحر فيه والحفظ للحديث الشريف والقرآن الكريم . روى ابن عساكر[٢] : « أن خالد بن الوليد أم الناس بالحيرة فقرأ من سور شتى ثم التفت إلى الناس حين انصرف فقال : شغلنى عن تعليم القرآن الجهاد » ويقول ابن حجر فى الاصابة : لقد شغلنى الجهاد عن تعليم كثير من القرآن[٣]

على أن حروبه المتوالية لم تمنعه من رواية الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ذكر فى الخلاصة أنه روى له ثمانية عشر حديثاً اتفق البخارى ومسلم على واحد وانفرد البخارى بحديث موقوف عليه وذكر ابن حجر فى كتابيه الاصابة وتهذيب التهذيب ان ممن روى عنه ابن عباس وجابر بن عبد الله والمقدام بن معديكرب وقيس بن أبى حازم والأشتر النخعى وعلقمة بن قيس وجبير وأبو العالية وغيرهم[٤]

أما فقهه فقد روى المؤرخون أن خالداً دخل الحمام فتدلك بعد

---

(١) ابن عساكر ص ٦٨٧ ، أسد الغابة ج ٢ ص ١٠٣

(٢) ص ٧٠٢ وفى رواية أخرى لابن عساكر : « قال خالد بن الوليد لقد منعنى كثيراً من القراءة الجهاد فى سبيل الله »

(٣) الاصابة ج ١ ص ٤١٤

(٤) ابن الأثير فى أسد الغابة ج ٢ ص ١٠٤ قد ذكر جماعة ممن ذكرهم ابن حجر وزاد عليه أبو أمامة بن سهيل بن حنيف ، وراجع ابن عساكر ص ٦٨٦

النورة بثخين عصفر معجون بخمر فبلغ ذلك عمر فكتب إليه : بلغنى أن تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنها كما حرم ظاهر الاثم وباطنه وقد حرم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرم شربها فلا تمسوها أجسادكم فانها نجس وإن فعلتم فلا تعودوا فكتب إليه خالد : إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر . . . . . . وقال فى ذلك خالد مخاطباً عمر

سهل ابا حفص فان لديننا شرائع لا يشقى بهن المسهل
أنجست بالخمر الغسول ولا نرى من الخمر تثقيف المحيل المحالل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه حميا الخمور والخمور تسلسل [1]

فمراجعته لعمر وتفرقته بين الخمر وهى فى شدتها وتخمرها وبينها بعد أن زالت عنها هذه الصفة وصارت غسولا تبين أنه كان ذا نظر وفقه فى الدين وإن كان لم يبلغ فى ذلك ما بلغه ابن عباس أو ابن مسعود أو غيرهما من الحفاظ وأهل الفقه . وليس أدل على أنه كان صاحب فقه ونظر من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى بنى الحارث بن كعب بنجران يدعوهم إلى الاسلام فاذا ما أجابوه أقام فيهم يعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم فى الدين ولا يمكن أن يرسل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا ينوب عنه فى إرشاد الناس وتبصرتهم بأمور دينهم إلا أن يكون أهلا لهذا المركز العظيم

وقد يكون من الحسن ان نختم بحثنا فى خالد بذكر شىء عن صفته وأخلاقه مستمدين ما سنذكره مما سبق من سيرته :

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٤ ، ابن عساكر ص ٧٠٩

صفته و أخلاقه

نصدر كلامنا فى ذلك بذكر بعض أقوال ماثورة قالها فيه عظماء الرجال الذين شاهدوه وخبروه فقدروه إذ أن أقوال أولئك العظماء أصدق صورة توضح لنا أخلاقه ظاهرة جلية تتفق والواقع ؛ فهم الذين عاصروه وعن علم يقولون فقولهم فيه أصدق حكم عليه وعلى ما نال من شهرة وعظمة خالدة فهو حكم لامرية فيه ولا تخمين :

فيقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا خالداً فانه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار »[١]

ويقول فيه أيضاً : « نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين »[٢]

وقال فيه ابوبكر حين بلغه ماصنع بالفرس فى موقعتى اليس وامغيشيا: « يامعشر قريش . . . . . . عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد »[٣]

وقال فيه حين ألح عليه عمر فى عزله : « لا أشيم سيفاً سله الله على الكفار »[٤]

وقال فيه عمر حينما فتح قنسرين : « أمر خالد نفسه رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى »[٥]

(١) الاستيعاب ج ١ ص ١٥٨ ، ابن عساكر ص ٨٩٩ ، شرح العينى للبخارى ج ١٦ ص ٢٤٥

(٢) الاستيعاب ج ١ ص ١٥٨ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٦

(٣) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٦

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٣٠

(٥) الطبرى ج ٤ ص ١٥٥ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٤ .

وقال فيه أيضاً حين بلغه موته : « قد ثلم فى الاسلام ثلمة لاترتق »(١)

وقال فيه أيضاً حين بلغه موته : « كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة »(٢)

ويقول فيه عمرو بن العاص حينما سأله أبو بكر عن رأيه فيه: «يسوس الحرب ، نصير الموت ، له أناة القطاة ، ووثوب الأسد »(٣)

وقال فيه أكيدر ملك دومة : « لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا »(٤)

ويقول لنا خالد عن نفسه : « ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه »(٥)

وفى ضوء تلك الأقوال المأثورة التى تنطق عن صفة خالد وتصور لنا أخلاقه ومواهبه تصويراً صحيحاً نتقدم نحن لبيان أخلاقه وإن شئت فقل لشرح هذه الأقوال . وقد سبق أن كتبنا كلمة فى الباب الأول تبين السر فى مهارته فى الحروب وفوقه فيها . وسنتكلم الآن عليه من النواحى الآتية :—

٤ـ سياسته فى الحرب وخبرته بفنون القتال

كان رحمه الله ميمون النقيبة موفقاً للنصر مثال القائد الحازم عارفا

(١) ابن عساكر ص ٧١٤

(٢) ابن عساكر ص ٧١٤

(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ١٤٤

(٤) وأكيدر قال قولته هذه لما سار خالد لاغاثة عياض بن غنم . راجع بيان ذلك فى فتح دومة الجندل

(٥) ابن عساكر ص ٦٩١ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨٨

بأصول الحرب وأساليبها ، يعرف موضع الكر والفر ، حائزاً لصفات الجندى الكريم ، له فى الحرب راى الشيخ وجلد الشاب وأناة القطاة ووثوب الأسد ينتهز الفرصة ويذكى العيون ويحتفظ من البيات لا يفتح بلداً ويجوزها لغيرها حتى يترك فيها حامية ويأمن من أن يؤتى من ظهره أحكم معرفة الحروب بطول تجربته وكثرة ملاقاته الكتائب ومقاساة الجيوش وحصار الحصون حريصاً على الموت فى صفوف القتال[1] لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه شىء من أمر عدوه يرى عدوه منه نجوم الليل والشمس حية ولا يرى وجهه قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا

سياسته لجنده وحبه لهم

كان خالد شديد الحب لجنده ينصفهم من نفسه ويعرف لهم حقهم وينزلهم منازلهم يقودهم إلى حيث النصر ولا يوردهم موارد الهلكة سخيا فى الأنفال والأعطيات لهم . كان لا يدع فرصة تمر دون أن يستفيد منها لتشجيع جنده وتذميرهم للقتال فتراه مرة يضرب المثل بنفسه حين يهتصر قواد عدوه وآونة يهيجهم بما يحمسهم حين يمر بين الصفوف فيقول : يا أهل الاسلام ان الصبر عز وان الفشل عجز وإن النصر مع الصبر . وتارة يجعلهم يترامون على الموت ويستحون من الفرار حين يميز بينهم ، كانت صفاته هذه ومعاملته لجنده مدعاة لحبه وتهافت الجند

(١) وكذلك كانت وصية أبى بكر له التى يقول فيها : « احرص على الموت توهب لك الحياة » راجع عيون الأخبار ج ١ ص ١٢٥ ، العقد الفريد ج١ص ٣١ وفى هذا المعنى يقول صاحب العقد الفريد : وكم من منية علتها طلب الحياة وحياة سببها التعرض للموت » ج ١ ص ٣١

للانضواء تحت لوائه . هذا إلى أنهم يعتقدون يمن نقيبته وطول دربته في الحروب ولقد بلغ من اعتقادهم فى توفيقه والهامه الصواب أنه حينما أراد الذهاب للشام مفوزا بهم خطبهم مرغبا لهم فى التفويز - وهو من غير شك مخاطرة ومهالك - فكان جوابهم أن قالوا « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك » (١)

وكان لهذا الاعتقاد من الجند فيه وتسليمهم له وترامیهم على الموت تحت لوائه أثر كبير فى انتصاره كما أنه كان من الأسباب التى حملت عمر على عزله . هذا ولقد كان لأهل السابقة والفضل فى الاسلام عنده منزلة خاصة فكان يجلهم ويعظمهم ويعرف لهم فضلهم فى الاسلام ويعتقد أن النصر يؤاتيه بسببهم يدل لذلك ماحصل منه فى موقعة مؤتة فقد أبى أخذ اللواء من صحابى شهد بدرا فقال له حين دفعه إليه قائلا خذه فأنت أعلم بالقتال منى : لا آخذه فأنت أحق به منى لأنك ممن شهد بدرا . وما كان منه حين أراد المسير للشام فقد استأثر بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلهم فى جنده

حبه للغزو والجهاد

كان رحمه الله سدادا لنحور العدو يحب أن يذل الشرك وأهله فتراه من يوم أسلم قد وهب نفسه وماله وراحته فى سبيل الله وكان الجهاد أحب شىء إلى نفسه ومقاتلة العدو كل همه فى الدنيا ولقد أثر عنه أنه قال : ماكان فى الأرض ليلة أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد ، وما كان لمثله أن يموت

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤١

إلا تحت ظلال السيوف وأسنة الرماح ولقد بلغ به الحزن
ونال منه الألم وبكى واستعبر حينما عرف أنه سيموت على فراشه فقال
متحسراً أن حرم الشهادة: « لقد شهدت مائة زحف او زهاءها وما فى
بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح
وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير فلا نامت أعين
الجبناء »[1]

بيت خالد

كان لخالد بن الوليد أكثر من زوجة أنجب منهن أكثر من واحد
وكان له من الولد سليمان وبه يكنى وعبد الله[2] الذى قتل بالعراق
وعبد الرحمن والمهاجر وكانا غلامين على عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولما وقعت الفتنة بين على ومعاوية انضم عبد الرحمن إلى معاوية
وتشيع المهاجر لعلى، ويذكر بعض الرواة أن المهاجر هذا قتل بصفين[3]
وكان عبدالرحمن من فرسان العرب ومن أهل النجدة والغناء والكرم
والهدى « ومن يشابه أبه فما ظلم » وكان فى زمن عثمان رضى الله عنه
والياً على حمص تحت إمرة معاوية ولما قدم المشاغبون على عثمان من أهل
البصرة على معاوية ثم خرجوا عنه ومالوا إلى الجزيرة سمع بهم عبد الرحمن
ابن خالد فطلبهم وقال لهم : يا أنة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا قد
رجع الشيطان محسورا وأنتم بعد نشاط خسر الله عبد الله إن لم يؤدبكم حتى

(١) أسد الغابة ج ٢ ص ١٠٤ ، المعارف لابن قتيبة ص ٩٠
(٢) أنساب القرشيين ج ٢ ص ٣٤٢
(٣) أنساب القرشيين ج ٢ ص ٣٤٠

يحسركم يامعشر من لا أدرى أعرب أم عجم لا تقولوا لى ما يبلغنى أنكم تقولون لمعاوية ، أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجمات أنا ابن فاتىء الردة والله لئن بلغنى يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معى دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . . . يا ابن الحطيئة أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر مالك لا تقول ما كان يبلغنى أنك تقول لسعيد ومعاوية فيقول ويقولون نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله . . .

ولقد بلغ من شهرته وعظمته ومحبة الناس لولايته أنه حينما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد خطب الناس فقال : قد كبرت سنى وقرب أجلى وأردت أن أعقد لرجل يكون نظامكم فاختاروا لأنفسكم فإنما أنا رجل منكم فاجتمعوا وقالوا رضينا عبد الرحمن بن خالد فشق ذلك على معاوية ودبر له أمر موته فدس إليه ابن أثال الطبيب اليهودى فسقاه شربة مات منها وثأر له من هذا اليهودى خالد ابنه أو خالد ابن أخيه المهاجر على خلاف فى ذلك . وقال ابن المهاجر حين ثأر لعمه من اليهودى[١]

قضى لابن سيف الله بالحق سيفه ... وعرى من حمل الدخول رواحله

وحين مات عبد الرحمن بن خالد رثاه كعب بن جعيل بقوله :

ألا تبكى وما ظلمت قريش ... بأعوال البكاء على فتاها

ولو سئلت دمشق وبعلبك ... وحمص من أباح لكم حماها

فسيف الله أدخلها المنايا ... وهدم حصنها وحوى قراها

وأنزلها معاوية بن صخر ... وكانت أرضه أرضا سواها

وكان لخالد بن الوليد من الولد عدا من ذكرنا كثير غيرهم . يقول

(١) ابن عساكر ص ٦٦٢ ، ٦٨٣

ابن قتيبة [١] : وكان له بالشام من الولد عدد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلا فبادوا . وقد انقرض ولده فلم يبق منهم أحد وورث أيوب ابن سلمة بن عبد الله [٢] (الوليد) بن الوليد بن الوليد بن المغيرة دورهم قال صاحب أسد الغابة [٣] : « وقد انقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة . وقال صاحب نهاية الأرب [٤] : « وقد انقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد شرقاً ولا غرباً وأن من انتمى إليهم فهو مبطل فى انتمائه، وكل من ادعى إليه فقد كذب ». وقال فى صبح الأعشى [٥] : وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبه

وفاته

لم تتفق كلمة المؤرخين فى تعيين المكان الذى توفى فيه خالد كما لم تتفق على سنة وفاته على أن الاختلاف فى سنة الوفاة لا يكاد يكون اختلافا وسنعرض بعض الروايات فى ذلك لنختار منها ما نراه الأرجح

١ — ذكر الطبرى نقلا عن الواقدى أنه مات بحمص سنة ٢١ [٦]

٢ — وقال ابن عساكر : وقبره بحمص فأخبرنى من غسله وحضره

(١) المعارف ص ٩٠

(٢) كان اسمه الوليد فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله وقال فى ذلك : لقد كادت بنو المغيرة أن تجعل الوليد ربا . من أنساب القرشيين ج ٢ ص ٣٤٤ ، الاستيعاب ج ١ ص ٣٩٩

(٣) ج ٢ ص ١٠٤

(٤) ج ٢ ص ٢٥٦

(٥) ج ١ ص ٣٥٥

(٦) راجع الطبرى ج ٤ فى حوادث سنة ٢١

ونظر إلى ما تحت ثيابه ما فيه مصح [١]

٣ — وقال أيضا : فاعتزل خالد إلى ثغر حمص فكان فيه وحبس خيلا وسلاحا فلم يزل مقيما مرابطا بحمص حتى نزل به [٢]

٤ — ويقول أيضا : قدم خالد بن الوليد بعد أن عزله عمر بن الخطاب معتمراً فمر بالمدينة فلقى عمر ثم رجع إلى الشام فانقطع إلى حمص فلم يزل بها حتى توفى بها سنة احدى وعشرين [٣]

٥ — وقال فى أسد الغابة : وتوفى بحمص من الشام وقيل بل توفى بالمدينة سنة إحدى وعشرين [٤]

٦ — ويقول ابن حجر فى تهذيب التهذيب : قال محمد بن سعد وابن نمير وغير واحد مات بحمص سنة ٢١ وقال دحيم وغيره مات بالمدينة وقيل مات سنة ٢٢

٧ — ويقول فى الاصابة [٥] : مات خالد بن الوليد بمدينة حمص سنة إحدى وعشرين وقيل توفى بالمدينة النبوية . . . . . ولكن الأكثر على أنه مات بحمص

٨ — وقال البدر العينى [٦] : ومات على فراشه بحمص وقيل بالمدينة والأول أصح سنة إحدى وعشرين

(١) ص ٦٩٥

(٢) ص ٧٠٢

(٣) ص ٧١٤

(٤) ج ٢ ص ١٠٤

(٥) ج ١ ص ١٠٠

(٦) شرح البخارى للعينى ج ١٦ ص ٢٤٥

هذه بعض روايات المؤرخين وإذا نحن عرضناها أمامنا تبين لنا أنه مات سنة إحدى وعشرين بحمص لأن من هذه الروايات من لم يذكر موته بالمدينة أصلا كما لم يتعرض لموته سنة ٢٢ والبعض الذى ذكر ذلك إنما ذكره بصيغة تشعر بالضعف

رحمك الله أبا سليمان فقد أصيب الاسلام بوفاتك وثلم فيه ثلمة لا ترتق . وليتك بقيت مابقى بالحمى حجر فقد كنت تحب أن يذل الشرك وأهله ولقد عشت سعيداً ومت حميداً وما عند الله خير لك وأبقى ؟





